

هُوَ الْعَلِيمُ

تَفْوِضُ إِلَى اللَّهِ
الْجُزْءَ الثَّالِثَ مِنْ
الْعَزَائِفِ الرَّشِيدِ الْإِسْمَاءِ

تَوْفِيقُ الْمَلِكِ الْقَلْبِ

مِنْ أَقْسَامِ

أَنْوَالِ الْمَلَكُوتِ

تَأليف سَمَاعَةَ الْعَلَامَةِ الرَّامِلِ

أَتَيْتُ اللَّهَ الْحَاجَّ السَّيِّدَ مُحَمَّدَ الْحُسَيْنِ الْحُسَيْنِيِّ الظَّهْرَ لِي

أَفَاخَذَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِ نَفْسِهِ الْقَدْرِيَّةِ

تَعَرُّبًا

حَسَنَ إِبْرَاهِيمَ

وَلِلْمُحَمَّذِ الْبَيْضَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هو العليم

أنوار الملكوت :

نور ملكوت القرآن

نور ملكوت المسجد

نور ملكوت الصلاة

نور ملكوت الصيام

نور ملكوت الدعاء

الفهرست

فهرس مطالب وموضوعات
نور ملكوت القرآن
الجزء الثالث

الصفحات

المطالب

البحث الخامس :

منطق القرآن هو التوحيد الخالص في جميع الشؤون

الصفحة ٣ إلى الصفحة ١٧٠

يشمل المطالب التالية :

- ٥ الآيات الدالة على أنّ الله شهيد و رقيب و حفيظ و محيط بكلّ شيء
- ٧ خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في وجوب التمسك بالقرآن
- ٩ ابن أبي الحديد ينقل مطالب في شأن القرآن
- ١١ روايات عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في شأن القرآن
- ١٣ القرآن يربط بين جميع الموجودات بنظرته التوحيدية
- ١٩ مقدّمات الثورة الأوروبية على البابوات دعاة الجاه والسلطة
- ٢١ نقد علماء أوروبا في مدى موافقة التوراة والإنجيل للعلم والتأريخ
- ٢٥ القرآن يفضح أخطاء التوراة والإنجيل الفعلين ويّتهم القساوسة

- ٢٩ الكسيس كارل يوضّح علّة إخفاق العلوم الطبيعيّة
- ٣٣ تختبّط الشرق والغرب في أسر المادّيّة
- ٣٥ تعميم نعمة القرآن ونشرها يستوجب الجهاد لذلك
- ٣٧ أحكام الإسلام في الجهاد من القتل والأسر والفدية والنهب والإغارة
- ٤٣ فلسفة الجهاد في الإسلام هي الإيثار وإنفاق التوحيد ونشره على مفتقديه
- ٤٥ قصّة عبور النبيّ الأكرم على الأسرى وتبسّمه
- ٥٣ بحث العلامة الطباطبائيّ حول الرقّ والعبوديّة في آخر سورة المائدة
- ٥٥ الآيات الدالّة على أنّ جميع الموجودات هم أرقاء وعبيد بشكل مطلق لله
- ٥٧ مسيرة الاستعباد في التأريخ القديم
- ٥٩ إلغاء الإسلام العبوديّة الناشئة من جهة الغلبة ومن جهة ولاية الأبوين
- ٦١ الآيات الدالّة على تساوي أفراد البشر من جميع الجوانب عدا التقوى
- ٦٥ شروط الجهاد الإسلاميّ وكيفيّة قتل وأسر الكافرين
- ٦٩ الأماكن التي عُهد فيها استعمال الرقيق في قديم الزمان والتي لم يُعهد فيها
- ٧١ التأريخ وكيفيّة تحرير العبيد
- ٧٣ الإنسان يعيش دوماً في إطار محدّد، وتعبير الحرّيّة المطلقة اسمٌ بلا مسمّى
- ٧٥ القوّة الدفاعيّة في القتل وأسر العدو ضروريّة لأيّ مجتمع
- ٧٧ إلغاء لفظ الرقّ من أجل الحفاظ عليه بنحوٍ أتمّ وأكمل
- ٨١ الآيات والروايات الواردة في وجوب الجهاد في سبيل الله
- ٨٥ النهضة الجزائريّة ضدّ الاستعمار الفرنسيّ الجائر كانت اتّباعاً للقرآن
- ٨٧ طريق العلاج الوحيد للمسلمين في العودة إلى القرآن
- ٨٩ سيطرة الأوروبيّين على العالم بعد اكتشاف كريستوف كولومبس
- ٩٥ الحروب الصليبيّة والإبادة الجماعيّة للمسلمين في الأندلس
- ٩٧ علل ضعف المسلمين ناشئ من ضعف العمل بالقرآن
- ٩٩ غلبة الإنجليز على العراق في الحرب العالميّة كان ناشئاً من الارتشاء

- ١٠١ جهاد العلماء والشعب ضدّ الهجوم الإنجليزيّ
- ١٠٥ كانت الحرب العراقيّة الظالمة لإسقاط إيران الإسلاميّة
- ١٠٧ السياسة الإنجليزيّة في أيّ بلد تتمثّل في الدعوة إلى القوميّة
- ١١١ عمل المستعمرين يماثل أسلوب فراعنة مصر مع العبيد في بناء الأهرام
- ١١٥ منطق المستعمرين هو القوّة والافتدار
- ١١٧ استعمار العالم يمثّل نفس قوانين الغاب بصياغة جديدة
- ١٢١ منطق المستعمرين يعاكس تماماً المنطق القرآنيّ
- ١٢٣ رأي السيّد جمال الدين الأسدآباديّ في عداء إنجلترا للمسلمين
- ١٢٩ خطبة السيّد جمال الدين في مصر حول عظمة القرآن
- ١٣١ الإغماء على السيّد جمال الدين وأعضاء الجمعيّة إثر خطبة حول القرآن
- ١٣٣ ترجمة حياة السيّد جمال الدين الأسدآباديّ ومؤلفاته
- ١٣٥ الدعوة إلى الجهاد تتألق مضيئة في معالم القرآن
- ١٣٩ مقولة محمّد عبده في عداء السيّد جمال الدين لإنجلترا
- ١٤١ فن الإنجليز في المستعمرات تنفّذ على يد عملائهم الماسونيين
- ١٤٣ تدخّل الإنجليز في فتنة إيران تحت اسم النهضة الدستوريّة
- ١٤٥ التدخّل المقيت لدولة إنجلترا في تعيين مصير الشعب الإيرانيّ
- ١٤٩ عدم استسلام السلطان أحمد شاه أمام الضغوط الإنجليزيّة القويّة
- ١٥٥ كان أحمد شاه يحسب للعواقب ، فلم يجعل المصلحة العامّة فداءً لرئاسته
- ١٥٧ خطاب أحمد شاه في فرنسا بشأن حقّانيّته
- ١٥٩ أحمد شاه يطوي تاريخاً مليئاً بالأحداث ولا يرضى بالخيانة
- ١٦٣ سفر فروغي إلى باريس لشراء استقالة أحمد شاه بمليون ليرة
- ١٦٥ يتمثّل النهج الاستعماريّ الكافر في الخيانة ، والنهج القرآنيّ في الحياة
- ١٦٧ وجود الإمام المعصوم حقيقة القرآن

البحث السادس :

سير القرآن في آيات الأنفس

الصفحة ١٧٣ إلى الصفحة ٢٥٩

يشمل المطالب التالية :

- ١٧٥ تفسير آية : **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ**
- ١٧٧ روايات الخاصة والعامة على أنّ البسمة جزء من القرآن
- ١٧٩ معنى المثاني والسور الطوال والمئين والمفصلات والقصار
- ١٨١ جميع آيات القرآن متشابهة ومثاني
- ١٨٣ ماذا تفعل آيات القرآن بنفوس المؤمنين ؟
- ١٨٥ عدم قبول آيات القرآن من علائم الكفر
- ١٨٧ موقف الكفار من قبول القرآن موقف الأصم الذي لا يسمع
- ١٩١ الروايات الواردة في أنّ الأئمة عليهم السلام هم الراسخون في العلم
- ١٩٣ قتال أمير المؤمنين عليه السلام للناكثين والقاسطين والمارقين
- ١٩٥ قول رسول الله بأنّ عليّاً خاصف النعل يُقَاتِلُ في سبيل الله
- ١٩٧ الروايات الواردة عن رسول الله في جهاد أمير المؤمنين للمنافقين
- ١٩٩ رسالته في «نهج البلاغة» لمعاوية في سعي معاوية للرئاسة متأولاً للقرآن
- ٢٠١ «نهج البلاغة» وشكوى الإمام من عدم تفسير بعض الآيات ببعضها الآخر
- ٢٠٣ خطبته عليه السلام في «نهج البلاغة» حول عظمة القرآن
- ٢٠٥ خطبة أخرى له عليه السلام حول القرآن وأهميّة حماة آل محمّد
- ٢٠٧ كفيّة قراءة رسول الله للقرآن الكريم
- ٢٠٩ حالات الإمام الكاظم والإمام السجاد عليهما السلام عند قراءة القرآن
- ٢١٣ دعاء ختم القرآن في «الصحيفة السجادية»
- ٢١٥ بلوغ النبيّ والأئمة أسمى مراتب التصوّر بمجاهداتهم وتبعيتهم لله
- ٢١٧ باتّباع المسلمين لتعاليم القرآن قد بلغوا درجات عالية

- ٢١٩ سماع الفضيل آية : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
- ٢٢١ بشر الحافي وانقلاب حاله من كلام لموسى بن جعفر عليهما السلام
- ٢٢٣ تأثير خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في هتمام ومفارقة الحياة
- ٢٢٥ تصدع كبد بشر الحافي من عشق الله حسب نقل الشهيد الثاني رحمه الله
- ٢٢٧ التدبّر والتأمل في القرآن مفتاح النجاة والسعادة
- ٢٢٩ الديوان المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام والأشعار المتعلقة بالقرآن
- ٢٣١ وجوب الإنصات للقرآن عند قراءته
- ٢٣٣ المقدار الذي ينبغي لكل مسلم قراءته من القرآن كل يوم
- ٢٣٥ الروايات الواردة حول قراءة القرآن في البيوت
- ٢٣٧ من آداب قراءة القرآن : الصوت الحسن ، والاستعاذة
- ٢٣٩ لا يجب قراءة سورة كاملة في الصلاة بعد سورة الحمد
- ٢٤١ قراءة القرآن وصلاة الليل لأمير المؤمنين والفواطم في صحراء الهجرة
- ٢٤٣ ممانعة قريش لحركة أمير المؤمنين والفواطم صوب المدينة
- ٢٤٥ كيفية أداء رسول الله صلاة الليل وتلاوة القرآن
- ٢٤٧ في الصلوات الواجبة والمستحبة ينبغي القراءة من أي موضع من القرآن
- ٢٥١ إشراف عباد بن بشر على الموت في غزوة ذات الرقاع وعدم قطعه تلاوته
- ٢٥٣ آخر خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام وذكره لإخوانه الشهداء
- ٢٥٧ شهادة عمّار بن ياسر في معركة صفين

البحث السابع :

ثمرة القرآن : تربية الإنسان الكامل

الصفحة ٢٦٣ إلى الصفحة ٣٠٣

يشمل المطالب التالية :

- ٢٦٥ التنزيل في القرآن المفصل ، والنزول في القرآن المحكم

- ٢٦٧ نفس رسول الله متّحدة مع القرآن السامى والمحكم
- ٢٦٩ يمتلك حملة القرآن أشرف مكارم الإنسانية
- ٢٧١ لو أعطى القرآن لأحد لنال أعظم المواهب الإلهية
- ٢٧٥ القائد والدليل إلى الله ينبغي أن يكون عارفاً بالقرآن
- ٢٧٧ قصة الشابّ الذى قال فى المسجد لرسول الله : أصحبت موقناً
- ٢٧٩ موقف قرءاء القرآن فى جواب الله و فى آيات السجدة
- ٢٨٣ قصة قول سيّد الشّهدا لحبيب بن مظاهر: لله درك يا حبيب !
- ٢٨٥ معنى و تفسير الروايات الواردة فى أنّ القرآن بيان لحقيقة الإمام
- ٢٨٧ آيات من القرآن و تأويلها بشأن الأئمة
- ٢٨٩ المراد بالصرّاط المستقيم ، صراط على بن أبى طالب عليه السّلام
- ٢٩١ أبيات الأزرى فى أنّ أميرالمؤمنين عليه السّلام حقيقة القرآن
- ٢٩٥ معنى كفانا كتاب الله : نقض كتاب الله و عدم القبول به
- ٢٩٧ الروايات الواردة فى اتّحاد نفس النّبى بأمرالمؤمنين فى التحقّق بالقرآن
- ٢٩٩ حبيب بن مظاهر كان يختم القرآن كلّ ليلة
- ٣٠٣ نقل ابن إبي الحديد فى أنّ أصحاب الإمام الحسين كانوا كالأسود الضارية

البحث الخامس

مَنَظِقُ الْقُرْآنِ هُوَ التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ فِي جَمِيعِ الشُّؤُونِ

وَنَفْسِيَّةِ

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا
الْقُرْآنُ أَنْ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ
وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ مِنَ الْآنَ إِلَى قِيَامِ يَوْمِ الدِّينِ
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَإِن يَمَسُّكَ آلَهُ بُضْرٌ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * قُلْ
أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ
لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ
قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .^١

ويشير قبل هذه الآيات في بيان تعريف التوحيد والإشارة إلى وحدة
ذات الحق القدسية في جميع الشؤون والأمر، فيقول جل شأنه : قُلْ لِمَنْ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَهُ مَا
سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَليًّا فَاطِرِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ
أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ

١- الآيات ١٧ إلى ١٩، من السورة ٦: الأنعام .

يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ^١ .
 فهذه الآيات تُبَيِّنُ بوضوح أنّ منطق القرآن هو الدعوة إلى التوحيد ،
 ذلك التوحيد المحض الخالص في جميع الشؤون دون شائبة ، والدعوة إلى
 المعاد ، أي أنّ مبدأ ومعاد جميع العوالم والكائنات ومن جملتها الإنسان
 منحصران في الذات القدسيّة الربوبيّة ، فالمقصد والمقصود في جميع
 الأمور - التكوينيّة والتشريعيّة أو غيرهما - هو الله سبحانه ، له الطاعة
 لا يشركه فيها سواه ، وهو الحاضر والناظر والمهيمن والمسيطر على جميع
 الموجودات ، وهو الذي له مع كلّ موجودٍ معيّة ذاتيّة وصفاتيّة وأسمائيّة .
 وعليه ، فينبغي الخضوع أمام ربّ ودود ورحيم بهذه الصفات ،
 والقيام بعبادته ودعائه على الدوام ، والانقطاع عن كلّ ما سواه وكلّ من
 عداه ، وإيكال زمام أمور الدين والدنيا والآخرة إليه سبحانه ، فذلك هو
 النهج القويم ، والعمل وفق أساس عالم الخلق ، وتبعيّة الإنسان للحقّ
 والحقيقة ، لا للأوهام والخيال والشكّ والريب .

وليست الشهادة في اللغة العربيّة بمعنى مُطلق بيان العلم ، بل هي
 بمعنى الحضور ، ولأنّ الشاهد ينبغي أن يكون حاضراً ليشهد على ما
 حضره وعيانه ، فقد دُعي كلام هذا الشاهد شهادةً ، وجميع مشتقات هذه
 الكلمة كالشَّهيد والشَّاهد والمَشْهُود وغيرها هي من هذا القبيل ، أي أنّها
 تستبطن جميعاً معنى الحضور ، وهي لهذا تستعمل بهذا اللحاظ في المعاني
 والمقاصد المختلفة .

وعليه ، فالآية القائلة : قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا
 الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ تَنْبِئْ أَوْلَى أَنْ دَعَا الْقُرْآنَ هِيَ للتوحيد

١- الآيات ١٢ إلى ١٦ ، من السورة ٦ : الأنعام .

الخالص لأنها مشفوعة بقوله : **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ؛ فيعلم أن دعوة هذا الكتاب الإلهي إنما هي لهذا النوع من التوحيد .
وتنبئ ثانياً بعدم اختصاص القرآن بأفراد وزمان النبي الأكرم ، بل هو شامل كذلك لجميع الأزمنة والعصور ، كما أنه لا يختص بالناطقين بالعربية ، بل هو حجة في جميع الألسن واللغات ، لأنه بتصريحه بكلمة **وَمَنْ بَلَغَ** فقد جعل الإنذار والوعيد الإلهي موجهاً لكل فرد من أفراد البشر يصله القرآن ومحتواه ، واعتبر الحجة الإلهية تامة عليه ، سواء بلغته آيات القرآن بالعربية أم مترجمة بلغة أخرى ، مكتوبة له أم مقروءة ، مشافهة أم بالبت الإذاعي وأمثال ذلك .

وقد وردت في القرآن الكريم نظائر لكلمة شهيد وأمثالها ، مثل **رَقِيبٌ وَحَفِيزٌ وَمُحِيطٌ فِي شَأْنِ اللَّهِ تَعَالَى** ، كما في قوله : **فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**^١ .
ومثل : **أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنْهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ**^٢ .
ومثل : **فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ**^٣ .
ومثل : **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**^٤ .

ونظير الآيات المباركة في سورة الأنعام في دعوة القرآن الكريم إلى

١- الآية ١١٧ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢- الآيتان ٥٣ و٥٤ ، من السورة ٤١ : فصلت .

٣- الآية ٥٧ ، من السورة ١١ : هود .

٤- الآية ١ ، من السورة ٤ : النساء .

التوحيد الخالص والمطلق للذات الأحديّة المقدّسة في جميع الشؤون هناك آيات في سورة يونس تماثلها في المضمون :

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّبُكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *
وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن كُنتَ إِذَا مَنَّ
الظَّالِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ
فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .^١

ويتضح ممّا ذكر أنّ القرآن حجّة علينا نحن الذين أطللنا على الوجود بعد نزوله بأربعة عشر قرناً ، نحن الذين نعيش في منطقة جغرافيّة تختلف عن منطقة نزوله ، بل هو حجّة مستمرة إلى يوم القيامة وعلى جميع نقاط الأرض ، ولا مفرّ ولا مهرب من قبوله والعمل به .

وفي نهج البلاغة خطبة بليغة لأمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين ، أوردها في وصف القرآن وبيان وجوب متابعتة ، يقول في مقدمتها :

انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ ؛ وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ ؛ وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ
اللَّهَ قَدْ أَعَذَّرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ ؛ وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ ؛ وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنْ
الْأَعْمَالِ وَمَكَارِهِ مِنْهَا لِتَتَّبِعُوا هَذِهِ ؛ وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ !
فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ
بِالْمَكَارِهِ ؛ وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ شَيْءٍ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرِّهِ . وَمَا مِنْ مَعْصِيَةٍ

١- الآيات ١٠٤ إلى ١٠٧ ، من السورة ١٠ : يونس .

اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ . فَرَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ . وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ . فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْرَعًا وَإِنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْزَعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوَى .

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ ! أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ ؛ فَلَا يَزَالُ زَارِيًا عَلَيْهَا ؛ وَمُسْتَزِيدًا لَهَا . فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ قَوِّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ ؛ وَطَوَّوْهَا طَيِّ الْمَنَازِلِ .

ثم يقول أمير المؤمنين عليه السلام بعد هذه المقدمة بشأن عظمة القرآن وخلوده ولزوم التمسك به :

وَأَعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ ؛ وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ ؛ وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ . وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ : زِيَادَةٍ فِي هُدًى ، أَوْ نَقْصَانٍ فِي عَمَى .
وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ ؛ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنَى . فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَانِكُمْ وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لِأَوَائِكُمْ فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ وَالْغَيِّ وَالضَّلَالُ .
فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ ! وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ بِمِثْلِهِ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ ؛ وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَعَ فِيهِ ؛ وَمَنْ مَحَلَّ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَقَ عَلَيْهِ . فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : « أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلَى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ غَيْرَ حَرْثَةِ الْقُرْآنِ » .

فَكُونُوا مِنْ حَرْثَتِهِ وَاتَّبَاعِهِ ؛ وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ ؛ وَاسْتَنْصِحُوهُ

عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ وَاتَّهَمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ ؛ وَاسْتَعْشُوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ - الخطبة ١ .
وقد عقد ابن أبي الحديد بعد إيراد هذه الخطبة وشرحها باختصار ،
فصلاً في بيان ما ورد على لسان الناس في تعظيم القرآن وإجلاله ، نقل هنا
قسماً منه :

ومن الكلام المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام في ذكر القرآن
ما رواه ابن قتيبة في كتاب «عيون الأخبار» عنه عليه السلام ، قال :
مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرَجَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا
طَيِّبٌ . وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ
وَلَا رِيحَ لَهَا . وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ
وَطَعْمُهَا مُرٌّ . وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ
وَرِيحُهَا مُنْتِنَةٌ .^٢

١- «نهج البلاغة» الخطبة ١٧٤ ؛ وفي طبعة مصر وتعليق محمد عبده ؛ ج ١ ، ص ٣٢٥
إلى ٣٢٧ ؛ وفي شرح ابن أبي الحديد ، طبعة دار الكتب العربية ؛ ج ١٠ ، ص ١٦ إلى ١٩ .
٢- روى في «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦٠٤ ، كتاب فضل القرآن ، الرواية السادسة ،
بسند المتصل عن أبان بن تغلب عن الصادق عليه السلام ما يُماثل مضمون هذه الرواية بهذه
الكيفية :

قال : الناس أربعة . فقلتُ : جعلت فداك ؛ وما هم ؟ فقال : رجل أوتي الإيمان ولم يؤت
القرآن ، ورجل أوتي القرآن ولم يؤت الإيمان ، ورجل أوتي القرآن وأوتي الإيمان ، ورجل
لم يؤت القرآن ولا الإيمان .

قال : قلتُ : جعلت فداك ؛ فسّر لي حالهم .

فقال : أَمَّا الَّذِي أُوتِيَ الْإِيمَانَ وَلَمْ يُؤْتَ الْقُرْآنَ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ : طَعْمُهَا حُلْوٌ وَلَا رِيحَ
لَهَا . وَأَمَّا الَّذِي أُوتِيَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يُؤْتَ الْإِيمَانَ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْأَسِّ : رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ .
وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْأُتْرَجَةِ : رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ . وَأَمَّا الَّذِي
لَمْ يُؤْتَ الْإِيمَانَ وَلَا الْقُرْآنَ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا .

وكان ابن عباس يقول: إِذَا وَقَعْتُ فِي آلِ حَمٍّ ؛ وَقَعْتُ فِي رَوْضَاتِ دَمِيَّاتٍ أَتَانَتْ فِيهِنَّ .

وقال ابن مسعود: لِكُلِّ شَيْءٍ دِيْبَاجَةٌ ؛ وَدِيْبَاجَةُ الْقُرْآنِ آلُ حَمٍّ .
وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَصْفَرُ الْبُيُوتِ جَوْفُ صَفْرٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .

ووفد غالب بن صعصعة على أمير المؤمنين عليه السلام ومعه ابنه الفرزدق فقال له: مَنْ أَنْتَ ؟ قال: غالب بن صعصعة المجاشعي .

قال عليه السلام: ذُو الْإِبِلِ الْكَثِيرَةِ ؟ قال: نعم .
قال: مَا فَعَلْتَ إِبْلَكَ ؟ قال: أَذْهَبْتُهَا النَّوَائِبُ وَذَعَدْتُهَا الْحُقُوقُ .
قال عليه السلام: ذَاكَ خَيْرٌ سُبُلِهَا .

ثم قال: يَا أَبَا الْأَخْطَلِ ! مَنْ هَذَا الْغَلَامُ مَعَكَ ؟
قال: ابني وهو شاعر .

قال: عَلَّمَهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الشُّعْرِ .
فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيّد نفسه وآلى أن لا يحلّ قيده حتى يحفظ القرآن، فما حلّه حتى حفظه، وذلك قوله:

وَمَا صَبَّ رِجْلِي فِي حَدِيدٍ مُجَاشِعٍ

مَعَ الْقِدِّ إِلَّا حَاجَةٌ لِي أُرِيدُهَا

ثم يقول ابن أبي الحديد هنا: تحت قوله عليه السلام لغالب بن صعصعة أب الفرزدق يَا أَبَا الْأَخْطَلِ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ الْغَلَامَ وَلَدَهُ وَأَنَّهُ شَاعِرٌ سُرٌّ غَامِضٌ ، وَيَكَادُ يَكُونُ إِخْبَارًا عَنْ غَيْبٍ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْإِمَامَ قَدْ لَمَحَ بِنَظَرِهِ الثَّاقِبِ الْبَعِيدِ مَا سَيَسْتَقْبَلُهُ مِنَ الْأَيَّامِ ^١ .

١- باعتبار أنّ الأخطل لقب أحد الشعراء المعروفين، فأراد الإمام بهذه الكنية ⇨

يقول الفضيل بن عياض : بلغني أنّ صاحب القرآن إذا وقف على معصية خرج القرآن من جوفه فاعتزل ناحية وقال : ألهذا حملتني ؟ وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي : يَا بَنُ أُمَّ سَلِيمِ ! لَا تَغْفُلْ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ صَبَاحًا وَمَسَاءً فَإِنَّ الْقُرْآنَ يُحْيِي الْقَلْبَ الْمَيِّتَ وَيُنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ . وقال أسلم الخواص : كنتُ أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة . فقلتُ لنفسي : يا أسلم ! اقرأ القرآن كأنك تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فجاءت حلاوة قليلة . فقلتُ : اقرأه كأنك تسمعه من جبريل عليه السلام ؛ فازدادت الحلاوة . فقلتُ : اقرأه كأنك تسمعه من الله عزّ وجلّ حين تكلم به . فجاءت الحلاوة كلّها .

⇨ الإشارة إلى أنّ ابنه سيكون شاعراً كالأخطل . يقول المحدث القميّ في «هدية الأجناب» في اسم الفرزدق:

اسمه همام بن غالب ، وكنيته أبو فراس ، وهو أحد الشعراء المعروفين الذين قيل عنهم: لم يكن في الإسلام شاعر كالفرزدق وجريروالأخطل . وقال يونس : لو لم يكن شعر الفرزدق لضاع ثلث اللغة العربيّة ؛ ص ٢١١ .

وأورد في «الكنى والألقاب» ج ٣ ، ص ١٧ فصاعداً ، طبعة صيداً ، أحواله بالتفصيل وذكر مفصلاً قصيدته الميمية التي ارتجلها بدهاءة في حضور هشام بن عبد الملك بن مروان في وصف ومدح الإمام السجاد عليه السلام حين عجز الناس عند بيت الله من استلام الحجر وتقبيله وعجز هشام كذلك ، لكن ما إن وصل الإمام في طوافه إلى الحجر حتّى انفرج له الناس فاستلم الحجر . وقد ذكر المرحوم المامقانيّ في «تنقيح المقال» ج ٢ ، ص ٤ في باب الألقاب باسم الفرزدق ترجمته مفصلاً وأورد قصيدته الميمية كاملة .

توفي الفرزدق سنة ١١٠ هجرية قمرية ، ثمّ توفي جريروبعده في نفس السنة .

وقال بعض أرباب القلوب: إِنَّ النَّاسَ يَجْمِزُونَ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ مَا خَلَا الْمُحِبِّينَ؛ فَإِنَّ لَهُمْ خَانَ إِشَارَاتٍ إِذَا مَرُّوا بِهِ نَزَلُوا. يُرِيدُ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ يَقْفُونَ عِنْدَهَا فَيَفَكِّرُونَ فِيهَا. وورد في الحديث المرفوع: مَا مِنْ شَفِيعٍ مِنْ مَلَكٍ وَلَا نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِمَا أَفْضَلُ مِنَ الْقُرْآنِ.^١

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إِنَّ الْقُلُوبَ تَصُدُّ كَمَا يَصُدُّ الْحَدِيدُ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا جَلَاؤُهَا؟! قَالَ: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَذِكْرُ الْمَوْتِ.^٢

وعن رسول الله أيضاً: مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ أَذَنَهُ لِنَبِيِّ حَسَنٍ التَّرْتُمَ بِالْقُرْآنِ.

وعنه صلوات الله عليه وآله وسلم: إِنَّ رَبَّكُمْ لَأَشَدُّ أَدْنًا إِلَى قَارِي الْقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ.

وعنه أيضاً: أَنْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَا نَهَاكَ؛ فَإِذَا لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرُؤُهُ. وعن ابن مسعود: يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذَا النَّاسُ نَائِمُونَ؛ وَبِنَهَارِهِ إِذَا النَّاسُ مُفْطَرُونَ؛ وَبِحُزْنِهِ إِذَا النَّاسُ يَفْرَحُونَ؛ وَبِبِكَائِهِ إِذَا النَّاسُ يَضْحَكُونَ؛ وَبِخُشُوعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْتَالُونَ. وَيَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ سَكِينًا، زَمِيمًا، لَيِّنًا.

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ جَافِيًا وَلَا مُمَارِيًا، وَلَا صَيَّاحًا وَلَا حَدِيدًا

١- أوردنا هذه الرواية مفصلةً في الجزء الثالث، البحث السابع من هذا الكتاب «نور

ملكوت القرآن» نقلاً عن «المحجة البيضاء» ج ٢، ص ٢١٠، عن «إحياء العلوم».

٢- أوردناها في هذا الكتاب أيضاً، ج ٣، عن «المحجة البيضاء» نقلاً عن «إحياء

العلوم».

وَلَا صَخَابًا.

يقول ابن مسعود: أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ لِيَعْلَمُوا بِهِ؛ فَاتَّخَذُوا دِرَاسَتَهُ عَمَلًا! إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يُسْقِطُ مِنْهُ حَرْفًا؛ وَقَدْ أَسْقَطَ الْعَمَلُ بِهِ.

وعن ابن عباس: لَكُنْ أَقْرَأُ الْبَقْرَةَ وَالْ عِمْرَانَ أَرْتُلُهُمَا وَأَتَدَبَّرُهُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ هَذْرَمَةً.

وقال ثابت البناني: كَابَدْتُ الْقُرْآنَ عِشْرِينَ سَنَةً وَتَنَعَّمْتُ عِشْرِينَ سَنَةً^١.

ولقد قال الحقيير يوماً في حضور الأستاذ آية الله العلامة الطباطبائي قدس الله نفسه: إِنَّ بَعْضَ آيَاتِ الْقُرْآنِ صَرِيحَةٌ فِي التَّوْحِيدِ حَتَّى لَكَأَنَّهَا لَا تُشِيرُ لِغَيْرِ وَحْدَةِ الْحَقِّ الْمَتَعَالِ فِي جَمِيعِ عَوَالِمِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ! قَالَ: هَذَا شَأْنُ الْقُرْآنِ كُلِّهِ.

نعم، القرآن كله هكذا؛ فرسالة القرآن ورسالة النبي في تفهيم القرآن وإبلاغه هي جعل الناس يدركون ويعون أن لا ذات هناك في جميع عوالم الوجود غير الذات القدسيّة للواحد القهار، ولا اسم ولا صفة غير أسمائه وصفاته، ولا فعل إلاّ فعله.

أي أنّ جميع عالم الوجود له ذات ووجود واحد استقلاليّ محض مختصّ به سبحانه، كما أنّ العلم والقدرة والحياة والفعل والتأثير التي هي من آثاره مختصّة به تعالى؛ أمّا جميع العوالم من الموجودات والمخلوقات فوجودها ظلّ وتبع كالظلّ بالنسبة للشاخص، وهي كلّها ظهورات وتجليات

١- «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ٢٠ إلى ٢٤، طبعة مصر، دار

إحياء الكتب العربيّة.

وأطوار مختلفة لتلك الحقيقة المحضة المطلقة وذلك النور القاهر المحض البسيط والمجرد .

فالقرآن يسعى بمنطقه وكلامه ودلالة نهجه ورسالته إلى البحث عن طريق للوصول إلى هذه الدرجة من خلوص التوحيد ، ليس فقط عبر الآيات التي تتحدث عن التوحيد وانحصاره في الوجود والذات والاسم والفعل ، بل إنّ جميع الآيات تتحدث عن هذا الأمر ، وتشمل وتستوعب الغيوم والرياح ، والمطر والبذر والزرع ، والنهر والبحر ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والروض والقفر ، والورد وشقائق النعمان ، والنخل والأعشاب ، والحيوان والإنسان ، والجنّ والمَلَك ، وتعتبرها جميعاً منقاداً ومطيعاً كالعبد المسترق والغلام الطيّع لسيد ومولّى واحد . ثمّ إنّها تربط هذه الأشياء جميعاً بالشكل الذي لا يبقى معه منها غير معنى ومفهوم الربط ، فليس لها في ذاتها ظهور ، بل إنّ من المحال أن يكون لها ظهور ، أو أن تشير إلى ظهور غير ظهور واحد وبسيط لذلك الجمال الرائع وذاته المتفردة التي لا مثيل لها .

فالقرآن لا يكفي بتشخيص أصل واحد لجميع الموجودات المادّية ، بل إنّهُ يعتبر جميع الموجودات ذات نفس واحدة ، فهو يربط جميع البشر بعضهم ، ثمّ يربط البشر بالحيوانات ، ويصلهما بجميع النباتات والأعشاب ، ثمّ يربط الجميع بالجمادات ، ويصل العالم السفليّ بالعالم العلويّ ، وعالم المادّة بالملكوت والمقيّد بالمجرد ، والسفليّ بالعلويّ ، والجسم بالروح ، يربطها جميعاً ببعضها ، وسيبدو في هذا الاختلاط والامتزاج الحاصل في هذا الربط والارتباط أن لا شيء هناك غير الوحدة الحقّة الحقيقية ، وأن لا فاصل هناك بين الملكوت الأعلى وبين أظلم العوالم .

هذه هي النظرة القرآنية العميقة والدقيقة والصائبة في الربط والاتحاد والوحدة النفسانية بين جميع المخلوقات الإلهية بالشكل الذي يعتبر الذرة الموجودة في الشرق مرتبطة بالذرة الموجودة في الغرب ، فهما يشتركان في الغمّ والفرح والحزن والسرور .^١

وهو نفسه محتوى شعر شاعرنا المتحمّس الواله والعاشق المضطرب ، حيث قال :

به صحرا بنگرّم صحرا تَه وَيْنُمُ به دريا بنگرّم دريا تَه وَيْنُمُ
بهر جا بنگرم كوه و در و دشت نشان از روی زیبای تَه وَيْنُمُ^٢

١- يقول أحمد أمين المصري في كتاب «يوم الإسلام» ص ١٧٩ :

وفي الحقّ ماذا يمنع الإسلام من ترقية أهله وأخذهم بأسباب المدنية الحديثة، وإنّ أركان الإسلام خمسة : شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان ، وحجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً.

فأيّ هذه الأركان تعوق تقدّم المسلمين ؟

إنّ شهادة لا إله إلاّ الله تكسبهم العزّة كما بيّنا ، وإقامة الصلاة تطهّر قلوبهم ، وإيتاء الزكاة يقرب بين الفقراء والأغنياء ، وصوم رمضان يفهمهم آلام البؤساء [البائسين] ، وحجّ البيت مؤتمر عامّ للمسلمين يمكنّ قاداتهم من أن يتداولوا المشاكل الحاضرة للمسلمين وكيف يحلّونها.

إنّ الإسلام يأمر بالنظر العقليّ ، ويوفّق بين العقل والنقل ، ويأمر أتباعه بالنظر في سنن الله في الكون ، بينما النصرانية بعيدة عن هذا كلّه ، فأركانها هي : الإيمان بالمعجزات ، بينما المعتزلة من المسلمين مثلاً أنكرت كلّ المعجزات ما عدا إعجاز القرآن ومع ذلك بقيت على إسلامها ، واعتمدت الأناجيل على صدق المسيح بخوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك .

أقول : إنّ الرواية التي ذكرها أحمد أمين حول أركان الإسلام قد جاءت عن طرق الشيعة بأسناد مختلفة ، وبدلاً من الشهادتين قد عدّ فيها الركن العظيم ، ألا وهو الولاية .

⇐

٢- ديوان بابا طاهر العريان الهمداني .

ونقل أن بعض المشايخ رأى الشاعر الفردوسي بعد موته في المنام وهو يرتع في الدرجات العالية في الفردوس ، فسأله كيف نلت هذه الدرجة ؟

قال : بيتٍ واحدٍ قلته في التوحيد :

جهان را بلندی و پستی توئی ندانم چه ای هر چه هستی توئی^۱

✦ يقول : «أنظر إلى الصحراء فأرى صحراءك ، وأتطلع إلى البحر فأرى بحرك .
أيما أدرتُ بصري في جبلٍ أو سهل ، رأيتُ ملامح وجهك الجميل» .
۱- هدية الأحاب ، ص ۲۱۱ .

يقول : «إن سما العالم أو تداني فما هو إلاك ؛ أحرار فيك فإنما أنت كل موجود» .
لقد كان الذنب الكبير لفردوسي أنه تحمّل المشاق طيلة ثلاثين سنة لجمع أساطير وحكايات الإيرانيين ، ثم أنشد ديوانه «الشاهنامه» الذي ضمّ هذه الحكايات في ستين ألف بيت أملاً بأن يحظى بجائزة السلطان محمود الغزنوي ، وفي الحقيقة فقد كان إحياءاً لأساطير الإيرانيين القدماء والذي كان في الظاهر لمواجهة العرب ، على طرفي نقيض من روح الإسلام التي تقمع روح العصبية القومية والفخر بالانتماء العرقي ، وتعدّ التمجّد بالعظام البالية للأجداد ناشئاً من الجهل والتخلّف ، وتؤكد على ارتباط وتلاحم جميع الأمم والأعراق ، حيث طبّق نداء قرآنه السماوي الخافقين «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ؛ ولهذا فقد خسر الفردوسي الدنيا والآخرة ، فلم يحظ من دنياه بنصيب ، إذ لم يمنحه السلطان محمود الجائزة التي كان يتوخّاها ، ولم يكسب آخرته كذلك لأنّ الاعتماد على كتاب أسطوريّ مقابل القرآن وجعله سنداً وأساساً للقومية لا يعقبه إلا الخسران المبين .

ومن الجانب الآخر فإنّ من المسلم أنّ الفردوسي كان شيعياً ، ولعلّ بركة تشييعه تسلك به طريق النجاة . فقد نقل عنه المحدث القميّ في «الكنى والألقاب» ج ۳ ، ص ۱۶ و ۱۷ ، وكذلك في «هدية الأحاب» ص ۲۱۰ و ۲۱۱ ، عن السيّد الشهيد القاضي نور الله الشوشترّي هذه الأشعار التي يتّضح علوّها ورفعته متناً ، ودلالاتها الصريحة على تشييعه :

دل از تیرگیها بدین آب شوی	بگفتار پیغمبرت راه جوی
خداوند آمر و خداوند نهی	چه گفت آن خداوند تنزیر و وحی
درست این سخن گفت پیغمبر است ✦	که من شهر علمم علیم در است

وبالطبع فإنّ هذه النظرة القرآنيّة تمتاز بالواقعيّة ، كما أنّ التعليمات التي يصدرها القرآن لأفراد البشر هي لتوحيد القلوب وتقارب النفوس وتناغمها من أجل الوصول إلى هذه الحقيقة :

﴿ گواهی دهم کین سخن راز اوست
 منم بنده أهل بیت نبی
 اگر چشم داری به دیگر سرای
 گرت زین بد آید گناه من است
 بدین زادم و هم بدین بگذرم
 ابا دیگران مر مرا کار نیست
 نبی و علی دختر و هر دو پور
 دلت گر به راه خطا مایل است
 هر آنکس که در دلش بغض علی است
 نباشد مگر بی پدر دشمنش

تو گوئی دو گوشم به آواز اوست
 ستاینده خاک پای وصی
 به نزد نبی و وصی گیر جای
 چنین است و این رسم و راه من است
 چنان دان که خاک پی حیدرم
 جز این در مرا ، هیچ گفتار نیست
 گزیدم و زان دیگرانم نفور
 ترا دشمن اندر جهان خود دل است
 از او خوارتر در جهان زار کیست ؟
 که یزدان به آتش بسوزد تشش

يقول : «تَحَرَّ السَّبِيل فِي كَلَامِ نَبِيِّكَ ، وَاغْسِلْ أَدْرَانَ الْقَلْبِ بِهَذَا الْمَاءِ (الزَّلَالِ).

فَمَا الَّذِي قَالَه رَبُّ التَّنْزِيلِ وَالْوَحْيِ ، وَرَبُّ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ .

قال (علی لسان نبیه) : أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بِأَبَائِهِ ؛ وَلَقَدْ كَانَ هَذَا هُوَ كَلَامَ النَّبِيِّ حَقًّا .

أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ قَوْلُهُ ؛ فَلْتَقُلْ أَنْتِ بِأَنْفِي لَا أَصْغِي إِلَيْهِ كَلَامِ سِوَاهِ .

أَنَا مَوْلَى وَعَبْدُ لِأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ؛ وَمَادِحٌ يَمْدَحُ تَرَابَ أَقْدَامِ الْوَصِيِّ .

وَإِنَّ أَنْتِ تَطَلَّعْتَ لِفَنَاءِ الْآخِرَةِ وَمَنْزَلِهَا ، فَتَمَسَّكَ بِالنَّبِيِّ وَالْوَصِيِّ .

وَإِنَّ سَاءَكَ قَوْلِي ، فَالذَّنْبُ ذَنْبِي ، وَهَذَا هَوْلُ نَهْجِي وَسَبِيلِي .

وُلِدْتُ عَلَيْهِ وَأَمُوتُ عَلَيْهِ ؛ وَاعْلَمْ بِأَنْفِي تَرَابٌ لِأَقْدَامِ حَيْدِرٍ .

وَلَا شَأْنَ لِي بِالْآخِرِينَ ، وَلَا أَلْزَمَ إِلَّا هَذَا الْبَابَ (وَالِاعْتَابَ) .

اخْتَرْتُ النَّبِيَّ وَعَلِيَّ وَابْنَةَ النَّبِيِّ وَوَلَدَيْهِمَا ، وَنَفَرْتُ مَمَّنْ سِوَاهِمَ .

فَإِنَّ مَالَ قَلْبِكَ إِلَى سَبِيلِ الضَّلَالِ ، فَإِنَّمَا عَدُوُّكَ فِي هَذَا الْعَالَمِ قَلْبُكَ .

فَمَنْ يَأْتِي أَنْفَهُ وَأَذَلَّ فِي هَذَا الْعَالَمِ مَمَّنْ يَنْطَوِي قَلْبُهُ عَلَيَّ بَغْضِ عَلِيٍّ ؟

فَلَيْسَ عَدُوَّهُ إِلَّا مَنْ لَمْ يُعْرِفْ لَهُ أَبٌ ؛ وَذَلِكَ الَّذِي سَيَحْرِقُهُ اللَّهُ بِنَارِهِ .» .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^١.

وهذه النظرة هي على النقيض تماماً من نظرة الشيوعيين والماديين الذين يرون جميع العالم مشتتاً متفرقاً عن بعضه البعض الآخر، كلّ ذرّة منه منفصلة عن الأخرى، وكلّ نفس منعزلة عن النفوس الأخرى، وليس هناك شيء أبداً - حسب هذه النظرة - يربط بين أفراد الإنسان إلا وكان أمراً موهوماً.

فهم يعتبرون سعي الإنسان وجده من أجل أفراد نوعه ومجتمعه عملاً لا قيمة له ولا طائل وراءه، ولا يدركون مغزى حماية الحيوانات وذوات الأرواح، حتى أنهم يعتبرون الارتباط بين أجزاء البدن الواحد أمراً وهمياً، ويعدون أنفسهم أمراً وهمياً، لأنهم لا يفهمون شيئاً غير المادة وآثارها.

وعليه، فإنّ قسوتهم وفضاعة أعمالهم تصل إلى الحدّ الذي لا يبالون فيه لو مات أحد جيرانهم جوعاً ولو كانوا مطلعين على أمره عالمين بمعاناته ومحنته.

فشتان بين هذه النظرة وبين النظرة الإسلامية! النظرة التي تعدّ من جاور المرء جاره وشريكاً له في الغمّ والسرور إلى امتداد أربعين منزل من كلّ جهة؛ والتي وصلت في تعليمها وتربيتها على الإيثار والتضحية إلى الحدّ الذي كان المقاتلون الغارقون في الجراح والدماء في معركة الجهاد يؤثرون بعضهم البعض على الماء فيلفظون أنفاسهم الأخيرة بشفاهٍ ظمأى وأكبادٍ حرّى.

١- الآية ٢٠٠، من السورة ٣: آل عمران.

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^١.

ومن دواعي الأسف أن الأوروبيين بعد قيامهم بنهضتهم العظيمة ضد أرباب الكنيسة والبابوات الذين اتخذوا الدين المسيحي وسيلة لاستغلال الناس ، ولم يتورعوا عن ارتكاب أية جناية وخيانة لتثبيت سلطتهم ، وبعد القضاء على التقليد والمتابعة العمياء للرؤساء الدينيين والاتجاه صوب الاستقلال الفكري وهدم بناء الجهل والتعصب ، وهي أمور كانت تشكل الأرضية المناسبة لانتشار الإسلام ؛ قد أصابهم الغرور واكتفتهم الأنانية فأعرضوا عن قبول الإسلام وكتاب القرآن السماوي ، واستبدوا بفكرهم فراحوا يبحثون عن سبيل الخلاص ؛ وبدلاً من حصولهم على دنيا معنوية والحياة والتقدم الماديّ تحت لواء الحقيقة والواقعية الذي كان ينتظرهم في ظلّ الإسلام وسبله الهادية ، فقد تردّوا في عبادة المادّة والبحث والتحقيق في العلوم الطبيعيّة والرياضيّة ، وتناسوا الله والتجرّد والنور والرحمة والمعاني والمعنويّات ، فهم قد خرجوا في الحقيقة من جهنّم ليرتطموا في جهنّم أخرى ، ونجوا من يد لصوص فوقعوا في أسر (فوال) ، وهو ذنب لا يغتفر لقادة النهضة وحملة لواءها الذين محوا الحقائق والشرف والفضيلة من أرض الغرب مدّة لا يعلم مداها إلا الله .

يقول مؤرّخنا المعاصر السيّد عباس إقبال الآشتيانيّ : لقد كان القرنان الثالث عشر والرابع عشر عصر ظهور عدّة من الدول المهمّة التجاريّة المستقلّة وشبه المستقلّة التي جعلها تردّد أهلها ومعاملاتهم مع الدول البعيدة - وخاصة بلاد الشرق الإسلاميّ - مركزاً للعديد من المفكرين المتنوّرين الذين كانوا يفدون بقيم ماديّة ومعنويّة جديدة ويعملون على

١- الآية ٩ ، من السورة ٥٩ : الحشر .

تعريف مواطنيهم على هذه الأوضاع الجديدة ، فأوجدوا تدريجياً تغييرات جديدة في طريقة حياتهم وأسلوب تفكيرهم .

وكانت أهمّ هذ البلدان التجاريّة هي : فينيسيا ، وفلورنسا ، وجين في إيطاليا ، لشبونة في البرتغال ، باريس في فرنسا ، بروج وأنفيس في فلاندر ، لندن في إنجلترا ، هامبورج ونورنبرج في ألمانيا ، نوجورود في روسيا ، وبرجين في النرويج .

وكان لغالب هذه البلدان أمراء أغنياء ذوي نفوذ أو منضوين تحت حماية ملك مقتدر نسبياً ؛ وبغضّ النظر عن هذه القدرة الملكية الحديثة لهؤلاء الأمراء والسلاطين والتي كانت في حالة نموّ وتصاعد ، فقد كان للبابا أيضاً ؛ وهو الرئيس العامّ للمسيحيين والحاكم المطلق على أرواح وأموال عموم أتباع الدين المسيحيّ ؛ نفوذاً وقدرة متناهية ، وبالطبع فقد كانت الخلافات تنشب بينه وبين الأمراء والسلاطين المذكورين وتنجرّ أحياناً إلى حروب بين الطرفين .

وقد اقترنت هذه الأوضاع مع الفترة التي كان البابوات يقتلون بشكل مفرج الكثير من الأبرياء تحت ذريعة قمع المرتدّين والدفاع عن الدين المسيحيّ ، في حين أنّ البابوات أنفسهم لم يكونوا منزّهين طاهريّ الذيل ، بل كانت الحياة الخاصّة لأغلبهم ملوّثة بأنواع المفاسد والذائل الأخلاقية .

وكان الذين استطاعوا إثر حدوث المقدمات المذكورة أن يكسروا طوق العبوديّة ويتخطّوا حدود التقليد في أمور الدين والدنيا مستعنيين بفكرهم وفكر أمثالهم ، قد تطرّق إليهم الشكّ حين شاهدوا هذه الأوضاع في جهاز حكم البابوات وفي أمر قدرة البابا المطلقة ومدى حقانيّة حكمه وأمره ، الذي كان حتّى ذلك العهد من الأمور المسلّمة ، حيث يُحكم بالكفر من خالفه وتحدهّاه ؛ وفكّروا وهم المؤمنون المتديّتون في ضرورة إيجاد

سبيل نجاتهم من هذا الوضع .

وفي أواخر القرون الوسطى صار لبعض البابوات والسلاطين المسيحيين الأوروبيين اطلاع ومعرفة نسبية بالعلوم الإسلامية والمعارف اليونانية القديمة التي وصلت إلى أيديهم إثر مخالطتهم للأطباء والعلماء المسلمين واليهود ، وكان لفرديريك الثاني إمبراطور ألمانيا الذي كان يحكم أيضاً قسماً من إيطاليا وجزيرة صقلية أكبر العون في نشر الفلسفة والعلوم الإسلامية ، وذلك بإحياء تعليم فلسفة أرسطو في أوروبا ؛ التي ظهرت تدريجياً إثر تشجيعه وتشجيع بعض الأمراء الصغار والبابوات ، طبقة من الناس في أوروبا يعنون بالطب والنجوم والكيمياء والحكمة ، وبذلك فقد اتجه اهتمامهم ومطالعاتهم إلى العلوم النظرية والتجريبية ، وصارت مسائل الحكمة موضوع درس وبحث الدارسين في بعض دور الفنون المعتمدة تلك الأيام ، مثل دار الفنون في باريس واكسفورد وبولونيا (في إيطاليا) .^١

ونتيجة لهذه الحوادث التي دارت في أوروبا بين القرنين الثالث عشر والقرن السادس عشر ، أي نتيجة لانتشار الكتب إثر صناعة الورق واختراع فن الطباعة وشيوع السفر إلى البلاد البعيدة واكتشاف الأراضي والطرق والقارات الجديدة . وإطلاع الناس على وجود حيوانات ونباتات جديدة ، وعلى آداب وأخلاق أقوام لم يكن أحد حتى ذلك الحين ليعلم بوجودهم ، مضافاً إلى اهتمام الناس بكتب اليونانيين القدماء وعلماء المسلمين ؛ كل ذلك قد أدى إلى استنارة أذهان سكان أوروبا ، وقد غيرت هذه الحالة تدريجياً حال الجهل والتعبد والتقليد الحاكم على تلك المنطقة لسنين

١- «كليات تاريخ تمدن جديد» (= تاريخ الحضارة الحديث) الذي يشمل تاريخ

الحضارة الحديث في أوروبا وإيران ص ٣٦ إلى ٣٨ .

متمادية إلى نهضة في طلب العلم وكسب المعرفة والتعقل في الأمور الدينية والديوية لم يسبق لها مثيل في العالم ، وكان لهذه الأمور مضافاً إلى تأثيرها العظيم في الحياة المادية للناس ، أثراً ملحوظاً في الأمور الاجتماعية والسياسية أيضاً .^١

فحين دعا البابوات في القرن الحادي عشر الميلاديّ الناس إلى الجهاد ضدّ المسلمين ، فقد لبى جميع المسيحيين بإيمان وإخلاص تامّ أوامرهم ، وساروا أفواجاً تليها أفواج إلى الحروب الصليبية في الشرق ؛ لكنّ هؤلاء الناس أحسّوا بعد ذلك أنّ البابوات جعلوهم أداةً لتنفيذ أغراضهم ، واستخدموهم في تثبيت أركان قدرتهم وإحقاق الأذى بأعدائهم الشخصيّن وفي المجازر التي ارتكبوها بحقّ الناس ، لذا فقد ساورتهم الشكوك في مدى إخلاص نوايا بعض هؤلاء البابوات ، وأعلن فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا علناً عصيانه لأوامر البابا في الحرب مع المسلمين ، ووصل به الحدّ إلى فتح أبواب الصلح والصدّاقة معهم ممّا أدّى إلى إيجاد الثغرات وإلى التزلزل الكلّيّ في هيكل قدرة البابوات واستبدادهم .

وكان ويكليّف^٢ أوّل من نهض في أوروبا باسم إصلاح الدين المسيحيّ والاعتراض على بعض البابوات ، حيث انتشرت تعاليمه بسرعة في إنجلترا؛ وقام أحد رجال الدين التشيكيّين واسمه جان هوس^٣ بإلقاء عدّة محاضرات في دار الفنون في براغ حول تعليمات ويكليّف ، وقد تابعه في آرائه جمعٌ كثير هناك ممّا دعى البابا إلى إصدار أمر بتشكيل مجلس في

١- (كليات تاريخ تمدن جديد) ص ٤٥ و ٤٦ .

٢- Wiclif

٣- Jean Huss

مدينة كونستانسن ، وقد دعا أعضاء هذا المجلس الذي دام من سنة ١٤١٤ حتى ١٤١٨ ميلاديّ جان هوس إلى المناظرة والمحاكمة ، ثمّ أدانوه وأحرقوه في سنة ١٤١٥ ميلاديّ ، وأعلنوا حكم الجهاد لمحاربة أتباعه^١ . وهناك عالم آخر كان وجوده مؤثراً في تعميم ونشر العلم والحكمة الجديدة ، وهدم جزء مهمّ من هيكل الآراء العلميّة والدينيّة البالية التي لا تستند إلى أساس ، وهو إرنست رينان^٢ الذي بدأ دراسته في المدارس الدينيّة الكاثوليكيّة على أمل أن يصبح عالماً وقسيساً يعتقد بأسس آراء الكنيسة الكاثوليكيّة ، لكنّه تراجع عن هذا الطريق فجأة في سنة ١٨٤٥ ميلاديّ ولم يستطع بسبب افتتانه بالعلوم الطبيعيّة الجديدة أن يستمرّ في الاتّباع الأعمى للآراء الدينيّة ، بل كان على العكس من ذلك يعمل على الاستفادة من أسلوب النقد العلميّ والتأريخيّ في تحقيق مسائل اللغات والأديان والتواريخ القديمة ، وعلى إنكار ما يُخالف هذا الأساس ولا ينسجم معه ؛ وعليه فقد قام بتحقيق حول التوراة وأثبت أنّ أجزاء هذا الكتاب لا تنتمي جميعها إلى عصر واحد ، وأنّ أجزاء منها كانت - بلحاظ اللغة والتعبير - أحدث من الأجزاء الأخرى ، كما أنّ بعض أجزاء التوراة كانت مختلفة بكاملها .

ففي كتاب النبيّ أشعيا مثلاً ، كان القسم الأخير منه مختلفاً تماماً - بلحاظ اللغة والزمان - عن قسمه الأوّل ، وكان زمن تأليف الأسفار الخمسة التي ينسبونها إلى موسى عليه السلام أحدث بكثير من العصر الذي شخّصوا فيه أنّ مؤسس دين بني إسرائيل قد عاش فيه ، وكان كتاب دانيال

١- «كليات تاريخ تمدن جديد» ص ٤٦ و ٤٧ .

٢- Ernest Renan

مختلفاً هو الآخر .

وقد توصل إرنست رينان بعد سفره إلى الشام وإكماله هناك معلوماته عن اللغات السامية وجمعه المعلومات المتعلقة بالأديان والآداب القديمة إلى أن الكثير من الفروع الدينية وكتب المذاهب والعقائد الشرعية للمسيحيين إنما هي تلك الأساطير والقصص الخيالية لسكنة فلسطين والشام القدماء^١.

ثم اختير إرنست رينان سنة ١٨٦٢ ميلادي لتدريس اللغة العبرية في أرقى مدارس باريس ، ونشر كتيباً في شرح أحوال السيد المسيح عليه السلام سلك فيه كمؤرخ ناقد ، وناقش تفاصيل حياة السيد المسيح وجزئياتها وكيفية نشوء دينه وانتشاره ، ولم يسلك في هذا المجال كأتباع المسيحية الملتزمين ، بل أنكر جميع الدرجات والمقامات غير العادية التي كان رجال الدين المسيحي ينسبونها لنبيهم .

وكان إرنست رينان ماهراً أيضاً في الكتابة باللغة الفرنسية ، وتميز كتابه بالبلاغة والسلاسة ، لذا سرعان ما صار كتابه مقبولاً للذوق العام ؛ وقد سعى الكاثوليكيون كثيراً لمنع انتشار هذا الكتاب ، وقاموا بتكفير إرنست رينان وحرموه من التدريس وحرّموا على الكاثوليكيتين المتدينين قراءة كتابه «حياة السيد المسيح» .

وكان في ألمانيا حكيم آخر هو فريدريك شتراوس^٢ الذي قام قبل إرنست رينان بقليل بنشر كتاب باسم السيد المسيح ، وقد أنكر فيه كون الإنجيل كتاباً سماوياً ، وأنكر المعجزات التي كان ينسبها رجال الدين

١- «كليات تاريخ تمدن جديد» ص ٣٠٩ .

٢- Friedrich Strauss

للسيد المسيح .

وقد شكّل شتراوس مع أتباعه في مدينة فيرتمبرك في ألمانيا جمعيةً لنقد الإنجيل والتوراة من الوجهة التاريخية والعلمية ، ونشأ بذلك فرع جديد من علم الأديان .

لقد أدّى نشر مؤلفات همبولت ولايل وداروين وربنان وأتباعهم إلى إضعاف وزعزعة الدين المسيحي وآراء وعقائد أصحاب الكنيسة في الدنيا ، وقد وصل الإفراط بعدّة من الكتاب المتحرّرين فكرياً والمتحلّلين من أيّ دين ومذهب إلى حدّ اعتبروا فيه الأديان مانعاً من رقيّ المجتمع البشريّ ، وقالوا أنّه ينبغي لخير البشريّة أن يُقضى على جميع الأديان .^١

وكلامنا هنا هو أنّنا نوافق على وجود مطالب خاطئة كثيرة في التوراة والإنجيل ، وأنّ دعوة البابوات وأرباب الكنيسة إلى المطالب الموهومة التي نسبوها إلى السيد المسيح كانت خاطئة وغير صحيحة ، وأنّ تجرّهم وتحكّمهم تحت شعار الدفاع عن الدين المسيحيّ ، من الإحراق والسّوق للمقصلة ، وبيع الجنّة وشراء جهنّم ، وأخيراً عدّهم أنفسهم موالى وأرباباً للعوامّ البسطاء المستضعفين ، كان خطأً وجريمة لا تغتفر ، وكان يستدعي للقيام بالثورة والوقوف أمام هذه الجنایات والجرائم وإنقاذ عاقمة الناس من مخالب أولئك الذئاب ، ولكن لا ينبغي للثائرين أن يتركوا الناس بلا قيود ليقعوا في مخالب ذئب آخر كهوى النفس الأمّارة ، وشهوة التبرّج والخلاعة ، والغضب بلا حدود ، والمادّيّة المحضّة ، فيفقدوا من ثمّ جميع مزايا إنسانيتهم وشخصيتهم .

ونتساءل : حين جاء القرآن وأعلن بندائه الرفيع خلوه من التحريف

١- «كليات تاريخ تمدّن جديد» ص ٣١٠ و٣١١ .

وسلامته من الزيادة والنقصان ولو بحرف واحد ، وأن جميع تعاليمه هي عين التوحيد والرحمة والعدل والطمأنينة ، وأن حراسه - أمثال الأئمة الأطهار - هم أئمة العقل والإدراك وأرباب الزهد والتقوى ؛ وحين يصرح القرآن بأن هناك تحريفاً قد وقع في التوراة والإنجيل ، وأن يد التلاعب قد امتدت إليهما ، وأن العلماء الحارسين لهذين الكتابين لم يتورعوا في جمعهم لحطام الدنيا وتسلبهم على عوام الناس من ارتكاب أيّ قبيح ؛ فلم لا نتجه إلى القرآن ونؤمن به ؟ ولم لا نجعل هذا المصباح المنير مشعلاً يضيء بأشعته الوهاجة طريقتنا ؟!

فنحن نرى عياناً أن القرآن قد أزاح الستار كما فعلت تحقيقاتكم العلمية والتاريخية عن وجه الجهل والخيانة لأرباب الكنيسة ، وتحدث عنهم كأناس جشعين ، وعدّ التوراة والإنجيل محرّفتين ؛ فلم لا نتجه نحو واقعيّات وحقائق هذا القرآن ؟!

أنتم يا من تعتقدون أن بدء بزوغ المدنيّة الغربيّة وحركتها يعود إلى العلوم الإسلاميّة من حكمة وفلسفة ونجوم وطبّ وتاريخ وفيزياء وكيمياء وغيرها ، لم تجلسون على هذه المائدة فتتناولون منها ثم تكسرون آنيتها في نُكرانكم للجميل ؟!

وها نحن نرى عياناً نتيجة هذا التطرف ، فقد تخبّطت الدنيا في ورطة لا خلاص منها ، وجلس أمثال غاليلو ونيوتن وأينشتاين وسائر أتباعهم ينتحبون في غمّهم وحزنهم للنكبة والذلّ اللذين قدّماهما هدية للبشريّة .

إنّ القرآن يقوم العلوم التجريبيّة والنظريّة والرياضيّة ويستخدمها للوصول إلى كمال النفس الإنسانيّة ، لا للإضرار والاعتداء والإفراط ؛ ويُسيّر عجلة ماكنة الحركة البشريّة بالسرعة التي يمكنه معها السيطرة عليها تصحيحها كلّ آن ، ولا يعجل في تحريك هذه العجلة للحدّ الذي تحطّم فيه

الماكنة والمصنع والمؤسسة وصاحب العمل والعمال جميعاً؛ فيختر على رؤوسهم هذا البناء الشامخ المسمى بالمدنيّة .

ونقول لإرنست رينان ومن يشاركه فكره : إنّ عيسى الذي عرفتموه من خلال الإنجيل والتاريخ ليس هو عيسى النبيّ الإلهيّ ؛ وإنّ موسى الذي توصلتم إلى معالمه من خلال التوراة والتحقيق التاريخيّ ليس موسى الواقعيّ ؛ لكن القرآن الكريم قد عرض عيسى وموسى الحقيقيّين بلا تجميل ولا نسبة للقبائح إليهما ، وبدون أيّ انحراف ومعصية في الفعل وفي العقيدة . فلمَ لمَ تشيروا إلى القرآن في حديثكم عند عودتكم من الشام إلى باريس وتدريسكم لدرس اللغة العبريّة ؟ ولمَ لمَ تقرأوا الآيات التي تحدّثت عن عيسى في سورتيّ مريم وآل عمران ؟^١ والآيات التي تحدّثت عن موسى في سورة القصص ؟ ولمَ لمَ تفتحوا في أذهان تلامذتكم نافذة الأمل هذه ؟ كان ذلك هو خطأكم الذي لا يُغتفر .

١- كان سماحة آية الله العلامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه الشريف يقرأ لنا أحياناً آيات آخر سورة المائدة بتأنّ وهدوء ، فيغرق في الوجد والصفاء بلا حدود ، وكان يكرّر القول إنّ هذه الآيات في غاية الروعة من جهة السياق وطريقة الخطاب وبيان مقام ربوبيّة الحقّ وعبوديّة المسيح ابن مريم ورعاية الأدب في الموقف الإلهيّ :

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صَدُقْتُمْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

لقد جاء الإسلام فنسخ دين موسى وعيسى ، وألغى العمل بالتوراة والإنجيل ، وقدم الوجود المقدس لمحمد للعالمين كقدوة وأسوة وتمثيل للارتباط بعالم الغيب ، ووضع السراج المنير - القرآن - مكان التوراة والإنجيل ، ودعا العالم للحركة صوب القرآن والاستمداد من روح رسول الله وقبول دعوته .

فلماذا حين أوهنتم أسس الكنيسة لم تُحكّموا أسس المسجد ؟ لقد كان ذلك خطأكم .

إنّ البشر يمتلك خالقاً ، كما أنّ الاعتقاد بالخالق من غرائزه ، فهو يريد مسجداً يصلّي فيه ويدعو ربّه ، فلمْ خلعتم عنه لباسه القذر الملوّث ، ثمّ لم تغسلوا عنه الأدران وتركتموه عارياً بلا ساتر ؟ كان ذلك ذنبكم ، فواضح أنّ العريان لن يمكنه الصمود أمام الجوّ الخارجي وسيهلك ويموت .

نحن نقول : لقد جاء كلّ هؤلاء المستشرقين والخبراء في شؤون الشرق وتعلّموا العربيّة وعاشوا مدّة طويلة في الممالك الإسلاميّة ، فلمْ يمتنعون هكذا من بيان الحقائق كما ينبغي ؟! لمْ يتصرّفون بنوايا عدوانيّة ؟! لمْ لا يتنازلون ويتخلّون عن روحهم الاستكباريّة ، ويخضعون ويخشعون وتنكسر قلوبهم أمام الخالق ؟ هذه الأمور هي التي تُلقي على عواتقهم ذنب ضلال قارّة ، ذنب لم يتضح بعد جزاؤه !

ويأتي الدكتور غوستاف لوبون الفرنسي ليكتب كتابه الضخم : «حضارة الإسلام والعرب» ، ويعترف بنفسه فيه أنّ الدين الذي جاء به محمد أعلى وأرقى في التوحيد من توحيد عيسى¹ ؛ لكنّه مع ذلك

١- يقول في كتاب «تمدّن إسلام وعرب» (=حضارة الإسلام والعرب) ص ١٥٢ ⇐

لا يصبح مسلماً ، ويموت ثمَّ على نصرانيتها ! ويبقى تصرّفه مشاراً للتساؤل والاستغراب !

ولقد كان الدكتور الكسيس كارل الفرنسي شخصاً متتبّعاً ذكياً حقاً ، وله تحقيقات عميقة وجليّة في استقصائه بعض مفاصد وعلل الدمار المادّي والجسمي والروحي ، وكانت كتبه مفيدة حقاً ، لكنّه مع ذلك ظلّ أسير التعصّب ، فلم يكن مستعدّاً لامتداح القرآن ورسول الله والعرفان والتصوّف الإسلاميّ ، وكان يمرّ على النقاط الحسّاسة والدقيقة للمطالب فيأبى أن يقربها ويتعامى عنها ويتغافل ، فلا ينقضي العجب منه !

ونورد مقاطع من عباراته في بيان سرّ عدم نجاح الماكنة في تحقيق الكمال للبشريّة ليتّضح وعيه بأسرار الأمر وخفياها ، ثمّ نورد مقاطع من عباراته في إغماضه عن العرفان والتصوّف الإسلاميّ لتشخيص تجاهله وتغافله عن الخضوع أمام عظمة القرآن .

فهو يقول بشأن سرّ عدم النجاح تحت عنوان : **وجوب التغيير الفكريّ - غلطة النهضة -^١ أولويّة المادّة أو أصالة الإنسان** ، ثمّ يشرع في

« و١٥٣ ، الطبعة الثانية ، في الفصل الثاني : فلسفة القرآن وانتشاره في العالم : إذا أرجعنا القرآن إلى عقائده الرئيسيّة أمكننا عدّ الإسلام صورةً مبسّطة عن النصرانيّة ، ومع ذلك فإنّ الإسلام يختلف عن النصرانيّة في كثير من الأصول ، ولاسيّما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسيّ ، وذلك أنّ الإله الواحد الذي دعا إليه الإسلام يهيمن على كلّ شيء ولا تحفّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممّن يُفرض تقديسهم . وللإسلام وحده أن يُباهي بأنّه أوّل دين أدخل التوحيد إلى العالم . وتشتقّ سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض ، وفي هذه السهولة سرّ قوّة الإسلام .

١ - Renaissance : كلمة فرنسيّة تُطلق على عصر إحياء الآداب والصناعات والعلوم الذي بدأ في أوروبا أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، ويلقّب بعض النهضة .(م)

شرح هذا المختصر فيقول :

إننا لا نستطيع تجديد أنفسنا وبيئتنا قبل أن نغيّر عاداتنا في التفكير ، لقد عانى المجتمع العصريّ منذ نشأ من خطأ عقليّ ، خطأ ما زال يتكرّر باستمرار منذ عصر النهضة .

لقد كوّنّت التكنولوجيا الإنسان ، لا تبعاً لروح العلم ولكن تبعاً لآراء ميتافيزيقية . وها قد حان الوقت لكي نتخلّى عن هذه المذاهب . يجب أن نُحطّم الحواجز التي أنشئت بين أجزاء الموادّ الصلبة وبين الجوانب المختلفة لأنفسنا ، فإنّ الغلطة المسؤولة عمّا نعانيه إنّما جاءت من ترجمة فكرة لطيفة لجاليلو ، فقد فصل جاليلو ؛ كما هو معروف جيّداً ؛ الصفات الأولى للأشياء وهي الأبعاد والوزن التي يمكن قياسها بسهولة ، عن صفاتها الثانوية وهي الشكل واللون والرائحة التي لا يمكن قياسها ، ففصل الكمّ عن النوع ، ولقد جلب الكمّ المُعبّر عنه باللغة الحسابيّة العلم للإنسانيّة بينما أُهمل النوع .

ولقد كان تجريد الأشياء من صفاتها الثانوية أمراً مشروعاً ، لكنّ التغاضي عن الصفات الثانوية لم يكن كذلك . فالأشياء غير القابلة للقياس في الإنسان أكثر أهميّة من تلك التي يمكن قياسها . فوجود التفكير هامّ جدّاً ، مثل التعادل الطبيعيّ - الكيميائيّ لمصل الدم .

ولقد ازدادت التفرقة بين الكمّ والنوع اتّساعاً عندما أنشأ ديكارت مذهب ثنائيّة الجسم والروح ،¹ وعندئذٍ أصبحت ظواهر العقل غير مفهومة ولا قابلة للإيضاح ، لأنّها قد عزلت المادّة نهائياً عن الروح . وعندها ، فقد اتخذت التركيبات العضويّة والآليات الفسيولوجيّة حقيقةً أكبر كثيراً من

١ - Dualisme (التعليقة).

التفكير والسرور والحزن والجمال . ولقد دفعت هذه الغلطة الحضارة إلى سلوك طريق أدّى إلى فوز العلم وانحلال الإنسان .^١

١- «انسان موجود ناشاخته» (= الإنسان ذلك المجهول) ص ٣١٠ ، الطبعة السادسة .
ويقول أحمد أمين المصري في كتاب يوم الإسلام ص ٢١٥ إلى ٢١٧ :
لقد أَلَف الأستاذ جود أستاذ الفلسفة الإنجليزي كتاباً قيماً سمّاه سخافات المدينة الحديثة قال فيه :

إنّ المدينة الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق . فالأخلاق متأخرة جداً عن العلم ، ومنذ النهضة ظلّ العلم في ارتقاء والأخلاق في انحطاط حتّى بعدت المسافة بينهما . وبينما يتراءى الجيل الجديد للناظر فتعجبه خوارقه الصناعية وتسخير المادّة والقوى الطبيعيّة لمصالحه وأغراضه ، إذا هو لا يمتاز في أخلاقه ، وفي شرهه وطمعه ، وفي طيشه ونزقه ، وفي قسوته وظلمه عن غيره . وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة ، إذا هو لا يدري كيف يعيش . وتوالي الحروب الفظيعة الهائلة دليل على إفلاسه وأنّه يربى نشأة لتموت . وقد خوّلت له العلوم الطبيعيّة قوّة القاهرة ولكنّه لم يُحسن استعمالها فكان كطفل صغير أو سفيه أو مجنون يملكون زمام الأمور ويؤتون مفاتيح الخزائن ، فهم لا يزيدون عن أن يلعبوا بما فيها من جواهر .

وقال في موضع آخر : إنّ فيلسوفاً هندياً سمعني أطري حضارتنا وأقول إنّ أحد سائقي السيّارات قطع ثلاثمائة أو أربعمئة ميل في ساعة واحدة على الرمال وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك في عشرين أو خمسين ساعة ؛ فقال ذلك الفيلسوف الهندي : إنكم تستطيعون أن تطيروا في الهواء كالطير ، وأن تسبحوا في الماء كالسمك ، ولكنكم إلى الآن لاتعرفون كيف تمشون على الأرض .

وقال في موضع ثالث من هذا الكتاب : انظر إلى الطيّارة التي تحلّق في السماء يخيّل إليك أن صانعيها في علمهم ولباقتهم فوق البشر ، والذين طاروا عليها أولاً كانوا في علوّ عزمهم وجراتهم أبطالاً ، ولكن انظر الآن إلى المقاصد السيئة التي استخدمت لها الطيّارة وتستعمل لها في المستقبل . إنّما هي قذف قنابل وخصوصاً الذرّية ، وتمزيق جثث الإنسان وخنق الأحياء وحرق الأجساد ، وإلقاء الغازات السامة ، وتقطيع المستضعفين -الذين لاعاصم لهم من هذا الشرّ- إرباً إرباً . وهذه إمّا مقاصد الحمقى أو مقاصد الشياطين .

وقال في موضع رابع : ماذا سيقول المؤرّخ غداً إذا وصف كيف كنّا نستعمل

كانت هذه هي مقولته في القسم الأوّل ، ويُلاحظ أنّها في منتهى الإلتقان والإحكام ؛ أمّا مقولته في القسم الثاني فيقول فيها :

إنّ التصفوّ في المسيحيّة هو بيان لأعلى مظاهر النشاط الدينيّ ، وارتباطه بالنشاطات العقليّة الأخرى أفضل من عرفان وتصوّف الهنود والتبت .

وكانت ميزته على التصفوّ الآسيويّ أنّه اكتسب في عصر صباه دروساً من اليونان والروم ، فتعلّم من أحدهما الفكر ومن الآخر القياس والنظم^١ .

وكما ترى فقد جانب الإنصاف كثيراً في هذا التقييم ، فكيف اعتبر عرفان بلاد الشرق ممثلاً بتصوّف الهنود والتبت ، متغافلاً عن العرفان والتصوّف الإسلاميّ؟! وكيف تغافل عن عرفان عليّ بن أبي طالب وسائر الأئمّة الأطهار ، و عرفان الإمام السّجاد والإمام الرضا عليهم السلام؟ وكيف أغمض عن «نهج البلاغة» وخطبه المحيرة للعقول والتي تعدّ مخ العرفان وأساسه ، وعن «الصحيفة السّجّاديّة» و«عيون أخبار الرضا» و«توحيد الصدوق» التي لم يمكن لأحد من أولئك أن يصل حتى الآن لحقيقة هذا

⇒ الذهب؟ سيذكر أنّنا توصلنا إلى أن نخبر عن الذهب باللاسلكي وسيصف الصور التي كان أصحاب المصارف يزنون بها الذهب ويعدّونه في لباقة ومهارة ، وكيف تحدّينا قانون الجاذبيّة في نقله من عاصمة إلى عاصمة ، وسيسجّل أنّ أشباه الوحوش الذين كانوا ماهرين وفي غاية الجرأة في فتوحهم الصناعيّة كانوا عاجزين عن التعاون الدوليّ الذي كان يتطلّبه ضبط الذهب والتقسيم الصحيح ، وكانوا لا يعنون إلّا بأن يدفنوا المعادن بالسرعة الممكنة ، وكانوا يستخرجون الذهب والمعادن من بطون الأرض في جنوب أفريقيا ويدفنونها في مصارف لندن ونيويورك وباريس .

١- «إنسان موجود ناشأخته» (= الإنسان ذلك المجهول) ص ١٥١ و ١٥٢ .

العرفان ؟

وكيف تجاهل ولم يلحظ مشايخ العرفان المشهورين مثل بايزيد البسطامي ، ومعروف الكرخي ، وسري السقطي ، والخواجه عبد الله الأنصاري ، ومحيي الدين عربي ، وابن الفارض المصري ، وصدر الدين القونوي ، وشيخ الإشراق : شهاب الدين السهروردي ، وعبد الرزاق الكاشاني ، والمولى جلال الدين الرومي ، والخواجه شمس الدين حافظ الشيرازي ؟!

ألم تكن الأجزاء الستة لمثنوي مولانا التي تنظوي جميعها تحت ذلك العنوان :

* بشنواز نی چون حکایت می کند *^١

أفضل وأعلى من جميع عرفان المسيحية وتوحيد المسيح نفسه ؟

ألم يكن حافظ الشيرازي الذي عُبي بأجمعه في بيت الغزل الأول :

* أَلَا يَا أَيُّهَا السَّاقِي أَدِرْ كَأْسًا وَنَاوِلْهَا *

كافياً لبصيرته ؟

أو لم يكن النظم والسلوك ، أي التائية الكبرى لابن الفارض ، والتي تمثل حقاً دورة كاملة جامعة لجميع منازل السير والسلوك وبيان أعلى درجات التوحيد والعرفان أعمق وأرق وأدق في بيان لطائف العرفان مئات المرات ممّا ورد في الإنجيل ؟! فلم إذن تناسى عمداً وأخطأ عن تبصر ، فأغمض عن القرآن نفسه وعن هذه الكتب العرفانية النفيسة وهذه المدرسة المتعالية ، فأورد ذكر عرفان وتصوف المرتاضين الهنود والمغول والتبت ، وعدّها العرفان الآسيوي في مقابل تصوف المسيح والمسيحية ؟

١- يقول : «اسمع من الناي حين يحكي» .

وعليه ، فإنّ على السيّد كارل أن لا ينتظر أن يلتحق الناس بركب تصوّف المسيحيّة ، وأن لا يغتمّ ، لأنّ الناس قد أودعوها زوايا النسيان ، فعرفان القرآن أعلى بكثير وأرفع وأكثر جذائيّة ، ولا مفرّ ولا مهرب إلاّ أن يتحرّك هو وأتباعه مع أقوام أوروبا وأمريكا ودول الاتّحاد السوفييتيّ والصين واليابان والهند وماليزيا ، فيتركوا تصوّف المسيحيّة والزرادشتيّة والبوذية والبراهمة ، ويحنوا رؤوسهم أمام عظمة القرآن وعرفانه ، فهذا هو طريق الخلاص لهم .

لكنّه مات ولم يسلم بهذا الأمر ، وسيفهم الآن ما نقول في ذلك العالم حين يصل إلى عقبات الظلمة والمنعطفات الناشئة من الجهل فلا يستطيع حراكاً .

إنّ جميع أوروبا وأمريكا تحترق اليوم في جهنّم المادّية ، ليس فقط دول الاتّحاد السوفييتيّ والصين اللذان ينحوان منحى الشيوعيّة ويُظهرا ذلك ، بل إنّ جميع علماء الغرب الذين قطعوا رابطتهم مع الله سبحانه صاروا مادّيين خالصين ، وصار للمادّية معنىً أوسع وأشمل بحيث ابتلع الجميع وازدردهم .

وعلى الرغم من أنّ هؤلاء يتظاهرون باتّباع اليهوديّة والمسيحيّة ، لكنّ أسلوبهم ومذهبهم هو مذهب أصالة المادّة ، يدور عليه أسلوب ورودهم وخروجهم في البحوث والجلسات والمؤتمرات والجامعات ، ناشراً جناح ظلمته المشؤومة في معنىً وسيع للمادّية وعبادتها على كثير من دول العالم ، ليس فقط في مجال العقيدة ، بل في أسلوب التفكير والعمل ، وطريقة تعيين المراد والهدف ، التي تنصبّ كلّها في اتجاه المادّة ، فيضيع هؤلاء في وادي الأوهام والتهيه .

وأذكر لكم مثلاً حيّاً معبراً لتشهدوا إلى أيّ مدى تُوصل النزعة

المادّيّة والانحراف البشر :

لقد حصل أحد معارفنا على شهادة الطب من كليّة الطب في طهران ، ثمّ سافر بعد مدّة قصيرة إلى أمريكا وتابع دراسته وتخصّصه وصار من الجراحين المشهورين في تلك البلاد ، وتزوَّج امرأة أمريكية ومُنِح الجنسية الأمريكية ، وانقضى على وجوده هناك أربعون سنة ، ولا يزال على قيد الحياة حتّى الآن .

يقال : إنّه يمتلك هناك مزرعةً ومستشفى أهليّة ، ويقوم يوميّاً بعدّة عمليات جراحية ويتقاضى على كلّ منها عشرة آلاف دولار كحدّ أدنى . وقد حصل بعد رحيله أن توفي والده فوزّعت تركته من البيت والدكان على ورثته ، وعاشت أمّه بعد ذلك في ضائقة وافتقدت الراحة واليسر اللذين قد تنعمت بهما في حياة الأب .

وقد كتب إليه أحد إخوته يخبره : أنّ أمك الآن في ضائقة ومحنة ، وأنّ الله قد منحك - وله الحمد - نعمّةً موفورة وحياءً رغيدة وثروة بلا حساب ، فما أولاك أن لا تنسى أمك في هذه السنّ والضعف والمرض ، فترسل لها شهريّاً مبلغاً تستعين به على أمور حياتها .

وبعد مدّة وصل الردّ منه بهذا التعبير : أُيخيل إليكم أنّنا نحصل على هذه الأموال مجاناً بلا حساب ؟! نحن نعمل ونتحمّل المشاقّ لذلك ؛ وعلى أمنا كي تؤمّن احتياجاتها أن تذهب فتعمل هي الأخرى !

هذا هو أسلوب التربية الغربيّة وتأديب المادّيّين ، وهذه المقولة نابعة من مدرسة أتباع هيغل وداروين وديكارت ، والتي أدت إلى هذا .

فقارنوا هذه القصة مع قصة الشابّ التي أوردناها قبلاً في الجزء الأوّل من هذا الكتاب «نور ملكوت القرآن» ، وكيف أنّه غصّ النظر عن الزواج ضمن هدي التعليم والتربية القرآنيّة رعايةً لحال أمّه وحمايةً لها ، واحتماله

إيذاء أمه وشتائمها، وصبره عن الردّ على سبابها المقذع في ليلة شتائية باردة حين ناولها قذح الماء، وكيف أنّ الله قد أزال حجاب الغيب في لحظة عن قلبه فصار عالم الغيب مشهوداً لديه، وفتح أمامه باب مناجاة قاضي الحاجات ومشاهدة أنواره الملكوتية ونفحاته السبحاتية.^١

إنّ منطق القرآن هو توحيد ربّ العزة في جميع المقامات، والإيثار والعدل والصبر أمام المشكلات، واجتناب الكسل والهوى والهوس، وبسط النعمة وتعميمها لكلّ الطبقات.

وهو لا يمثّل الأخلاق النظرية له فقط، بل الأخلاق العملية والخارجية أيضاً، فلقد كان المسلمون بشهادة التاريخ المسلم، من صدر الإسلام وحتى الآن هم أهل الصبر والإيثار والعفو والرحمة والمروءة والعدل، وقد كان لهم في حروبهم المظفرة منتهى الرعاية والحماية لأسراهم، والحفاظ على حياتهم؛ فلم يكونوا ليحرقوا الأشجار ويتلفوا المزارع ويهلكوا الحرث، أو يقاتلوا من تنكبّ عن مقاتلتهم ولم يشهر السيف بوجههم، ولم يتعقبوا مذبذباً عن قتال، أو يمثّلوا بقتيل، وكانوا يؤمنون من لجأ إليهم، ولا يمنعون عدوهم شريعة الماء التي في أيديهم.^٢

١- «نور ملكوت القرآن» ج ١، البحث الثاني.

٢- أورد المحدث القميّ في «منتهى الآمال» ج ١، ص ١٦، ضمن بيانه لأخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصفاته الشريفة أنّ أرباب السير أوردوا أنّ النبيّ الأكرم كان إذا بعث سريّة أوصى أميرها ووعظه، ثمّ قال: «اغزوا بسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تغلّوا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا متبتلاً في شاهق، ولا تحرقوا النخل، ولا تغرقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تحرقوا زرعاً، لأنكم لا تدرّون لعلكم تحتاجون إليه، ولا تعفروا من البهائم ممّا يؤكل لحمه إلّا ما لا بدّ لكم من أكله». ونهى رسول الله أن يسمّم المسلمون مياه المشركين، ولم يعامل النبيّ أعداءه

وحين تقع هناك حربٌ داخلية ، فتقتل فتتان من المسلمين بينهما
وتختصمان على السلطة ، فإنّ الواجب الأوّل هو الدعوة إلى الصلح ، فإن
رفضتا الصلح فإنّ من المحتمّ أن تكون إحداهما باغية على الأخرى وظالمة
لها ، ويجب على المسلمين جميعاً محاربتها حتى ترجع إلى حكم الله
وتنزجر عن ظلمها وعدوانها .

هذا الطريق هو طريق الإصلاح بين المسلمين ، والذي يتمثل أولاً
بعقد الصلح ، ثمّ يتمثل في حال الاعتداء الأكيد لأحد الأطراف وعدم قبوله
بالصلح ، بمحاربه حتى يرجع عن عدوانه ويخضع لأمر الله :

« بغير هذه المعاملة ، ولم يُغزَ عليهم ليلاً ، وكان يعتبر جهاد النفس هو الجهاد الأكبر .
ويقول المستشار عبد الحليم الجنديّ في كتاب «الإمام جعفر الصادق» ص ٥٦ :
وشملت السماء ابن النبيّ في كربلاء بمزيد من التأييد . بمعانٍ جليّة من جلال الإسلام
نختار منها هنا واقعة منه وواقعة من عدوّه .

في الأولى : أخذَ أخذَ أبيه ، فسقى جيش العدوّ من العين التي نزل عندها ولم يحرم
الماء قاتليه . وفي الأخرى : ترك قائدان من القوّاد جيش ابن زياد في وطيس المعركة إلى
الجماعة الغزلاء حول الحسين ليستشهدوا في الدفاع عن سيّد الشهداء بين رجاله الذين ماتوا
عن آخرهم وهم عليمون أنّهم يخوضون معركة خاسرة بكلّ المقاييس التي يتقاييس بها
المتحاربون مظفّرة بمقاييس المؤمنين . فلم يكن منهم من الماء ليؤخّر في نتيجة المعركة
بأيّ وجه من الوجوه .

ثمّ يقول في الهامش : وتعلّم عليهما صلاح الدين في حربه مع الصليبيين يوم أرسل
طبيبه إلى الملك ريتشارد قلب الأسد قائد الصليبيين . وأين من قواعد الحرب الإسلامية
قواعدها عند الأوروبيين ؟

إنّ أبقرط أبا الطبّ اليونانيّ الذي ورثت أوروبا قسّمهُ الأشهر ، يُقسمه كلّ طبيب قبل
أداء واجبه بالنزاهة والأمانة وعدم التعصّب ؛ لكنّ أبقرط علّم الأوروبيين درساً آخر حين
رفض أن يُعالج مرض الطاعون في الجيش الفارسيّ قائلاً : إنّ شرفه يمنعه من معالجة عدوّ
بلادته !

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١.

ولا حق للفريق المنتصر في هذه الحروب الداخلية بين المسلمين أن يأسر أحداً، أو يُغير على أحد، أو يقتل جريحاً؛ وكل ما يمتلك من حق أن يأخذ الأجهزة والمعدات الحربية من ساحة القتال فيتصرف فيها بما يشاء .
أمّا عند هجوم عدوّ خارجي من غير المسلمين على البلاد الإسلامية ، فإنّ الواجب يحتم على المسلمين أن يجاهدوا لصدّه وقاتله ، وأن ينهضوا جميعاً في دفاعهم ذلك : الرجل والمرأة ، والشيخ والشاب ، الطفل والبالغ ، المريض والسليم ، والعالم والعامّي بلا استثناء فيقاتلوا عدوّهم ويهزمونه ، فيقدمون على القتل والأسر والإغارة ونهب الأموال والذرائع ، وبكلّ طريق آخر ممكن ، من أجل ردع وصدّ عدوانه .

أمّا فريضة الجهاد فهي أعلى من هذا وأدقّ ، فالجهاد عبارة عن حركة الجيش الإسلامي ، بلا عداة سابق من الطرف المقابل أو تجاوز منه ، بل إنّ هدفه المحض يقوم على أساس هدايته للتوحيد والإقرار بالشهادتين : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؛ فهو بهذا الهدف يتحرك ويندفع في أرض العدو ويدعوه إلى دين الإسلام .

وبالطبع فمن الواضح أنّ سكنة تلك الأراضي هم من غير المسلمين ، سواء من المشركين والمادّيين والطبيعيين ، أم من أتباع بوذا والبراهمة وأتباع كونفوشيوس وغيرهم ، أم من أهل الكتاب من يهود ونصارى

١- الآياتان ٩ و ١٠ ، من السورة ٤٩ : الحجرات .

ومجوس . وعلى آية حال فإن قبل هؤلاء اعتناق الدين الحق بمجرد دعوتهم إلى الإسلام فإنهم يحقنون دماءهم فلا يُقتلون ولا تؤخذ منهم الجزية ، وعند ذلك يعود الجيش الإسلامي ويتحمل سائر المسلمين وبيت مال المسلمين نفقات الحرب من تجهيز الجيش وغير ذلك ، ولا يؤخذ من تلك الفئة المغلوبة للمسلمين حتى درهم واحد .

أما لو رفضوا اعتناق الإسلام وأصرّوا على دينهم ، فإن كانوا من أهل الكتاب أُجبروا على دفع الجزية (الضرائب والخراج إلى خزينة الحكومة الإسلامية) ؛^١ فإن رفضوا دفع الجزية أو كانوا من غير أهل الكتاب ، كالمشركين والدهريين ، فإنّ على الجيش الإسلامي مقاتلتهم وحرّبتهم

١- وهذه الجزية والخراج مقابل الالتزام الذي تتكفل الدولة الإسلامية بموجبه في جعلهم في حماية الإسلام وذمّته ، فتحميمهم الحكومة الإسلامية وتؤمنهم من أيّ أذى واعتداء وهجوم للأعداء ، وفي حال هجوم عدوّ عليهم فإنّ الدولة الإسلامية تجهّز جيشاً من بيت مال المسلمين لصدّ هذا العدوّ ولا تحمّلهم شيئاً من نفقات ذلك الجيش ، كما أنّ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ونواميسهم مصنونة في عهدة حكومة الإسلام . ويمكن لهؤلاء الاستفادة -وفق عقد مع الحكومة- من المستشفيات والمستوصفات والمدارس والمكتبات وغيرها ، ويمكنهم كذلك الاستفادة من الكهرباء والماء والهاتف والغاز وحراسة الجيش والشرطة ، ومن خدمات البلديّة والمحكمة .

وخلاصة الأمر ، فإنّهم يُعاملون كباقي المسلمين ، لكنّهم لا يدفعون -كالمسلمين- الخمس والزكاة والضرائب الماليّة المشابهة . وتسعى الحكومة الإسلامية آنذاك في أمر هدايتهم بحريّة كاملة عن طريق البحث والمنطق وإراءة الأدلّة الصحيحة ، وترك لهم الخيار والحرّيّة في قبول الإسلام ، فحين يتعرّف هؤلاء تدريجياً على منطق القرآن ، ويرون أسلوب معاملة وعمل المسلمين عياناً ، ويطلّعون على مزايا الإسلام ويُسره مقابل قوانينهم ومشاكلهم المعقّدة ، فإنّهم سيُسلمون طوعاً واختياراً ورغبة ويتركون عقائدهم ومذاهبهم السابقة مهما كان شكلها . وقد رأينا في التاريخ الكثير من الدول التي اختارت الإسلام طوعاً بعد موافقتها على دفع الجزية .

ليقبلوا بدين الحق . ولا يبقى لهم في هذا الاحتمال مفرّ غير القتل والأسر ،
ويصبح من حقّ المسلمين النهب والإغارة وأسّر نسائهم وذرائعهم^١ .
وللجيش الإسلاميّ عند عدم انعقاد معاهدة الصلح والهدنة أن
يتصرّف في الأفراد الباقين من غير القتلى ، فيأسرهم ويسترقّهم ، ثمّ يهتمّ
بتربيتهم الدينيّة وهدايتهم الإلهيّة وفق رأي الدولة الإسلاميّة ، أو يُمّن
عليهم - إن اقتضت المصلحة ذلك - فيعتقهم ويحرّرهم ، أو أن يأخذ منهم
الفدية مقابل حرّيتهم .

وللجهاد في الإسلام مزايا مختصّة به ، فهو ليس كالحروب التقليديّة
للمحاربين والأبطال التي تقوم على الرغبة في الانتقام والحسد والحقد
والتعالي والاستكبار والأنانيّة وعبادة الذات ، أو توسيع رقعة الأرض
والحصول على الأموال والجواهر والنفوس ، بل هو أمر مقدّس شرعيّ

١- يقول أحمد أمين المصريّ في كتاب «يوم الإسلام» ص ١٨٣ :

وسار الفقهاء من المسلمين على هذه التعاليم في فقههم من حسن معاملة أهل الكتاب
وأن يكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، بل لمّا فُتحت فارس عومل أتباع زرادشت معاملة أهل
الكتاب ، ولئن قسا الإسلام بعض الشيء على الوثنيّين دون أهل الكتاب فلأنّه يرى أنّ الوثنيّة
انحطاطٌ في الإنسانيّة يجب علاجها وانتشال الإنسانيّة من حضيضها ، وعلى هذا سار
المسلمون في أكثر تاريخهم على حسن معاملة أهل الكتاب ، يحمونهم ما دفعوا الجزية
ويسمحون لهم بالعبادة في بيّعهم وكنائسهم ، وهذه الجزية إنّما شُرّعتْ بدّل تجنيدهم ، لأنّهم
لا يأمنون جانبهم إذا جُنّدوا ، ولا يتقون بغيرتهم الحربيّة ، فليدفعوا بدل القتال شيئاً من المال
لحمايتهم .

ولو قرنت معاملة المسلمين في دولهم لليهود والنصارى بمعاملة النصارى للمسلمين
في دولهم لتبيّن إلى أيّ حدّ كان التسامح عند المسلمين وفقدانه عند النصارى حتّى ليصحّ
للمسلمين أن يفخروا بتشريع الفقهاء الأوّلين في معاملة أهل الدّمة وتطبيق ذلك عليهم في
مختلف العصور .

وعبادة حقيقية من المحراب الإلهي، لا تنتفي فيها أمثال هذه الأنانيات والمقاصد فقط، بل إن وجودها فيها له الضرر والإحباط الذي يلحق بأساس عبادة هذا العمل ويؤدي إلى فساده وعدم قبوله.

وفي الجهاد الإسلامي يفقد الجيش أمواله، ويتحمل نفقات ذهابه وإيابه، ويقتل أفراده في القتال صرعى مضمخين بدمائهم، ويتحمل عدداً كبيراً من الجرحى، كل ذلك بنية إرشاد وهداية الجانب غير المسلم الذي يريد دعوته إلى دين التوحيد، وإلى التمتع بمواهب الإسلام ومنافعه؛ ثم يكف عن القتال بمجرد إسلام أولئك ويعدّ إسلامهم نصراً وظفراً له. هذه هي فلسفة الجهاد.

ويمكن بلا أدنى شك اعتبار هذا الأمر والواجب الإسلامي الرفيع من أعظم خصائص الإسلام الأخلاقية والحياتية والتربوية. فهل رأيتم أو سمعتم في هذا العالم بأحد يستعد من أجل إرشاد وهداية شخص أجنبي لا تربطه به محبة أو علاقة سابقة لأن يتجاوز مرحلة الوعظ والنصح والإرشاد والكلام الغليظ، بل يتجاوز الوعيد والتهديد، فلا يتحمل مشقة السفر ومحنته فقط، بل يوافق على تقديم نفسه وأعزّة أولاده وإخوانه وعشيرته وأصحابه قرابين مضرّجة بالدماء، كل ذلك من أجل أن يضع ذلك الرجل الأجنبي المنحرف المشرك قدمه على طريق الهداية ويحني رأسه لقبول الحق ويُنجي نفسه من مهالك الشرك وعواقبه الوخيمة، ومن المضائق والطرق المليئة بالمنعطفات في عقائده وسننه التقليدية الخاطئة، التي تلقاها بعينين مغمضتين وأدّج بها عالم روحه وحياته؟! هذه هي فلسفة الجهاد^١.

١- يكتب أحمد أمين المصري في كتاب «يوم الإسلام» ص ١٢٢ إلى ١٢٤: أن

﴿ المسلمون إذا أنسوا من شخصٍ صدقاً ووفاءً وسلاماً جروا وراءه أتباعاً لقوله تعالى: وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ، والمسيحيون إذا أنسوا من واحد غفلةً وقعوا عليه وقوع الحداة على العصفور أو الصقر على الحداة.﴾

لقد مرّ زمن كان المسلمون فيه هم الغالبيين فحكموا النصارى واليهود حكماً عادلاً، لانعرف في التاريخ مثله، تبعاً لتعاليم الإسلام.

نعم، إنَّ عمر بن الخطّاب في أوّل عهده انتدب يعلى بن أمية لإجلاء النصارى من أهل نجران عن بلادهم، ولكنّ عذره في ذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: لَا يَجْتَمِعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ، لأنّ الإسلام يريد أن تكون جزيرة العرب حصن المسلمين ومنبتهم، وتربية الدعاة للإسلام فيها، وعدم اختلاطهم باليهود والنصارى، والدين غضّ طريّ، فأمر بإجلاء أهل نجران. ومع ذلك فإنّه لمّا أجلاهم عوّضهم عن بلادهم بخيرٍ منها، خيّرهم في الجهات التي يريدونها. لم يشأ رسول الله أن يكرههم على الإسلام فتركهم وشأنهم عملاً بقوله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، وصالحهم على مالٍ معلوم يؤدّونه كلّ سنة وشرط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به. ولمّا توفّي رسول الله أقرّهم أبو بكر على الشروط التي اشترطها عليهم الرسول. ولمّا حضرت أبا بكر الوفاة أوصى عمر بإجلائهم لتقضّهم العهد بتعاملهم بالربا. فكان أوّل عمل عمله أن يجليهم عن أرضهم، وأمر العامل الذي أرسله أن يعاملهم بالرفق ويشتري أموالهم ويخيّرهم عن أرضهم بأيّ أرضٍ شاءوا من بلاد الإسلام.

وكان ممّا أوصى به عامله: اتّهم ولا تفتنهم عن دينهم ثمّ أجلهم من أقام منهم على دينه وأقرّر المسلم، وامسح أرض كلّ من تجلي منهم، ثمّ خيّرهم البلدان، وأعلمهم أنّنا نجليهم بأمر الله ورسوله.

وكتب لهم كتاباً قال فيه: أمّا بعد؛ فمن وقعوا به من أهل الشام والعراق، فليوسعهم من حرف الأرض، وما احتملوا من شيء فهو لهم، وكان أرضهم باليمن، فنزل بعضهم الشام، وبعضهم بناحية الكوفة.

وشكوا عثمان لمّا استخلف ضيق أرضهم، ومزاحمة الدهاقين لهم فكتب عثمان إلى عامله بالكوفة يوصيه بهم، ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلّة من جزيتهم، وكان قد فرض عليهم تقديم الحلل كجزية؛ ولمّا ولي معاوية شكوا إليه تفرّقهم وموت من مات منهم، ﴿

ونحن نرى أنّ المؤمنين من صدر الإسلام وحتى يومنا هذا يعيشون على أمل الجهاد والقتل في سبيل الله ، ويطلبون من خالقهم بإلحاح في ادعيتهم أن يوفّقهم لهذه الفريضة الإلهيّة . نراهم يعدّون القتل تحت الحراب والرجم بالحجارة وبين الرماح والسيوف فوزاً عظيماً . لماذا ؟ ولأيّ سبب ؟ ولأيّة حكمة ؟

ذلك لأنّ المسلم الذي ذاق طعم التوحيد ، وآمن بآيات القرآن ، واتبع رسول الوحي المرتبط والرابط والربط بعالم الغيب والشهود ؛ وتمتّع وسعد بأحسن وجه بمزايا الإسلام وآثاره في العدل والإيثار والأخلاق الحميدة والعقائد المقبولة والمعاملة الحسنة ، لن يرضى أن يجلس وحده على هذه المائدة فيرتوي ويتناول ويغتذي من المواهب الإلهيّة ، والمناجاة حال الخلوص والخلوة ، وكرائم الأخلاق المرصيّة والشيم المحمودة ، ويلقه السكر من تجلّيات الحقّ ونور توحيده ، في حين يُحرم أبناء نوعه وجلدته ، ويمدّون أيديهم على الموائد الظلمانيّة إلى الأقدار ، ويقضون أعمارهم في الغفلة والشرك والجهل بأعين عمياء وآذان صمّاء وقلوب خالية لم يعمرها الفكر .

﴿ وإسلام من أسلم . فوضع عنهم مائتي حلّة أيضاً ، فلمّا أتى الحجّاج أعادهم ونقصهم ، فأمر بإحصائهم فبلغوا العشر فألزمهم مائتي حلّة فقط . فلمّا ولي هارون الرشيد أعادوا الشكوى إليه من العمّال فأمر أن يعفوا من معاملة العمّال لهم ، وأمر أن تكون معاملتهم مع بيت المال في العاصمة الإسلاميّة مباشرة .

فترى من هذا أنّ خلفاء المسلمين لم يُكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام ، بل تركوا كلاً ودينه . ثمّ التزامهم نحو هؤلاء النصارى بالوفاء بالعهود ، ثمّ حرص الخلفاء على التوالي على حمايتهم وإرضائهم ورفع الظلم عنهم . رأيت معاملة للمخالفين خيراً من هذه المعاملة ؟

ولقد أوصى نبي الإسلام بالجار ، وكان يُشرك جلساءه وأصحابه في الهدايا التي تُجلب إليه ، وكان يتحرّز من تناول الطعام في ملاء عام بحيث يراه عابرو الطريق ، حتى أنه أوصى بقطط البيوت أن لا يُتركن جياً إذ : **هُنَّ طَوَّافَاتٌ يُبْوِتُكُمْ** . فلم يكن يرضى - لهذا - أن يتمتع وأصحابه بنعمة الإيمان والتوحيد والإسلام ، والتي تعدل آلاف المرّات النعم الماديّة والحياتيّة الدنيويّة ، في حين يُحرم بنو نوعه وبنو جنسه من بني آدم من هذه النعمة ، ولو كانوا يعيشون قبالة في الطرف الآخر من الدنيا !

وعليه ، فقد كان يمتنع من الأكل إلا ما جشِب ، ويتجافى عن الراحة والنوم إلا قليلاً ، ويشدّ حجر المجاعة على بطنه ، وينصرف مع أصحابه إلى معركة الجهاد فيقف فيها أقرب الناس إلى العدو . وكان يُجرح ، وتُكسر رباعيّته ، وينغرس حلق الحديد في جبينه فيسيل دمه ، ولا يستطيعون انتزاع بيضة الحديد من رأسه الشريف واستخراج حلقاتها الحديديّة ؛ ويستشهد أقرب أرحامه إليه ، كعمّه الجليل حمزة بن عبد المُطَلِّب ، وابن عمّه عبيد بن الحارث بن عبد المُطَلِّب ، وتصيب حاميه الوحيد وابن عمّه عليّ بن أبي طالب في معركة واحدة تسعون جراحة وُضع في أكثرها فتائل لتعدّر تضميدها ، ويسقط أصحابه قرّاء القرآن من أمثال عبد الله بن عمرو بن حرام أب جابر وعمرو بن الجموح على الأرض مقطّعين إرباً إرباً ، كلّ ذلك كي لا يجلس وحده إلى هذه المائدة السماويّة ، بل يدعو أبناء نوعه وجنسه فينتفعون بنور العلم والعمل .

ولقد كان أيسر عليه كثيراً ؛ لو لم يكن هدفه ذلك ؛ أن يهاجر من مكّة مع قلة من أصحابه ، فيختار مكاناً عند نهرٍ جارٍ أو عند مساقط مياه ذات هواء عذب فينشغل بالترنم وقراءة آيات القرآن متمتّعاً بالمزايا الروحيّة فقط . لكنّه لم يفعل ذلك ، بل كان يرى نور التوحيد تحت ظلال بريق

السيوف والرماح ، ومع سهيل الخيول الغازية وهمهمة الأبطال الغزاة . هذه هي فلسفة الجهاد في الإسلام .^١

وينقل الشاعر المَلّا الرومي بالتفصيل قصّة الأسرى المصفّدين بالسلاسل الذين مرّ عليهم النبيّ الكريم فتبسّم ؛ فقالوا : كيف يكون هذا الرجل رحمةً للعالمين وهو يرانا على هذه الحال فيضحك ؟ فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم في جوابهم :

عَجِبْتُ مِنْ قَوْمٍ يُجْرُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ .

١-أورد ابن الأثير في «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ٢٨٣ ، الطبعة الأولى ، المطبعة المنيرية في مصر، في حوادث السنة ١٣ هـ، في حرب اليرموك: أنّ خالد بن الوليد كان قائد الجيش الإسلامي من قبل أبي بكر ، فعبأ الجيش في كراديس واستعدّ بأربعين ألفاً للهجوم على مائتي وأربعين ألف روميّ ، فخرج جَرَجَة إلى بين الصّفين وطلب خالداً ، فخرج إليه ، فأمن كلّ واحد منهما صاحبه ، فقال جرجة : يا خالد اصدقني ولا تكذبني ، فإنّ الحُرّ لا يكذب ، ولا تخادعني ، فإنّ الكريم لا يخادع المسترسل ... حتّى يصل إلى قوله :

فأخبرني إلى ما تدعوني ؟ قال خالد : إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب . قال : فما منزلة من الذي يُجيبكم ويدخل فيكم ؟ قال : منزلتنا واحدة . قال : فهل له مثلكم من الأجر والدُّخر ؟ قال : نعم ، وأفضل ! لأننا اتبعنا نبيّنا وهو حيّ يخبرنا بالغيب ، ونرى منه العجائب والآيات ؛ وحقّ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يُسلم ؛ وأنتم لم تروا مثلنا ولم تسمعوا مثلنا ، فمن دخل بنيةٍ وصدق كان أفضل منّا .

فقلب جَرَجَة ترسه ومال مع خالد وأسلم ، وعلمه الإسلام واغتسل وصلى ركعتين ، ثمّ خرج مع خالد فقاتل الروم ... حتّى استشهد جَرَجَة عند آخر النهار .

يقول الشيخ عبد الوهّاب النجّار في الهامش : والظاهر أنّ جرجة كان يعرف العريّة ، لأنّه تكلم مع خالد بلا مترجم وقال الطبريّ : كان جرجة بن تودر ، والأقرب إلى الظنّ أنّه كان جورج بن ثيودور - انتهى .

وهي قصّة تستحق التأمل في أن يعتبر قائد إسلامي شخصاً أجنبيّاً مثيله ونظيره في جميع الأمور الدنيويّة والأخرويّة بمجرد أن يُسلم ، بل كان يعدّه أفضل منه .

ويقول الحكيم المتأله الصمداني الحاج الملا هادي السبزواري
تغمده الله في رضوانه في شرح هذه العبارة :

أي أعجب من قوم يجرون بالسلاسل إلى الإيمان الذي هو عين
الجنة ، بل الإيمان العياني والحقي هو جنة الصفات وجنة لقاء الذات .^١
ولأن الملا الرومي قد ذكر تفصيل هذه القصة فإننا نقل منها مقاطع
منتخبة من متن القصة :

ديد پیغمبر یکی جوق اسیر که همی بردند و ایشان در نفیر
دیدشان در بند ، آن آگاه شیر می نظر کردند در وی زیر زیر
تا همی خائید هر یک از غضب بر رسول صدق ، دندانها و لب
زهره نی با آن غضب که دم زند زانکه در زنجیر قهر ده من اند^٢

١- «شرح مثنوی» للحاج الملا هادي السبزواري ، ص ٢٥٣ .

قال آية الله الشعراني في كتاب «راه سعادت» (= طريق السعادة) ص ١٠٧ : الطبعة
الأولى ، يروي سهل بن سعد الساعدي : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان
يحفر الخندق فوصل إلى صخرة فتبسم . قيل : يا رسول الله ، مم كان تبسمك ؟
قال : ضحكك من ناس يؤتى بهم من قبل المشرك في الكبول يساقون إلى الجنة وهم
كارهون .

وقال ابن الأثير في «النهاية» ج ٤ ، ص ١٤٤ ، مادة كَبَل : في الرواية ضحكك من قوم
يؤتى بهم إلى الجنة في كَبَل الحديد ؛ الكَبَل : قَيْدٌ ضَخْمٌ ، وقد كَبَلْتُ الأَسِيرَ وَكَبَلْتُهُ مُحْفَفًا
وَمُتَقَلًّا ، فَهُوَ مَكْبُولٌ وَمُكَبَّلٌ .

٢- «مثنوی مولانا محمد بلخي» ج ٣ ، ص ٣١١ إلى ٣١٤ ، طبعة ميرزا محمودي .

يقول : «لقد رأى النبي جماعة من الأسرى يؤخذون من ساحة المعركة .

رأهم ذلك الليث اليقظ في القيد مكبلين يسترقون النظر إليه .

وكانوا يصرون على الرسول الصادق بأسنانهم من الغضب والغيط .

ولم يجروا أن يفوهوا بشيء مع غضبهم ، فقد كانوا يرسفون في أغلاله» .

میکشانداشان موکل سوی شهر می برد از کافرستانشان به قهر
نی فدائی میستاند ، نی زری نی شفاعت میرسد از سروری
رحمت عالم ، همیگویند ، واو عالمی را می بُرد حَلَق و گلو
با هزار انکار میرفتند راه زیر لب طعنه زنان بر کار شاه
این بمنکیدند ، در زیر زبان آن اسیران با هم اندر بحث آن
پس رسول آن گفتشانرا فهم کرد گفت : آن خنده نبودم از نبرد
مرده اند ایشان وپوسیده فنا مرده گشتن نیست مردی پیش ما
آنگهی کآزاد بودید و مکین من شما را بسته میدیدم چنین
ای بنازیده به ملک و خانمان نزد عاقل ، اشتری بر نردبان
من شما را وقت ذرّاتِ اَلْسَت دیده ام پا بسته و منکوس و پست
من شما را سرنگون میدیده ام پیش از آن کز آب و گل بالیده ام
نو ندیدم ، تا کنم شادی بدان این همی دیدم در آن اقبالتان^۱

۱- یقول : «یسوقهم الموکل بهم إلى المدینة قهراً من معاقل کفرهم . فلم یکن یرید منهم فدیةً ولا ذهباً ، ولا شافع هناك لشفع لهم . فیا عجباً یدعونه رحمةً للعالمین وهو یحزّ رقاب عالم من الخلق . کانوا یسیرون لا ینتهی إنکارهم وغمزهم علی عمل الملك الرسول . کان أولئك الأسرى یجمجمون ویهممون بذلك متسائلین فیما بینهم . ولقد فهم الرسول مقولتهم تلك فقال إنّ تبسمی لم یکن للمعركة ونتاجها . ولقد مات أولئك وصاروا رفاتاً ، لكنّ قتلانا أحياء لا یموتون . وكنّت أراکم مقیدین هكذا حال حرّیتکم وقوّتکم . فیا من یدلّ بملکه وسلطانه ، لست عند العقلاء إلاّ کمثل بعیر علی سلّم (=مَثَل فارسی).

رأیتکم فی عالم الذرّ حین ناداکم ربکم «ألست» مقیدین أذلاء منکوسین .

شاهدتکم منکوسین قبل أن أنمو من الماء والطين وأخلق .

بسته قهر خفي ، آنگه چه قهر
 قند ميخوردید ، و در وی دُرَج زهر
 چون چنین قندی پر از زهری عدوّ
 خوش بنوشد ، چَتّ حسد آید بر او
 با نشاط آن زهر میگردید نوش
 مرگتان خفیه گرفته هر دو گوش
 من نمیگردم غزا از بهر آن
 تا ظفر یابم فرا گیرم جهان
 کاین جهان جیفه است و مردار و رخیص
 بر چنین مردار چون باشم حریص ؟
 سگ نییم تا پرچم مرده گنم
 عیسیم آیم که تا زنده اش کنم
 زان همی کرده صفوف جنگ چاک
 تا رهانم من شما را از هلاک^۱

﴿ فلم أشاهد شيئاً جديداً ليهزني الجدل ، فما رأيته كان إقبال الحظّ عليكم ﴾ .
 ۱- يقول : «لقد كنتم مقيدين بأغلال الغضب الخفيّ ، وأيّ قهر ! وكنتم تترشّفون
 العسل المشوب بالسمّ .

شراب حلو ملاء عدوكم سمّاً نافعاً ، من شربه أصابه داء الحسد .
 وكنتم تعبّون من ذلك السمّ فرحين ، وكان الموت الخفيّ قد أصمّ أذانكم .
 ولم أكن أغزو وأقاتل من أجل الظفر بالسيطرة على العالم .
 فهذا العالم ليس إلاّ جيفة وميته رخيصة ، فأحرص على الحصول على ميتة ننته؟!
 وليس شأنني انتزاع لمة ميتّ ، فذاك شأن الكلب ، إنّما جئت كعيسى لأبعث فيه حياة
 جديدة .

وجئت أشقّ صفوف المحاربين لأنقذكم وأنجيكم من الهلاك» .

زان نَمی برَم گلوهای بشر
 تا مرا باشد کَر و فرّ و حشر
 زان همی برَم گلوی چند تا
 زان گلوها عالمی یابد رها
 که شما پروانه وار از جهل خویش
 پیش آتش میکنید اینجمله کیش
 من همی دانم شما را همچو مست
 از در افتادن در آتش با دو دست
 آنکه خود را فتحها پنداشتید
 تخم منحوسی خود میکاشتید
 یکدگر را جدّ و جدّ مینخواندید
 سوی اژدرها فرس میراندید
 قهر میکردید و اندر عین قهر
 خود شما مقهور قهر شیر دهر
 گفت پیغمبر: که هستند از فنون
 أهل جنّت در خصومتها زبون^۱

يقول: «ولست بقاطع حلقوم بشر حتّى يكون بينا كَرّ وفرّ وجدال.
 فإنّما أقطع أعناق قَلّة معدودة معاندة لتحرّر رقاب عالم آخرين.
 لقد كنتم تحومون كالفرّاش من جهلكم، تسوقكم عقائدكم إلى النار سوقاً.
 فجئت أحيّدكم بيدّي عن التهاوي في النار كالسكاري.
 وما كنتم تعدّونه فتحاً ونصراً، لم يكن إلاّ بذور تعاستكم تزرعونها.
 تنافون بينكم جادّين وتسوقون أفراسكم إلى التّنين.
 وكنتم تغلبون وتقهرون، لكنكم كنتم حال قهركم مقهورين، قهركم ليث الدهر. »

از کمال حزم و سوء الظنّ خویش
 نی ز نقص و بد دلی و ضعف کیش
 مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ أَمَدَ خَطَابِ
 گم شد او ، و الله أعلم بالصواب
 زان نمیخندم من از زنجیرتان
 که بگردم ناگهان شبگیرتان
 زان همی خندم که از زنجیر و غلّ
 میکشم تان سوی سروستان و گل
 ای عجب کز آتش بی زینهار
 بسته می آریمتان تا سبزه زار
 از سوی دوزخ به زنجیر گران
 میکشم تان تا بهشت جاودان
 هر مقلد را در این ره نیک و بد
 همچنان بسته به حضرت میکشد^۱

◀ وقال النبي إنّ أصحاب الجنة هم الأذلاء عند الخصومات والمنازعات». يقول : «وليس هذا من نقص فيهم أو ضعف قلب وعقيدة ، لكنّه من كمال الحزم واتّهام النفس الأمّارة.

جاءه الخطاب أن : ما رميت إذ رميت ؛ فضع عند ذلك وامحى ، والله أعلم بالصواب .
 لم أكن لأضحك من أغلالكم التي ألقيتها عليكم سحراً .
 بل إنّ ما أضحكني أنّهم يجزّونكم بالسلاسل إلى حيث الرياض والورود .
 ونحن نسوقكم مقيدين -ويا للعجب- من النار التي لا ملجأ منها إلى حيث الخضرة الدائمة .
 نجزّكم من جهنّم بالسلاسل الثقيلة إلى حيث جنة الخلد .
 كلّ المقلّدين الجيّد والردّيء يجزّون في هذا الطريق إليه سبحانه» .

جمله در زنجیر بیم و ابتلا
میروند این ره به غیر اولیا
می کشند این راه را پیکار وار
جز کسانی واقف از اسرار کار
جهد کن تا نور تو رخشان شود
تا سلوک و خدمت آسان شود
کودکان را میبری مکتب به زور
زانکه هستند از فوائد چشم کور
چون شود واقف به مکتب میدود
جانش از رفتن شکفته می شود
می رود کودک به مکتب پیچ پیچ
چون ندید از مزدکار خویش هیچ^۱

يقول: «يسرون كلهم في هذا الدرب في سلاسل الخوف والابتلاء عدا الأولياء والمقربين».

يجرون بجهدهم في هذا الطريق عدا أولئك الذي وقفوا على الأسرار. فاجهد أن يكون نورك متألئاً لتسهل خدمتك وسلوكك. فأنت تسوق الأطفال بالإجبار للدرس، لأن أعينهم عمياء عن فوائده. لكنهم حين يقفون على ذلك يسرعون إليه، وتفتتح أرواحهم له شيئاً فشيئاً. ويبقى الطفل يذهب للدرس متثاقلاً، لأنه لم يلمس بعد من نتيجة عمله شيئاً. ولقد كانت محبة وشفقة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على الأسرى إلى الحد الذي لم يستطع معه النوم بعد بدر من أنين عمه العباس، فقد كان قد أحكم وثاقه فلم يستطع النوم وبقي يتصور، ولم يشأ النبي أن يتدخل شخصياً في أمر العباس باعتبار أن أسره كان بيد المسلمين، حتى فك المسلمون بأنفسهم القيد عنه فغفت عند ذلك عين الرسول.

ومن جملة الأحكام المترتبة على الجهاد الإسلامي مسألة الاستعباد ، أي أخذ الأسير الكافر بعنوان غلام أو جارية واسترقاقهم واستعبادهم استعباداً مطلقاً لتكون دولة الإسلام في أمان من كيدهم وشرهم ، ولتربيتهم

« وقد نقل آية الله العلامة الطباطبائي قدس الله نفسه في «تفسير الميزان» ج ٩ ، ص ١٤١ ، في بحث روائي عن «مجمع البيان» أنه روى عن ابن عباس قوله : لَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَ بَدْرٍ وَالنَّاسُ مَجْبُوسُونَ بِالوَثَاقِ ، بَاتَ سَاهِرًا أَوَّلَ اللَّيْلِ ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ : مَا لَكَ لَا تَنَامُ ؟ فَقَالَ : سَمِعْتُ أَنبِيَّ عَمِّي الْعَبَّاسَ فِي وَثَاقِهِ ، فَأَطْلِقُوهُ فَسَكَتَ ، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

وأورد العلامة السيد شرف الدين في كتاب «النص والاجتهاد» ص ٢٣٩ و ٢٤٠ ، الطبعة الثانية: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه وقد حمى الوطيس يوم بدر: عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم أخرجوا كرهاً ، لا حاجة لهم لقتالنا ، فمن لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله (أبو البختري هو الذي عارض صحيفة المقاطعة التي كتبها المشركون في تحريم المعاملة مع بني هاشم فحبسوه في شعب أبي طالب ثلاث سنين وسعى في نقضها ، ولم يؤدي النبي بشيء ، ولم يصدر منه أمر يكرهه النبي ، وكان النبي يؤمل أن يُسلم إن بقي حياً) ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله ، فإنه خرج مستكراً .

ولمَّا أُسِرَ الْعَبَّاسُ بَاتَ رَسُولُ اللَّهِ سَاهِرًا أَرْقًا ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ : كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ كُلٌّ مِنْ أَرْخِ وَقَعَةٍ بَدْرٍ مِنْ أَهْلِ السَّيْرِ وَالْأَخْبَارِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا لَكَ لَا تَنَامُ ؟

قال : سَمِعْتُ تَضَوَّرَ عَمِّي الْعَبَّاسَ فِي وَثَاقِهِ فَمَنَعَنِي النَّوْمَ . فقاموا إليه فأطلقوه ، فنام رسول الله .

وأورد في «كنز العمال» ج ٥ ، ص ٢٧٢ ، الحديث رقم ٥٣٩١ : أن ابن عساكر أخرج عن يحيى بن أبي كثير : أنه لما كان يوم بدر أسر المسلمون من المشركين سبعين رجلاً ، فكان ممن أسر العباس عم رسول الله ، فولى وثاقه عمر بن الخطاب . فقال العباس : أَمَا وَاللَّهِ يَا عَمْرُ ! مَا يَحْمِلُكَ عَلَى شِدِّ وَثَاقِي إِلَّا لَطْمِي إِيَّاكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ . قال : فكان رسول الله يسمع أنين العباس فلا يأتيه النوم . فقالوا : يا رسول الله ما يمنعك من النوم ؟

فقال رسول الله : كَيْفَ أَنَامُ وَ أَنَا أَسْمَعُ أَنِينَ عَمِّي ؟ فأطلقه الأنصار ... الحديث .

بآداب الإسلام، فيتعلّمون على يد المسلمين تدريجياً عقائد الإسلام وآدابه وأخلاقه، وينضمّوا بملء إرادتهم وبطوعهم واختيارهم إلى صفوف المسلمين.

وهذا الحكم يمثّل الطريق الوحيد للحلّ الصحيح الموضوع على أساس فلسفة الإسلام، والذي يرتضيه ويقرّه الحكم القطعيّ العقليّ ولا يتعارض مع الحكم الشرعيّ في الكتاب والسنة.

ولكن وفقاً لقرار مؤتمر بروسل - قبل مائة سنة - فقد مُنع بيع وشراء العبيد في العالم، واعتبر استرقاقهم غير جائز بأيّ وجه من الوجوه. وقد أصدر هذا القرار تحت عنوان حماية البشر تحت غطاء الإنصاف والعدل، ممتناً بذلك على البشرية في تخلص أبناء نوع الإنسان وجنسه إلى الأبد من وطأة الرقّ وتحمل المشاق الناشئة من الأسر والعبودية.

ويُشاهد أحياناً أنّ البعض يوجّه الانتقاد للإسلام في أنّه مع عظمته ورفعته لم يضع الحلّ الناجح لمسألة العبيد، ويتساءل: كيف يتغاضى هذا الدين الذي أعلن من جاء به خلوده وأبديته عن مسألة الحرّية وإلغاء حكم الرقّ؟!؟

وثانياً فإنّ القوانين الجارية والراقية للأمم المتمدّنة الغربية لبست إكليل الفخر في تخلصها البشر من الرقّ وفتحت له أبواب الرقيّ والسيادة. ونلاحظ ثالثاً أنّ البعض في دفاعه عن الإسلام يسلمّ بأساس صحّة وصواب إلغاء حكم الرقّ، ثمّ يكون بصدد بيان عدم إغائه في زمن رسول الله ويتحرّى مقتضيات وظروف وإمكانات ذلك العصر، محاولاً تبرير عدم إغائه في ذلك العصر بهذه العلل والأسباب.

وسنوضح إن شاء الله تعالى في هذا البحث أنّ هذا الكلام لم يكن غير خدعة ومكر، وأنّ قرار بروسل لم يتضمّن غير إلغاء اسم العبودية

تاركاً حقيقتها ومسمّاهما سالمة غير مخدوشة ، فالعبودية حسب نظره هي غيرها في نظر الإسلام ، وحكم الإسلام بعبودية إنسان له شروط وعنوان خاص لا يمكن رفضه عقلاً ، وينبغي أن يكون كذلك ، وحكم الإسلام هذا غير منسوخ ولن يُنسخ ، وهو صحيح وثابت إلى الأبد ؛ كما أن البحث في آيات القرآن الراجعة إلى العبيد ، وكذلك البحوث الروائية والتاريخية والفقهية الواردة في كتاب الاستيلاء والمكاتبة ، مسألة حيّة شأنها شأن بحوث الجهاد ، وينبغي تدريسها في الحوزات والاستمرار في بحثها .

وباعتبار قيام الأستاذ آية الله العلامة الطباطبائي قدّس الله سرّه الشريف ببيان هذا البحث واستقصاؤه في تفسيره بشكل كامل ، لذا يليق أن نقتطف عنقوداً من محصولة ونتابع البحث من خلاله .

فقد أورد في آخر سورة المائدة في خطاب عيسى المسيح على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام مع الله سبحانه : **إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ** ،^١ بحثاً في عشر فقرات نورد هنا خلاصته :

١- اِعْتِبَارُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ :

في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً تعدّ الناس عباداً لله سبحانه ، وتبني على ذلك أصل الدعوة الدينيّة : الناس عبيد والله مولاهم الحق . بل ربّما تعدّى ذلك وأخذ كلّ من في السماوات والأرض موسوماً بسمّة العبوديّة لله ، قال تعالى :

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا.^٢

١- الآية ١١٨ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢- الآية ٩٣ ، من السورة ١٩ : مريم .

ولو أخذنا أمر العبودية بالتحليل العقلي لرأينا أن حقيقة معنى العبودية مع حذف خصوصياتها الزائدة الطارئة موجودة في مخلوقات الله سبحانه ؛ فالله سبحانه خلق الخلائق من جهة تكوين جميع جهاتها المحيطة ، فهي في يد تصرفه ومشئته من كل الوجوه ولا تملك لنفسها ولا غيرها شيئاً من ضرر أو نفع ، ولا موت ولا حياة ولا نشور .

وهذا هو مفاد العبودية ، إذ لما ثبتت من جهة التكوين ، فإنها من جهة التشريع ستترتب عليها أيضاً ، لأن العبودية التشريعية هنا تابعة للعبودية التكوينية لا يعقل انفكاكها عنها :

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .^١

وكما أن في تلك الجهة ربوبية مطلقة ، فهنا في هذه الجهة عبودية مطلقة ، ولدينا في القرآن الكريم آيات لها الدلالة التامة على إطلاق هذه العبودية ، أمثال قوله تعالى :

مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِّن وَّلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ .^٢

وقوله تعالى : وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ .^٣

وقوله : يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .^٤

وكيفما كان فإن معنى عبودية الموجودات بالنسبة إليه تعالى هو

١- الآية ٢٣ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢- مقطع من الآية ٤ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

٣- صدر الآية ٧٠ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٤- الآية ١ ، من السورة ٦٤ : التغابن .

نفس معنى العبودية الذي يستعمله العقلاء في مجتمعاتهم مع حذف لوازمه المادية والطبيعية والظروف الأخرى . ومن الواضح أن معنى العبودية هو عدم الاستقلال المحض والتبعية المطلقة في جميع الأمور نسبة بإرادة المولى القاهرة ، كما أشار إليها قوله تعالى :

بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ .^١
وكذلك قوله تعالى : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ
وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ
لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .^٢

٢- نشأة استعباد الإنسان وأسبابه :

كان الاستعباد والاسترقاق - كما يشير التاريخ - أمراً شائعاً في العصور القديمة ، والأصل في معناه كون النفس الإنسانية سلعة مملوكة كسائر السلع المملوكة يتصرف بها مالکها بما يشاء ، وهي مسلوقة الاختيار والإرادة أمام اختيار المالك وإرادته . غير أن أساس الاسترقاق كان مبتنياً على قواعد معينة ، ولم يكن متكناً على إرادة جزافية ، فلم يكن يسع لأحدهم أن يملك كل من أحب ، ولا أن يملك كل من شاء وأراد ببيع أو هبة أو غير ذلك .

وكان الاستعباد مبنياً على الغلبة والسيطرة ، كغلبة الحروب التي تنتج للغالب الفاتح أن يفعل بخصمه المغلوب ما يشاء من قتل أو سبي أو غيره . أو غلبة الرئاسة التي تصير الرئيس فعلاً لما يشاء في حوزة رئاسته .

١- ذيل الآية ٢٦ والآية ٢٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢- الآية ٧٥ ، من السورة ١٦ : النحل .

أو اختصاص التوليد والانتاج الذي يضع ولاية أمر المولود الضعيف في كف والده القويّ يصنع به ما بدا له حتى البيع والهبة والتبديل والإعارة ونحو ذلك .

وقد تكرر في أبحاثنا السابقة أنّ أصل الملك في المجتمع الإنسانيّ مبني على القدرة المغروزة في الإنسان على الانتفاع من كلّ شيء يمكن أن ينتفع به بوجهٍ أكمل . فالإنسان يستخدم في سبيل إبقاء حياته كلّ ما قدر عليه ، ليس الجمادات والنباتات فقط ، بل الحيوانات أيضاً ، وحتى الإنسان الذي هو مثله في الإنسانيّة .

غير أنّ حاجة الإنسان المبرمة إلى الاجتماع والتعاون اضطرّه إلى قبول الاشتراك مع سائر أفراد نوعه . كما أن أعمال الغريزة أو قوّة الاستخدام العقليّة في المجتمع بدون قيد أو شرط أمرٌ محال ، لأنّ جميع الأطراف تسعى بتمام معنى الكلمة أن تستخدم الآخرين في منافعها الشخصية وتجبرهم على ذلك ، وهذا الأمر سيوجب التصادم والتراحم بينهم ممّا سيوجب سلب الاجتماع والعودة إلى الحياة الفرديّة من جديد .

ولأنّ ذلك أمرٌ غير ميسور ، فقد عمد الإنسان إلى تعديل غرائزه في الاستخدام وصار لكلّ امرئ الحقّ في الاستخدام والانتفاع بالمنافع المستحصلة من عمل غيره بقدر ما يبذل من جهد ، واختصّ كلّ جزء من المجتمع بعمل أو أعمال معيّنة ثمّ ينتفع مجموع الأفراد بمجموع المنافع وتقسّم نتائج الأعمال بينهم بنسبة متساوية ، فجميع أفراد المجتمع شركاء متساوون متشاركون في حفظ ذلك المجتمع .

وفي هذه الحال فلم يكن ممكناً إطلاق عنوان العبوديّة والرقّ على أحدٍ منهم واعتباره عبداً محضاً ورقيقاً خالصاً للآخرين بلا نقاش . فلا محالة أنّ العبد المستعبد سيكون ذلك الشخص الخارج عن هذا المجتمع

وليس جزءاً من أجزائه ، وهذا يحصل بأحد طريقي ثلاثة :

أ - أن يكون ذلك الشخص المملوك فرداً محكوماً بالخروج عن المجتمع ، كالعدو المحارب الذي لا هم له إلا أن يُهلك الحرث والنسل ويمحي الإنسان باسمه ورسمه ، فهو خارج عن مجتمع عدوه ، ولا طريق لهم لحفظ مجتمعهم غير محاربتهم بكل قواهم لحفظ وجودهم ، ولو بالقتل والإفناء والنهب والغارة على الأموال والأسر والاستعباد . فالحرمة مرفوعة لمثل هذا العدو الذي أطمأ الحرة عن نفسه وجعلها بعدوانه عرضةً للفناء .

ب - الأب بالنسبة إلى صغار أولاده التابعين له ، فإنه يرى أنهم من توابعه في المجتمع من غير أن يكافئوه أو يماثلوه أو يوازنوه في الحقوق الاجتماعية ، فله أن يتصرف فيهم حتى بالقتل والبيع وغيرهما .

ج - وأما أن يكون الإنسان القوي المالك يرى نفسه فوق المجتمع لا يعادل من تحت سيطرته في وزن أو يكافئهم ، ولا يريد مشاركتهم في المنافع والمضار ، بل له نفوذ الحكم والتمتع بصفوة ما يختار من نتاج عمل المجتمع والتصرف في نفوسهم حتى بالاستعباد والاسترقاق ، فالكل ينبغي أن ينقاد لأوامره ويسير وفق غايته ويعمل وفق رضاه .

ويمكن عنونة هذه الطوائف الثلاث باختصار بعناوين العدو المحارب ، والأولاد الصغار بالنسبة إلى آبائهم ، وكذا النساء بالنسبة إلى أوليائهن ، والمغلوب المستذل بالنسبة إلى الغالب المتعزز .

٣ - سَيْرُ الاستِعْبَادِ فِي التَّارِيخِ :

سنة الاستعباد وإن كانت مجهولة من حيث تاريخ شيوعها في المجتمع الإنساني ، غير أنّ الأشبه أن يكون العبيد هم الأرقاء المأخوذون في أول الأمر بالقتال والتغلب ، ثم ألحق بهم الأولاد والنساء . ولذلك نعثر

في تاريخ الأمم القويّة الحربيّة من القصص والحكايات وكذا القوانين والأحكام المتعلقة بالاسترقاق بالسبي ممّا لا يوجد في غيرهم .

وقد كان دائراً بين الأمم المتمدّنة القديمة ، كالهند واليونان والرومان وإيران ، وكذا بين الشعوب كاليهود والنصارى على ما يُستفاد من التوراة والإنجيل ، حتّى ظهر الإسلام فأنفذ أمره مع تضيق في دائرته وإصلاح لأحكامه المقرّرة ، ثمّ آل الأمر إلى أن قرّر مؤتمر بروسل إلغاء الاستعباد .

قال فردينان توتل في معجمه^١ للأعلام الشرق والغرب :

كان الرقّ شائعاً عند الأقدمين ، وكان الرقيق يؤخذ من أسرى وسبأيا الحرب ومن الشعوب المغلوبة ، وكان للرقّ نظام معروف عند اليهود واليونان والرومان والعرب في الجاهليّة والإسلام . وقد ألغي نظام الرقّ تدريجياً في الهند سنة ١٨٤٣ ميلاديّة ، وفي المستعمرات الفرنسيّة سنة ١٨٤٨ م ، وفي الولايات المتّحدة بعد حروب الانفصال سنة ١٨٦٥ م ، وفي البرازيل سنة ١٨٨٨ م ، إلى أن اتخذ مؤتمر بروسل قراراً بإلغاء الاستعباد سنة ١٨٩٠ م ، غير أنّه لا يزال موجوداً فعلاً بين بعض القبائل في أفريقيا وآسيا ؛ ومبدأ إلغاء الرقّ هو تساوي البشر بالحقوق والواجبات - انتهى .

٤ - نَظَرِيَّةُ الْإِسْلَامِ بِشَأْنِ الرَّقِّ وَالْإِسْتِعْبَادِ :

قسّم الإسلام الاستعباد بحسب أسبابه ، وقد تقدّم أنّ عمدتها كانت

ثلاثة :

الحرب ، والتغلّب ، والولاية كالأبوة ونحوها ، فألغى سببين من الثلاثة من أصلهما وهما التغلّب والولاية ، وأبقى وأقرّ الثالث ، أي الأسرى

١- صفحة ٢١٩ (التعليقة).

المحاربين للإسلام . واعتبر الإسلام احترام الناس شرعاً سواء بجميع طبقاتهم ، من ملك ورعيّة ، وحاكم ومحكوم ، وأمير وجندي ، ومخدوم و خادم ، بإلغاء الامتيازات والاختصاصات الحيويّة ، والتسوية بين الأفراد في حرمة نفوسهم وأعراضهم وأموالهم ، والاعتناء بشعورهم وإرادتهم - وهو الاختيار التام في حدود الحقوق المحترمة - وأعمالهم وما اكتسبوه هو تسلّطهم على أموالهم ومنافع وجودهم .

فليس لوالي الأمر في الإسلام - أي صاحب القدرة والولاية في الشرع الإسلاميّ - غير الولاية على الناس في إجراء الحدود والأحكام وفي أطراف المصالح العامّة العائدة إلى المجتمع الدينيّ . وأمّا ما تشتهيه نفسه وما يستحبّه لحياته الفرديّة فهو كأحد الناس لا يختصّ من بينهم بخصيصة ولا ينفذ أمره في الكثير ممّا يهواه لنفسه ولا في القليل .

وعليه ، فإنّ الاسترقاق التغلبيّ ، أي الحاصل بالتسلّط والغلبة ، سيرتفع بارتفاع موضوعه . أي أنّ الإسلام وفق أساس قوانينه لا يجعل شخص الوالي صاحب الغلبة والسيطرة في الإرادة والاختيارات النفسيّة فيما يتعلّق به نفسه ، كي يفتح الطريق للاسترقاق والاستعباد عن طريق السيطرة والغلبة .

وأما ولاية الآباء لأبنائهم فلهم حقّ الحضانة والحفظ ، وعليهم حقّ التربية والتعليم ، وحفظ أموالهم ماداموا محجورين بالصغر ، فإذا بلغوا الرشد فهم وآباؤهم سواء في الحقوق الاجتماعيّة الدينيّة ، وهم أحرار في حياتهم ، لهم الخيرة فيما رضوا لأنفسهم . نعم أكّدت التوصية لآبائهم عليهم بالإحسان ومراعاة حرمة التربية ؛ قال تعالى :

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهُ فِي سِمْكِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ

بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ.^١

وقال تعالى : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا.^٢

وقد عدّ عقوقهما في الشرع الإسلامي من المعاصي الكبيرة المهلكة ، ومن الواضح أنّ خدمات أخلاقية كهذه لا تجعل الأبناء في رتبة العبيد بالنسبة لآبائهم . وأمّا النساء فقد وضع لهنّ من المكانة في المجتمع واعتبر لهنّ من الزنة الاجتماعية ما لا يجوز عند العقل السليم التخطّي عنه ولو بخطوة ، فصرن بذلك أحد شقي المجتمع الإنسانيّ ، وقد كنّ في الدنيا محرومات من ذلك ، وأُعطين الزمام في أمر الزواج والتصرّف في أموالهنّ وقد كنّ قبل الإسلام إمّا محرومات من الاختيار في هذين الأمرين ، أو غير مستقلّات في الاختيار .

وقد أشركهن الإسلام مع الرجال في بعض الأمور ، واختصن عنهنّ بأمور ، واختصّ الرجال بأمور أخرى ، كلّ ذلك عن مراعاة لقوام وجودهنّ وتركيب بناهنّ ، ثمّ سهّل عليهنّ أمور شقّ فيها على الرجال ، كأمر النفقة وحضور معارك القتال ونحو ذلك ؛ قال تعالى :

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا.^٣

١- الآيتان ١٤ و ١٥ ، من السورة ٣١ : لقمان .

٢- الآيتان ٢٣ و ٢٤ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٣- الآية ٣٢ ، من السورة ٤ : النساء .

وقال تعالى: وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ١.
وقال: أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ٢.

وقال: لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ٣.
وقال أيضاً: وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ٤.

إلى غير ذلك من الآيات المطلقة التي تأخذ الفرد من الإنسان جزءاً تاماً كاملاً من المجتمع وتعطيه من الاستقلال الفردي ما ينفصل به عن أي فرد آخر في نتائج أعماله من خير أو شر أو نفع أو ضرر، من غير أن تستثني صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، ثم سوى بينهم جميعاً في العزة والكرامة، ثم ألغى كل عزة وكرامة إلا الكرامة الدينية المكتسبة بالتقوى والعمل؛ فقال:

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ٥.

١- الآية ٢٢٨، من السورة ٢: البقرة.

٢- الآية ١٩٥، من السورة ٣: آل عمران.

٣- الآية ٢٨٦، من السورة ٢: البقرة.

٤- الآية ١٦٤، من السورة ٦: الأنعام.

٥- مقطع من الآية ٨، من السورة ٦٣: المنافقون.

روى في «بحار الأنوار» ج ٦، ص ٧٥٥، طبعة الكمباني، عن اختصاص الشيخ المفيد قال: بلغنا أن سلمان الفارسي رضي الله عنه دخل مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم فعظّموه وقدموه وصدّروه إجلالاً لحقه وإعظاماً لشيبته واختصاصه بالمصطفى وآله، فدخل عمر فنظر إليه فقال: مَنْ هَذَا الْعَجَمِيُّ الْمُتَّصِدِّرُ فِيمَا بَيْنَ الْعَرَبِ؟ فصعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر فخطب فقال: إِنَّ النَّاسَ مِنْ عَهْدِ آدَمَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا مِثْلُ أَسْتَانَ الْمِشْطِ؛ لَا فَضْلَ لِلْعَرَبِيِّ عَلَى الْعَجَمِيِّ، وَلَا لِلْأَحْمَرِ عَلَى الْأَسْوَدِ إِلَّا

وقال أيضاً: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْبِكُمْ^١.

وقد رأينا بهذا التفصيل أن الإسلام ألغى سببين من أسباب الرق

﴿ بِالتَّقْوَىٰ ؛ سَلْمَانٌ بَحْرٌ لَا يَنْزَفُ ، وَكَثْرٌ لَا يَنْفَدُ ؛ سَلْمَانٌ مِّنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، سَلْسَلٌ يَمْنَحُ الْحِكْمَةَ وَيُؤْتِي الْبُرْهَانَ .

ثم قال المجلسي في بيانه: السلسل كجعفر: الماء العذب أو البارد؛ ولا يبعد أن يكون سلسل تصحيفاً لسلمان.

١- الآية ١٣، من السورة ٤٩: الحجرات.

أورد في «تفسير الصافي» للملا محسن الفيض الكاشاني، ج ٢، ص ٥٩٤ و ٥٩٥، طبعة كراوري، ذيل الآية الكريمة المباركة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ بِالْإِسْلَامِ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَفَاخُرَهَا بِأَبَائِهَا . إِنَّ الْعَرَبِيَّةَ لَيْسَتْ بِأَبٍ وَالِدٍ وَإِنَّمَا هُوَ لِسَانٌ نَاطِقٌ فَمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ فَهُوَ عَرَبِيٌّ ، أَلَا إِنَّكُمْ مِنْ آدَمَ وَأَدَمَ مِنَ التُّرَابِ ، وَإِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ .

وأورد محمد أحمد جاد المولى بك في كتابه «محمد المثل الكامل» ص ٢٢٧، الطبعة الثانية؛ وكذلك ابن أبي الحديد في شرح الخطبة ١٤٥ لـ «نهج البلاغة» ج ٩، ص ١٠٧، طبعة دار الكتب العربية، مصر؛ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِبِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَّرَهَا بِالْآبَاءِ . مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ . أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمَ مِنْ تُرَابٍ . لِيَدْعَنَّ رِجَالٌ فَخَرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ ، أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا التَّنَّ .

وقال أيضاً: لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ .

والشاهد والدليل على عدم منفعة النسب والأقارب الآية القرآنية التي تقول:

فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (الآية ١٠١، من السورة ٢٣: المؤمنون)، وكذلك هذه الآية القرآنية: لَنْ نَنْفَعَكَ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . (الآية ٣، من السورة ٦٠: الممتحنة).

والعبودية ، أي استعباد واسترقاق الغير ، وأبقى السبب الثالث للاستعباد وهو الحرب ، وهو أن يُسبى الكافر المحارب لله ورسوله والمؤمنين فيصبح رقاً للمسلمين ، وذلك أن العدو المحارب الذي لا هم له إلا أن يفني الإنسانية ويهلك الحرث والنسل ، لا ترتاب الفطرة الإنسانية أدنى ريب في أنه يجب أن لا يعدّ جزءاً من المجتمع الإنساني الذي له التمتع بمزايا الحياة والتنعم بحقوق الاجتماع ، وأنه يجب دفعه بالإفناء فما دونه ؛ وعلى ذلك جرت سنة بني آدم منذ عمروا في الأرض إلى يومنا هذا وعلى ذلك ستجري .

والإسلام لما وضع بُنية مجتمعه على أساس التوحيد وحكومة الدين الإسلامي ألغى جزئية كل مستنكف عن التوحيد إلا مع ذمة أو عهد ، فكان الخارج عن التوحيد وحكومة الدين وعهده خارجاً عن المجتمع الإسلامي لا يُعامل إلا معاملة غير الإنسان، الذي للإنسان أن يحرمه من أيّ نعمة يتمتع بها الإنسان في حياته ، ويدفعه بتطهير الأرض من رجس استكباره وإفساده ، فهو مسلوب الحرمة عن نفسه وعمله ونتائج أيّ سعي من مساعيه ، للجيش الإسلامي الحقّ المسلم أن يأسره ويستعبده عند الغلبة .

٥- مَا هُوَ السَّبِيلُ إِلَى الاسْتِعْبَادِ فِي الْإِسْلَامِ ؟

يتأهب المسلمون على من يلونهم من الكفار فيتمون عليهم الحجة ويدعونهم إلى كلمة الحقّ بالحكمة والموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن .^١

١- وهي الآية ١٢٥ ، من السورة ١٦ : النحل :

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّلْهُمْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

فإن أجابوا فأخوانٌ في الدين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وإن أبوا فإن كانوا أهل الكتاب وقبلوا الجزية (الخراج والماليات الخاصة) تركوا وهم أحرار على ذمتهم ، وإن أخذوا عهداً - سواء كانوا أهل كتاب أم غيرهم - وُفي بعهدهم ، وإن لم يكن شيء من ذلك أُوذِنوا على سواء وقُوتلوا ، يُقتل منهم من شَهَرَ سيفاً ودخل المعركة ، ولا يقتل منهم مَنْ ألقى السلم ، ولا يُقتل منهم المستضعفون من الرجال والنساء والولدان ، ولا يُبَيِّتُونَ ولا يُعْتالُونَ ولا يقطع عنهم الماء ولا يعذبون عند قتلهم - كأن يُقَطَّعُوا إرباً إرباً أو يجزَّحوا ويتركوا ليموتوا أو يشنقوا أو يحرقوا وأمثال ذلك - ولا يمثل بهم في حياتهم أو بعد موتهم كأن تُنتزع أعضاء بدنهم أو تُقطع ؛ فيُقاتلون :

حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ^١.

فإذا غلب المسلمون على الكافرين ووضعت الحرب أوزارها فما تسلط عليه المسلمون من نفوسهم وأموالهم فهو لهم . وقد اشتمل تأريخ حروب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومغازيه على صحائف غر ناصعة طافحة بالسيرة العادلة الجميلة مشحونة بالفتوة والمروءة وبدائع البر والإحسان وطرائف العدل والإنصاف .

٦- مَا هِيَ سِيرَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ ؟

إذا استقرت العبودية على من استقرت عليه صار ملك يمين وصار منافع عمله لغيره ونفقته على مولاه .

١- الآية ١٩٣ ، من السورة ٢ : البقرة : وَقَتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ... إلى آخر الآية .

وقد وصّى الإسلام بمعاملة المولى مع عبده معاملة الواحد من أهله وهو منهم ، فيساويهم في لوازم الحياة وحوائجها ؛ وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُوَاكِلُ عبيده وخدمته ويُجالسهم ولا يؤثر نفسه عليهم في مآكل ولا ملبس ونحوهما ؛ وأن لا يشقّ عليهم في العمل ، ولا يعذبوا ، ولا يستوا ، ولا يُظلموا ، وأُجيز لهم أن يتزوّجوا فيما بينهم بإذن أهلهم ، وأن يتزوّج بهم الأحرار ، الرجال منهم والنساء ، وأن يشاركوهم في الشهادات عند قضاة الإسلام ، ويساهموهم في الأعمال حال الرقّ وبعد الانعتاق .

وقد بلغ من إرفاق شريعة الإسلام المقدّسة بهم أن شاركوا الأحرار في عمارة الأمور ، وقُدِّد جمع منهم الولاية والإمارة وقيادة الجيش على ما يضبطه تأريخ صدر الإسلام ، وكان يوجد بين الصحابة الكبار عدّة من الموالي كَسَلْمَانَ وَبِلَالَ وَغَيْرِهِمَا .

لاحظوا سيرة رسول الله حين أعتق جاريتَه صَفِيَّةَ بِنْتَ حَيِّ بْنِ أَخْطَبٍ وَتَزَوَّجَ بِهَا ، وَتَزَوَّجَ جَوْيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ بَعْدَ وَقْعِهِ بَيْنِ الْمُصْطَلِقِ وَقَدْ كَانَتْ بَيْنَ سَبَايَاهُمْ ، وَكَانُوا مَائْتِي بَيْتَ بِالنِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ ، وَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لَانْعَتَاقِ الْجَمِيعِ ، وَقَدْ مَرَّ إِجْمَالُ الْقِصَّةِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ «تَفْسِيرِ الْمِيزَانِ» .

ومن الأحكام الضرورية في سيرة الإسلام أن يُقَدِّمَ الْعَبْدَ الْمُتَّقِيَ عَلَى الْمَوْلَى الْحَرِّ الْفَاسِقِ ، فَتُقَبَّلَ شَهَادَةُ هَذَا وَتُرَدَّ شَهَادَةُ ذَاكَ ، وَأَنْ يُبِيحَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَتَمَلَّكَ الْمَالُ وَيَتَمَتَّعَ بِعَامَّةِ مَزَايَا الْحَيَاةِ بِإِذْنٍ مِنْ أَهْلِهِ . هَذَا إِجْمَالُ أَحْكَامِ الْعَبِيدِ وَصَنِيعِ الْإِسْلَامِ مَعَهُمْ .

ثم أكد الوصية وندب أجمل الندب إلى تحرير رقابهم وإخراجهم من ظرف الاستعباد إلى جو الحرية ، ولا يزال يقلّ بذلك عددهم ويتبدّل

جمعهم موالي وأحراراً لوجه الله ؛ ولم يقنع بذلك دون أن جعل تحرير الرقبة أحد خصال الكفّارات ، مثل كفارة القتل وكفارة الإفطار ، وأجاز لهم الاشتراط والكتابة والتدبير (أي أن يعتقهم مولاهم مقابل قدر من الخدمة أو أن يجعلوا له شيئاً آخر مقابل تحريرهم ، أو أن يشترطوا على مواليتهم أن يعملوا فيدفعهم إلى مولاهم تدريجياً أو دفعةً قيمتهم أو أقلّ منها من كسبهم مقابل عتقهم ، أو أن يوصي المولى بعنقهم بعد موته فيصيرون حال موت مولاهم أحراراً) ، كلّ ذلك عنايةً بهم وقصداً إلى تخليصهم وإحاقاً لهم بالمجتمع الإنسانيّ الصالح إحقاقاً تاماً يقطع دابر الاستدلال^١.

١- يقول هذا الحقير مؤلف «نور ملكوت القرآن»: لقد قام أحمد أمين المصريّ أواخر عمره بنشر كتاب كان تأليفه سنة ١٩٥٢ ميلاديّة ، تراجع فيه عن التّهم التي وجهها إلى الشيعة في كتبه السابقة «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» ، وذكر فيه مطالب مفيدة إجمالاً ، على أنّ الكتاب لا يخلو نفسه من إشكال ؛ وسماه بـ«يوم الإسلام».

يقول في هذا الكتاب من ص ٢٤ إلى ٢٦ ضمن تأييده للاستعباد في الإسلام ودفاعه عنه ضد التّهم الموجهة إليه:

وخطا الإسلام في الرّق خطوة واسعة ، فهو لم يُجزّه إلا لمن يؤسر في حرب شرعيّة ، أمّا اختطاف الولدان والبنات بشنّ الغارات على القبائل واتّخاذهم عبيداً فعملٌ جاهليّ لم يُجزّه الإسلام . وقد سوى الإسلام بين ذوي الألوان المختلفة سوداً وبيضاً ، فقال الرسول:

لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِأَبْيَضٍ عَلَى أَسْوَدٍ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى أَوْ بِعَمَلٍ صَالِحٍ .

وقرّر للأرقاء الحقوق التي للأحرار ، بل جعل للرقيق مزايا ليست للأحرار ، بإعفاء الأرقاء من نصف العقوبات التي يحكم بها على الأحرار ، وجعل العتق واجباً في كفارة اليمين وكفارة الفطر في رمضان إلى غير ذلك ، وأوجب على المسلمين حُسن معاملة الأرقاء؛ قال صدىّ الله عليه وآله وسلّم : اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ وَاكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ ، وَلَا تَكْلَفُوهُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا يُطِيقُونَ ، فَمَا أَحْبَبْتُمْ أَمْسَكْتُمْ وَمَا كَرِهْتُمْ فَبِيعُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَلَكَكُمْ إِيَّاهُمْ وَلَوْ شَاءَ لَمَلَكَهُمْ إِيَّاكُمْ .

وسأله رجل : كم أعفو عن الخادم ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ، ⇨

٧- محصل البحث في الفصول السابقة :

تحصل ممّا مرّ أمور ثلاث :

الأول : أنّ الإسلام لم يأل جهداً في إلغاء أسباب الاستعباد وتقليلها وتضعيفها حتى وقف على واحدٍ منها لا محيص من اعتباره بحكم الفطرة القاطع ، وهو جواز استعباد كلّ إنسان محارب للدين مضادّ للمجتمع الإنسانيّ غير خاضع للحقّ بوجه من وجوه الخضوع .

الثاني : أنّه استعمل جميع الوسائل الممكنة في إكرام العبيد والإماء وتقريب شؤونهم الحيويّة من حياة أجزاء المجتمع الحرّة ، حتى صاروا كأحدهم وإن لم يصيروا أحدهم ، ولم يبقَ عليهم إلّا حجابٌ واحد رقيق ،

﴿ ثمّ قال: اعْفُ عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً .

وضرب رجلٌ من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عبداً له ، فجعل العبد يقول: أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ ، فلم يُعْفِه ، فسمع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وانطلق إليه ، فلمّا رأى الرجل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أمسك ، فقال له الرسول: سَأَلْتُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ فَلَمْ تَعْفُهُ ، فَلَمَّا رَأَيْتَنِي أَمْسَكْتَ يَدَكَ؟! قال الرجل: فَإِنَّهُ حُرٌّ لَوَجْهِ اللَّهِ ، فقال النبي: لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَسَفَعْتَ وَجْهَكَ النَّارُ .

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: أَرْقَاؤُكُمْ إِخْوَانُكُمْ اسْتَعِينُوهُمْ عَلَى مَا عَلَيْكُمْ وَأَعِينُوهُمْ عَلَى مَا عَلَيْهِمْ .

وقال الإمام الزهريّ: مَتَى قُلْتَ لِلْمَمْلُوكِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ ، فَهُوَ حُرٌّ .

وليس يصحّ قياس هذه الخطوة الواسعة بما فعلت الأمم في هذه الأيام وإنّما يُقاس على ما كان الرقيق عليه قبله في أيّامه .

فقد كان المصريّون القدامى والبابليّون والبراهمة والفرس يتّخذون الرقيق سلعة ويعاملونه معاملة وحشيّة ، واتّخذه اليونان أيضاً وأقرّه كبار فلاسفتهم كأرسطو وأفلاطون ، بل زعم أرسطو أن أرواحهم كأرواح الحيوانات . وتوسّع الرومانيّون في الاسترقاق إلى حدّ بعيد . وكان آباء الكنيسة النصرانيّة يُكاثرون الكونتات في اقتناء الأرقاء . فإذا علمنا هذا ، علمنا الخطوة الواسعة التي خطاها الإسلام في شأن الأرقاء .

وهو أنّ الزائد من أعمالهم على واجب حياتهم حياةً متوسطة لمواليهم لا لهم ، وإن شئت فقل : لا فاصل في الحقيقة بين الحرّ والعبد في الإسلام إلاّ إذن المولى في العبد .

الثالث : أنّه احتال بكلّ حيلة مؤثّرة إلى إلحاق صنف المماليك إلى مجتمع الأحرار بالترغيب والتحريض في موارد ، وبالفرض والإيجاب في أخرى كالكفّارات ، وبالإلناذ والتجويز في مثل أحكام الاشتراط والتدبير والمكاتبّة .

٨- سَيْرُ الْإِسْتِرْقَاقِ فِي التَّارِيخِ :

ذكروا^١ أنّ الاسترقاق ظهر أوّل ما ظهر بالسبي والأسر ، وكانت القبائل قبل ذلك إذا غلبت في حروبها ومقاتلتها وأخذت سبايا قتلتهم عن آخرهم ، ثمّ رأوا أن يتركوهم أحياءً ويتملكوهم كسائر الغنائم الحربيّة ، لا لينتفعوا بأعمالهم بل إحساناً في حقهم واحتراماً للقوانين الأخلاقيّة التي ظهرت فيهم بالترقي في صراط المدنيّة شيئاً فشيئاً .

وإنّما ظهرت هذه السنّة بين القبائل بعدما اختفت فيهم طريقة الارتزاق بالاصطياد ، إذ لم تكن لهم فيها من السعة ما يسوغ لهم الإنفاق على العبيد والإماء ، حتّى انتقلوا إلى معيشة النزول والسكنى في المدن وتمكّنوا من ذلك .

وبشيوخ الاستعباد بين القبائل والأمم على أيّ وتيرة كانت ، فقد تحوّلت حياة الإنسان الاجتماعيّة وظهر فيها اختلافان ، الأوّل : ظهور

١- هذه المقولة مأخوذة من : «دائرة المعارف» قسم المذهب والأخلاق ، تأليف جان هيسينيك ، طبعة بريطانيا ؛ وعن «مجمّل التّاريخ» تأليف هـ. ج ولز ، طبعة بريطانيا ؛ وعن «روح القوانين» تأليف مونتيكيو ، طبعة طهران .

جهات من الانتظام والانضباط في المجتمعات ، والثاني : تقسيم الأعمال فيها . ولم يكن الاسترقاق يوم كان دائراً في جميع أقطار المعمورة على وتيرة واحدة ، فلم يستنّ في بعض المناطق أصلاً ، كأستراليا وآسيا المركزيّة وسيبيريا وأمريكا الشماليّة والأسكيمو وبعض مناطق أفريقيا بشمال النيل وجنوب رامبوز . وعلى العكس فقد كان رائجاً في جزيرة العرب وأفريقيا الوحشيّة وأوروبّا وأمريكا الجنوبيّة ، وكان دائراً بين اليهود ، ونرى في التوراة دعاءً يدعو العبيد إلى طاعة مواليهم ؛ وكذا في النصراني ؛ وفي كتاب بولس إلى فيلمن أنّ أفسيموس كان عبداً شارداً رده بولس إلى سيّده .

وكان اليهود أرفق الناس بعبيدهم ، ومن الشواهد على ذلك أنّا لم نعثر لهم من شواهد الأبنية على ما يشبه الأهرام المعمولة بمصر والأبنية الآشوريّة التاريخيّة ، فإنّها كانت من أعمال العبيد الشاقّة . وكانت الروم واليونان أكثر الأمم تشديداً على العبيد .

وقد ذاع في الروم الشرقي بعد قسطنطين فكرة تحرير العبيد ، حتّى ألغى الرقّ فيها في القرن الثالث عشر الميلاديّ ، وبقي في الروم الغربيّ على شكل آخر ، وهو أنّهم كانوا يبيعون ويشترون المزارع بزارعها - كانت الزراعة من مشاغل العبيد - لكنّ ألغيت بينهم الأعمال الإجابيّة .

وكان الاستعباد شائعاً في معظم ممالك أوروبا إلى سنة ١٧٧٢ ميلاديّة ، وقد انعقدت قبل ذلك بحين معاهدة بين الدولتين إنجليزيا وإسبانيا على أن يجبي الإنجليز إليهم كلّ سنة أربعة آلاف وثمانمائة نسمة من رقيق أفريقيا إلى ثلاثين سنة ليبيعههم منهم قبال مبالغ باهظة تأخذها دولة الإنجليز منهم . وقد ثارت الأفكار العامّة الإنجليزيّة سنة ١٧٦١ م على نظام الرقّ والاستعباد ، وأول الطوائف التي ثارت عليه طائفة لرزان المذهبيّة ؛

ولم يزلوا كذلك حتى وُضعت مادّة قانونيّة سنة ١٧٧٢ م أن كلّ مَنْ دخل أرض بريطانيا فهو حرّ .

وقد ظهر سنة ١٧٨٨ م بعد بحث وتفتيش دقيق أن إنجلترا كانت تبيع كلّ سنة لأمريكا وحدها مائة ألف نسمة من الرقيق تجلبهم إليها من أفريقيا ، وأنّ إنجلترا كانت تبيع سنويّاً مائتي ألف نسمة منهم . وقد استمرّ ذلك حتى ألغي الاستعباد في بريطانيا سنة ١٨٣٣ م ، وأدّت الدولة إلى شركات بيع العبيد والنخاسة مبلغ عشرين مليون ليرة أثمان ما حرّرته من رقيقهم العبيد والإماء ، وحرّرت في هذه الواقعة منهم (٧٧٠٣٨٠) نسمة .

وقد ألغي الاستعباد في أمريكا سنة ١٨٦٢ م ، بعد مجاهدات شديدة تحمّلها أهالي أمريكا ، وكان شمال أمريكا وجنوبها مختلفين في مسألة أخذ الرقيق ، ففي أمريكا الشماليّة كان العبيد والإماء يؤخذون للتجمل فحسب ، أمّا في أمريكا الجنوبيّة فكانت معظم الأشغال فيها في مجال الزراعة والحراثة ، وكانوا في أمس الحاجة إلى كثرة الأيدي العاملة ، فكانوا يأخذون الأرقاء ويستثمرونهم في تلك الأعمال ، لذا فقد كانوا يتحرّجون من قبول التحرير العامّ .

ولم يزل الاستعباد يُلغى في مملكة إثر مملكة حتى انعقد مؤتمر بروسل سنة ١٨٩٠ م على إلغاء سنّة الاستعباد وأمضتها الدول وأُجريت في الممالك ، وألغي مبدأ العبوديّة في الدنيا وانعقدت بذلك الملايين من النفوس - انتهى ما ذكره ملخصاً .

وأنت تجد بنظرك الثاقب أنّ هذ المجاهدات الطويلة والمشاجرات ثمّ ما وضعوه من قوانين الإلغاء وانفذ من الحكم ، كلّ ذلك إنّما كان يدور حول الاسترقاق من طريق ولاية الآباء على الأبناء وعلى النساء ومن طريق

التغلب ، كما يشهد به أنّ جلّ الأرقاء ، أو إن شئت فقل : كلّ الأرقاء كانوا يُجلبون من نواحي أفريقيا التي كان فيها الاستعباد أمراً معهوداً ، وأمّا نظام الاسترقاق من طريق السبي الحربيّ والأسر الذي أنفذه الإسلام ، فلم يكن مورداً للبحث قطّ .

٩- نَظْرَةٌ فِي بِنَاءِ الْحُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ :

هذه الحرّية الفطرية التي نسمّيها بالحرّية الموهوبة للإنسان على أساس شعوره وإدراكاته . وباعتبار اشتراك جميع أفراد البشر في الشعور والإدراكات ، وأنّ إعطاء الحرّية لجميعهم في جميع رغباتهم ومرامهم سيوجب سلب الحقوق وتعارضها مع بعضها ، لذا فإنّ هذه الحرّية ينبغي بلا شك أن تكون محدودةً مقيدةً .

وبيان ذلك أنّ الإنسان يمتلك شعوراً وفهماً وإدراكاً ، كما أنّ غريزة إرادة وطلب ما يلذّه موجودة فيه ؛ وتبعاً لهذه الإرادة فإنّه يختار لنفسه ما يشاء فيسعى لجلب ما فهمه بشعوره وأراده برغبته ، ولإيصاله إلى مرحلة التحقق وإكسابه وجوداً خارجياً .

وأفراد البشر متساوون بأجمعهم في هذا الشعور والإرادة والاختيار ، فلا الفرد القويّ يختصّ بإدراكات وإرادة أقوى ، ولا الفرد الضعيف أضعف فيها ، ولا رابطة هناك بين إرادة الضعيف ، وإرادة القويّ تُجبر إرادة الضعيف على أن لا تتعلّق بما تعلّقت به إرادة القويّ ، أو تفنى في إرادة القويّ فتعود الإرادتان إرادةً واحدةً .

ولأنّ جميع الأفراد - الضعيف منهم والقويّ - شركاء في البنية الإنسانية ، متساوون في حصّتهم منها ، متماثلون في الخلقة والفطرة ، لذا فقد كان هذا الأساس أصل إلغاء حكم العبوديّة وإسقاطه .

لكنّ ما ينبغي ملاحظته والتأمّل فيه هو : هل يمكن العمل بأصل الحرّية المطلق ، وهل هذه الحرّية الموهوبة في المجتمع الإنساني على إطلاقها منذ وُلدت البشريّة ؟

فما يشير إليه التاريخ أنّ النوع الإنساني لم يزل منذ وجد في العالم يعيش في حال الاجتماع ، ولا يسعه بحسب جهازه الوجودي إلاّ ذلك ، لذا فقد وجد دوماً قواعد وقوانين تحدّد الحرّية الفرديّة ، لأنّ الحياة الاجتماعيّة ستجنّز إلى الاضمحلال والفناء ما لم تراعى فيها قوانين وسنن تحدّد هذه الحرّية .

فلن يسع شخصان أن يعيشا في زمان واحد ويجلسا في مكان واحد ويأكلا من طعام واحد ويلبسا لباساً واحداً ، وحرّي أن تتعلّق إرادتهما كلاهما بنفس ذلك الشيء . ومن هذا فقد وضعوا قوانين تحديد الملكيّة وتحديد الزواج وغيرها . وبشكل عامّ ، فإنّ إجراء قانون مجازاة المجرمين بدون هذا المعنى من التحديد أمرٌ خاطئ .

فالمجتمع حين يضع للمجرم قانوناً للمجازاة من قتل وحبس وتعذيب وغيرها لا يمكنه ذلك بدون امتلاك حقّ تحديد حرّية المجرم عملاً ، والمجرم نفسه أيضاً سيُعتبر خارجاً عن هذا المجتمع ما لم يمضِ أمر تحديد حرّيته الأوتليّة حسب تعيين وتشخيص القانون ، وعليه فإنّ قانون مجازاة الجرائم والمجرمين أنفسهم قد ألغوا حرّيتهم المطلقة وحددوها بالحدود المقرّرة .

هذا التقييد والتحديد واضح ومشهود للقدر الذي نجد في قوانا البدنيّة أنّها لا يمكنها الاستمرار في عملها بدون تحديد وتقييد القوى الأخرى . فقوّة الإبصار تفعل فعلها بحرّية حتّى تكلّل لامسة العين أو تتعب القوّة المفكّرة فتقف الباصرة عن فعلها تقيّداً بفعل مزاملها . والذائقة تلتذّ بالتقام

الغذاء اللذيذ وازدراده وبلعه حتى تكلّ عضلات الفك فتقيد الذائقة فتكفّ عن مشتهاها . وإجمالاً ، فإنّه لا تردّد لدى أيّ عاقل أنّ بقاء وإبقاء الحرّية المطلقة في المجتمع ، ولو للحظة واحدة أمرٌ لا يمكن تصوّره ، كما لا يمكن تصوّر السلب الكلّي للحرّية ، فكلّ فرد من أفراد المجتمع يعيش دوماً بين حدّين : حدّ الحرّية المطلقة وحدّ سلب الحرّية المطلقة ، وهو أمر حتميٌّ وضروريٌّ .

وعليه ، فإنّ اسم الحرّية المطلقة التي ملأت وسائل الإعلام الغربيّ أذان العالم بها بالشكل الذي خيّل للناس معه أنّهم هم الذين اخترعوا اسمها ومعناها ، وأنها من لغاتهم هم لا من لغات غيرهم ؛ هذه الحرّية ليست إلاّ تطبيلاً أجوفاً لا محتوى له ، وشعاراً لا واقع له ، واسماً بلا مسمّى . فالاجتماع الفطريّ لا يتمّ للإنسان إلاّ بأن يوجد ببعض حرّيته في العمل واسترساله في التمتع ، فيعيش بين حدّين .

١٠- ما مقدارُ تحديده الحرّية ؟

وأما المقدار الذي تحدّد به الحرّية الموهوبة من قبل المجتمع فهو مختلف باختلاف المجتمعات الإنسانيّة بحسب كثرة القوانين الدائرة المعتبرة وقتها . فإنّ المقيد للحرّية - بعد أصل الاجتماع - إنّما هو القانون المجرى بين الناس ، فكلّما زادت القوانين ودقّت زاد الحرمان من الحرّية والاسترسال ؛ وكلّما نقصت نقص الحرمان من الحرّية المطلقة .

لكنّ الذي لا مناص عنه في أيّ اجتماع لأيّ مجتمع فُرض ، والواجب الذي ليس في وسع الإنسان الاجتماعيّ أن يستهين به ويتساهل في أمره ، شيئان :

حِفْظُ وُجُودِ الإِجْتِمَاعِ وَكَوْنِهِ ، إذ لا حياة للإنسان بدونه .

وَحِفْظُ السُّنَنِ الدَّائِرَةِ وَالْقَوَائِنِ الجَارِيَةِ فِيهِ من النقص والانتقاص .
ولذلك ، لست تجد مجتمعاً من المجتمعات البشرية إلا فيه جهة
دفاعية تذب عن النفوس والذراري وتقيهم من الفناء والهلاك وولي يلي
أمرهم ويحفظ السنّة الجارية والعادات الدائرة المحترمة بينهم من
الانتقاص ، ويسط الأمن الاجتماعي وسياسة المتعدّي الجائر ؛ والموجود
من التأريخ يصدّق ذلك أيضاً .

وعليه ، فإنّ أوّل حقّ مشروع للمجتمع في شريعة الفطرة أن يسلب
الحرّيّة من عدوّ المجتمع في أصل اجتماعه ، وإن شئت فقل : أن يملك من
عدوّه المبيد لحياته المفسد لحرثه ونسله وعمله ويذهب بحرّيّة إرادته بما
يشاء من قتل فما دونه ، وأن يسلب عن عدوّ السنّة والقانون حرّيّة العمل
والاسترسال في النقص ، ويملك منه ما يفقده بالمجازاة من نفس أو مال أو
غيرهما .

وكيف يسع الإنسان - حتّى الإنسان الفرد - أن يدعن بحرّيّة عدوّ
لا لحياء مجتمعه يحترم فيوافيه ويشاركه ويمتزج به ، ولا عن إبادة مجتمعه
وإفناؤه يغمض فيتركهم وشأنهم ؟ وهل الجمع بين العناية الفطرية
بالاجتماع وبين ترك هذا العدوّ وحرّيته في العمل إلا جمعاً بين المتناقضين
صريحاً وسفهاً وجنوناً .

فتبيّن ممّا مرّ أولاً : أنّ البناء على إطلاق حرّيّة الإنسان أمر مخالف
لصريح الحقّ الفطريّ المشروع للإنسان الذي هو من أوّل الحقوق الفطرية
المشروعة .

وثانياً : أنّ حقّ الاستعباد الذي اعتبره الإسلام هو المطابق لشريعة
الفطرة ، وهو أن يستعبد أعداء الدين الحقّ المحاربين للمجتمع الإسلاميّ
فيسلب منهم حرّيّة المجتمع ويُجلبوا إلى داخل المجتمع الإسلاميّ ويُكلّفوا

بأن يعيشوا في زيّ العبودية حتى يتربوا بالتربية الصالحة الدينية، وينعتقوا تدريجياً ويلتحقوا بالمجتمع الحرّ السالم .

ولولي الأمر أن يشترهم ويعتقهم عن آخرهم إن رأى صلاح المجتمع الديني في ذلك، أو يسلك في ذلك طريقاً آخر فلا تنسخ بذلك الأحكام الإلهية .

١١- إلى م آل أمر الإلغاء؟

أجرت معظم الدول العظمى قرار مؤتمرو بروسل ومنعوا بيع الرقيق أشد المنع وانعتقت الإماء والعبيد فلا يصطفون اليوم في دكاك النحاسين ولا يساقون سوق الأغنام، وتبع ذلك أن انتسخ اتخاذ الخصيان، فلا يكاد يوجد اليوم من هؤلاء وأولئك ولو نماذج قليلة، إلا ما ربّما يذكر من أمر الأقوم الهمجية .

ولكن، هل يُقنع هذا المقدار - أي: ارتفاع اسم الاستعباد والاسترقاق من الألسنة وغيبه المسمين بهذا الاسم عن الأنظار - الباحث الناقد في هذه المسألة؟

أو لا يسأل هذا الإنسان هل هذه المسألة هي مسألة لفظية يجزي فيها المنع من أن يذكر الاسم، ويكفي في إجرائها أن يسمّى العبد حرّاً وإن سلب منافع عمله وتبع غيره في إرادته؟ أو أنّ المسألة معنوية يُراعى فيها حال المعنى بحسب حقيقته وآثاره الخارجية؟

فهايتك الحرب العالمية الثانية أمام أعيننا لم يمض عليها إلا بضعة عشرة سنة^١ حملت الدول الفاتحة على عدوها المغلوب التسليم بلا شرط،

١- كان تاريخ كتابة سماحة الأستاذ قدس الله سره لهذه العبارات سنة ١٣٧٧ هـ. ق.

ثم احتلّوا بلادهم ، وأخذوا ملايين من أموالهم ، وتحكّموا على نفوسهم وذراريهم ، ونقلوا الملايين من أسراهم إلى داخل مملكتهم يستعملونهم فيما شاءوا وكيف شاءوا ، والأمر يجري على ذلك حتى اليوم .

فليت شعري ؛ هل للاستعباد مصداق في العالم ليس هذا العمل مصداق له وإن منع من إطلاق لفظ الاستعباد عليه ؟

وهل للاستعباد معنى آخر غير سلب إطلاق الحرّيّة ، وتملّك الإرادة والعمل ، وإنفاذ القويّ المتعزّز حكمه في الضعيف المستذلّ كيف يشاء وأراد عدلاً أو ظلماً ، معنّى لم تُوقِعْه بعدُ هذه الدول الغالبة بمغلوبها !؟

فيا لله العَجَبُ ، كيف يسمّى حكم الإسلام - بنظير الحكم على أصلح وجه يمكن - استعباداً ، ولا يسمّى حكمهم بذلك !؟ في حين أنّ الإسلام يأخذ فيه بأسهل الوجوه وأخفّها ، وهم يأخذون بأشقّها وأعنفها !؟

ولقد رأينا بأعيننا محبّتهم وصدّقتهم حينما احتلّوا بلادنا تحت عنوان المحبّة والحماية والوقاية ، فكيف حال من استعلوا عليه بالعداوة والنكاية !؟

ومن هنا يظهر أنّ قرار الإلغاء لم يكن إلاّ لعبةً سياسيّة ، ولا يمثّل في الحقيقة إلاّ أخذاً للعبيد في صورة المنع والردّ .

أمّا الاستعباد عن حرب وغلبة وسيطرة ، فقد أنفذه الإسلام وأنفذه عملاً ، وإن منعوا من التلقّظ باسمه لساناً .

وأمّا الاستعباد عن طريق بيع الآباء أبناءهم الذي منعه ، فقد كان الإسلام منعه من قبل .

وأمّا الاستعباد عن طريق الغلبة والسيطرة الحكميّة ، فقد منعه الإسلام من قبل ، وأمّا هؤلاء فقد أجمعوا على منعه . ولكن ، هل توقّف المنع في مرحلة اللفظ كنظيره ، أم تعدّاه إلى مرحلة المعنى وواقفه العمل ؟

يمكنك أن تستخرج الجواب لهذا السؤال بإمرار النظر في تاريخ الاستعمارات الأوروپية في آسيا وأفريقيا ، وفي الاستعمارات الأمريكية ، وفي الفجائع التي ارتكبوها ، والدماء والأعراض والأموال التي أهرقوها واستباحوها ونهبوها ، والتحكّمات والضغط التي أتوا بها والتي فاق عددها الآحاد والمئات والألوف .

ولا تذهب بعيداً فقد يجزيك أن تتأمّل أخبار ما قاساه أهل الجزائر من فرنسا طيلة سنين متمادية من إبادة النفوس وتخريب البلاد والتشديد على أهلها ، وما تلقاه الممالك العربية من الإنجليز ، وما يتحمّله السود والحرر في أمريكا وما قاسته أوروبا الشرقية من الجمهوريات الاشتراكية الروسية والسوفييتية ، وما نكابه نحن من أيدي هؤلاء وأولئك ، كلّ ذلك في لفظه نصح وإشفاق ، وفي معناه الاستعباد والاسترقاق .^١

١- كتب أحمد أمين المصري في كتاب «يوم الإسلام» ص ١١٩ إلى ١٢٢ يقول:
وهكذا كان في كلّ عصر ومصر مصلح ينبّه الوعي القومي ويحضّ على الثورة الإصلاح. ولما أحست الدول الأوروپية بكرهة المسلمين ظنّتهم أطفالاً فرفعت كلمة الاستعمار ووضعت موضعها كلمة الانتداب ، ظناً منها أنّ المسألة مسألة ألفاظ ، ولكن لم يكن المسلمون مغفّلين إلى هذه الدرجة . فلما قامت الحرب العالمية وانتهت كان قادة الأوروپيين والأمريكيين قد نادوا في أيام الشدّة بمبادئ العدالة والحرية وأحقية الشعوب المستضعفة في حكم نفسها بنفسها ، فلما أرادت أن تتراجع بعد انتهاء الحرب شبّت الثورات في مصر وسورية والعراق وغيرها ضدّ الاستعمار تريد الاستقلال ، ففاز بعضها ، ولم يفز بعضها.

ولا تزال القلوب منطوية على ضغن ، وفكرة الحروب الصليبية تعمل عملها إلى اليوم. الحقّ أن موقف الأوروپيين المسيحيين عجيب ، فهم إذا علموا أنّ شعباً نصرانياً عذّب أو أهين ثارت ثورتهم ، أمّا إذا علموا أنّ المسلمين عذّبوا وأهينوا لم تتحرّك شعرة فيهم ، خذ مثلاً هذا الذي كان بين الأرمن والمسلمين ، فقد تعدّى الأرمن على المسلمين وعذّبوهم وقتلوههم ،

وظهر ممّا بيّنا أنّهم أخذوا في مرحلة العمل بما شرعه الإسلام من

فلم يتحرك الأوروبيين لنصرتهم ، وتعدّى المسلمون على الأرمن وعدّبوهم وقتلواهم فثارت ثورة الأوروبيين.

ثمّ يستمرّ أحمد أمين في هذا الموضوع حتّى يقول : وما لنا نذهب بعيداً وقد سمعنا في الأيام الأخيرة عن القتال في فلسطين بين اليهود والمسلمين أنّه إذا انتصر المسلمون نادوا بوقف القتال ، وإذا انتصر اليهود سكتوا . ويفعل النصارى الأفاعيل في المسلمين ، فلا يُقال إنّهم متعصّبون ، ويفعل المسلمون جزءاً صغيراً ممّا فعله الأوروبيون فيرمون بالمتعصّب المقيت .

والخلاصة ، إنّ فكرة الحروب الصليبيّة متغلغلة في نفوسهم ، فإن خفيت في عقولهم فهي كامنة في وعيهم الباطن لا يصدرون إلّا عنها ، ولا يغفرون أبداً للمسلمين أنّهم انتصروا عليهم يوماً ما ، كما لا يغفرون أيضاً لهم نجاحهم في إدخال الناس في دينهم حتّى من غير تبشير ، وعجزهم هم حتّى مع التبشير .

وقد اجتمعت مرّةً جمعيّة الرابطة الشريفة وأرادت إرسال بعثة طبيّة إلى جدّة لمساعدة جرحى الحجاز في القتال بين الشريف حسين بن علي وابن سعود ، فوافقت على ذلك ، لأنّها كانت تناصر الحسين بن علي ، فلما أرادت إرسال بعثة طبيّة أخرى لمساعدة الريفيين في مراكش أبت عليها ، ذلك لأنّ المسلمين في نفس الحرب يحاربون الفرنسيين المسيحيين . والأمثلة على ذلك لا تُحصى . فمن الغفلة أن نقول إنّ الحرب اليوم حرب سياسيّة لادينيّة ، لأنّ المظاهر كلّها تدلّ على ما نقول . وإنّ النصرانيّة وعداءها للإسلام كامنة في نفوسهم لم يُزلها أيّ عامل . غاية الأمر أنّها تحت ستار .

وأوضح مثل لذلك أنّهم عابوا على ملك إسبانيا قوله المتقدّم ، لأنّهم يريدون أن يعملوا من غير أن يقولوا ، ويستتروا من غير أن يظهروا ، وإنّما هي فلتات ومقارنات تدلّ على مناهمهم . فليتعظ المسلمون . وإنّ ما يشيعونه من عدل وإخاء ومساواة ليس إلّا ما بينهم . أمّا الأجناس المسلمة فليس واجباً عليهم فيهم عدل ولا إخاء ولا مساواة . والحوادث ترينا أنّ المسلمين أكثر تسامحاً وأقلّ تعصّباً ، فإذا تعصّبوا فمقابله للتعصّب بالتعصّب . هذا تاريخ صلاح الدين مع الصليبيّة : أيّهم أكثر تسامحاً وأقلّ تعصّباً ؟ وهذا الشريف الحسين بن علي ، كان يقول القول ويحتفظ به ، وكان الإنجليز يقولون القول في الظاهر ويعملون ضده في الخفاء .

إباحة سلب إطلاق الحرّيّة عند وجود سببها الفطريّ المتمثّل في حرب من يريد هدم المجتمع وإهلاك الإنسانّيّة ، وهو حكم مشروع في شريعة الفطرة ، له أصل واقعيّ لا يتغيّر ، وهو حاجة الإنسانّيّة في بقائها إلى دفع ما يطاردها وجوداً ويناقضها بقاءً .

وهو بغضّ النظر عن ذلك في المرتبة الثانية أصل اجتماعيّ عقلائيّ لا يترتّب عليه وجوب حفظ المجتمع الإنسانيّ عن الانعدام والانهدام . فهذا هو الذي راموه في عملهم وأخذوه معنًى وأنكروه اسماً ، غير أنّهم تعدّوا هذا القسم المشروع إلى غيره غير المشروع وهو الاستعباد بسبب الغلبة والسلطة .

فهم لا يزالون قبل مسألة الإلغاء وبعدها يستعبدون الألوّف والملايين من النفوس تحت نوع من الاسترقاق ، فيبيعون ويشترون ويهبون ويُعيرون ، إلّا أنّهم لا يسمّون ذلك استعباداً ، وإنّما يدعونه استعماراً أو استملاكاً أو قيمومة أو حماية أو عناية أو إعانة أو غير ذلك من الألفاظ التي لا يُراد بشيء منها إلّا أن يكون ساتراً على معنى الاستعباد ، وكلّما خلق أو خرق شيء من هذه الألفاظ رُمي به وجيء بأخر جديد .

ويتّضح ممّا بيّنا في هذا البحث أنّه لم يبق ممّا نسّخه قرار مؤتمر بروسل ولا يزال يقرع به أسماع الدنيا وأهلها وتبأهى به الدول المتمدّنة التي تدعو نفسها من رواد المدنيّة الراقية ، وأنّ راية الحرّيّة الإنسانّيّة بأيديهم ، لم يبقّ منه إلّا إلغاء الاستعباد من طريق بيع الأبناء والبنات والإخصاء من قبل آبائهم ، ولا فائدة هامة فيه تعود إليهم ، مع كونه أشبه بالمسألة الفرديّة منه بالمسألة الاجتماعيّة ، ونسخه مع ذلك حجّة لفظيّة إعلاميّة بأيديهم كسائر حججهم التي لا تعدو مقام اللفظ ولا تصل مرحلة التحقّق والتنفيذ .

نعم ، يبقى هناك محلّ بحث آخر ، وهو أنّ الإسلام يبدأ في غنائه الحربيّة من رقيق أو مال - غير الحاصل من الأراضي المفتوحة عنوةً - أولاً بالأفراد من مجتمعه فيقسّمها بينهم ، ثمّ ينتهي إلى الدولة ، على ما سير به في صدر الإسلام ، وهؤلاء يحفظون الاستفادة من الغنائم الحربيّة حقّاً موقوفاً على الدولة .

وهذه مسألة أخرى غير مسألة أصل الاسترقاق ، لعننا نوقّق لاستقصاء البحث عنها فيما يأتي إن شاء الله من الكلام في آيات الزكاة والخمس^١ .

وكانت نتيجة البحث المفصّل للأستاذ هي : أنّ مؤتمر بروسل ألغى اثنين من الموارد الثلاثة للاستعباد والتي كان قد ألغاهها الإسلام وأبطل أساسها :

أ - الاستعباد عن طريق ولاية الآباء في بيع أبنائهم .

ب - الاستعباد عن طريق الغلبة والسيطرة على نفوس الناس باستخدام القوة .

وهذا القسم الثاني ألغاه مؤتمر بروسل لفظاً ، لكنّ معظم الدول في أوروبا وأمريكا والاتّحاد السوفييتي ، سواء قبل حكم الإلغاء أو بعده كانت ولا زالت تستعبد بألفاظ وذرائع أخرى الملايين من أفراد الإنسانيّة وتأسرهم وتجعلهم عبيداً أرقاء لها .

ج - أمّا المورد الثالث وهو الاستعباد عن طريق السيطرة على العدوّ المحارب ، فقد أمضاه الإسلام وأقرّه كما أمضوه وأقرّوه ، غاية الأمر أنّ الإسلام سمّاه صراحةً بالعبد ، ثمّ بذل المساعي الجميلة بمنتهى العطف

١ - «الميزان في تفسير القرآن» ج ٦ ، ص ٣٥٨ إلى ٣٧٥ .

والمحبة لإرشاده وترقيته وتعليمه وتربيته تربيةً صحيحةً وصولاً إلى تحريره بالإسلام وتربيته تحت إشراف وحكومة الإسلام، في حين أنهم نافقوا فلم يُطلقوا عليه ظاهراً اسم العبد، لكنهم استخدموه واستعبدوه إجباراً بكل ما لكلمة الاستعباد من معنى، وبأقسى صورته وأبشعها، وأبقوه بالعنف والخشونة رازحاً تحت وطأة الأعمال الثقيلة التي ينوء بها كاهله.

إِنَّ حُكْمَ الْإِسْلَامِ بِضُرُورَةِ الْاِسْتِعْبَادِ فِي ظُرُوفِ الْحَرْبِ لَيْسَ قَابِلًا لِلنَّسْخِ ، وهو أمر باقٍ فعلاً ، غاية الأمر أنّ هذا الحكم ينبغي تحقيقه في مرحلة الجهاد مع الكفار ، فلو تحقق الجهاد ووقع أحد الكفار المحاربين أسيراً ، لانطبق عليه حكم العبيد والأرقاء ، ولتربوا تحت نفوذ الإسلام وسيطرته حتى ينالوا كمالهم .

ويعدّ هذا الأمر من الخدمات المهمة التي أسداها الإسلام إلى البشرية ، والتي كان حاضراً للمجاهدة والحرب من أجل هدايتها إلى عالم التوحيد وقبول الدين الحقّ والمشاركة في المائدة السماوية والارتواء من شراب الجنة ؛ فهو يدعو المحرومين للجلوس على هذه المائدة الوسيعة ، ويجزّهم - عند امتناعهم - إليها بالحبال والسلاسل ، ثم يتلو عليهم آيات القرآن ، ويهتف بأسماعهم بنداء الله الأكبر ، ثم يمتّعهم تحت ظلّه وفي حضوره بحياة سليمة وعيش هنيء صحيح دنيوي وأخلاق وصفات حميدة أُخرويّة .

الجهاد في سبيل الله من أعظم الفرائض الإسلاميّة ، الجهاد إحياءً للنفوس ، الجهاد هو الركن الأساس للحياة الدنيوية وركن الإيمان .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

مَنْ فَصَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَاتَ أَوْ قُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ ، أَوْ وَقَصَهُ فَرَسُهُ ، أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَغَتْهُ هَامَةٌ أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ [أَوْ] بِأَيِّ حَنْفٍ شَاءَ اللَّهُ فَإِنَّهُ

شَهِيدٌ . وَإِنَّ لَهُ الْجَنَّةَ ١ .

وقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم أيضاً :
مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ
نِفَاقٍ ٢ .

وهناك في القرآن الكريم ؛ كما في الروايات الواردة عن رسول الله ،
آياتٌ دالةٌ على وجوب الجهاد ، ومن جملتها :

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ
يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي
الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَاصِرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ
وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٣ .

ويتضح جيداً من هذه الآيات وجوب كلٍّ من الإيمان والهجرة
والجهاد في سبيل الله ؛ وعليه فيجب :

أولاً : على جميع المؤمنين في الدنيا ، الذين يعيشون في بلاد الكفر

١- «سنن أبي داود» تعليق محمّد محيي الدين عبد الحميد ، ج ٣ ، ص ٩ ، كتاب

الجهاد .

٢- «سنن أبي داود» ج ٣ ، ص ١٠ ، كتاب الجهاد ؛ ووردت هذه الرواية في «المعجم
المفهرس لألفاظ الحديث النبوي» ج ٤ ، ص ٤٨٧ ، منقولة عن «صحيح مسلم» كتاب الإمارة ،
ص ١٥٨ ؛ و«سنن النسائي» كتاب الجهاد ، ص ٢ ؛ و«سنن الدارمي» كتاب الجهاد ، ص ٢٥
(المترجم) ؛ وعن «مسند أحمد بن حنبل» ج ٢ ، ص ٣٧٤ ؛ مضافاً إلى «سنن أبي داود» .

٣- الآيات ٧٢ إلى ٧٤ ، من السورة ٨ : الأنفال .

وفي الدول غير الإسلامية - سواء كانوا من أتباعها وأهلها وكانت لغتهم الأصلية لغة تلك البلدان وكانوا يتوطنونها أباً عن جدّ، أم كانوا مقيمين هناك وسبق أن ذهبوا إليها من ممالك أخرى فصارت محلّ إقامتهم المؤقتة أو الدائمة - أن يهاجروا إلى بلد الإسلام وأن يعيشوا تحت ظلّ الإسلام .

هذا وقد تحقّق هذا الأمر بحمد الله في دولة إيران وتحزّرت حكومتها ظاهراً وباطناً من تبعيّة الدول الكافرة الخارجيّة ، وهو أمر له أهمّيّته العظمى ويستحقّ الملاحظة .

نعم ، لو ارتأت الدولة الإسلاميّة لمصالح تراها ، أن ترسل أفراداً للدرس والتحصيل أو التجارة أو السفارة إلى تلك الدول ، فإن كان ذلك بإمضاء وإقرار الحاكم الشرعيّ وصاحب مقام الولاية وتحت إشرافه ، كما كان في الأمر إشكال . وعلى أولئك السادة مراعاة نظر الحاكم في خصوص محيط سكناهم ومدّة إقامتهم وكيفيّتها .

وثانياً : أمّا أولئك الذين لم يهاجروا ولم يرجعوا إلى هذه الدولة وفضّلوا البقاء هناك ، فإنّ رابطة الولاء بينهم وبين المؤمنين في هذه الدولة ستنتقطع ، ولن يكون لهم مطلقاً حقّ المشاركة في أمور ولاية الناس من خلال تسلّم زمام ولايتهم ، كأن يُعيّن أحدهم الحاكم المطلق ، أو رئيس الجمهورية ، بل ليس من حقّهم إشغال سائر المناصب والوظائف الحكوميّة التي يشملها عنوان الولاية والإشراف والسلطة .

كما يجب على المسلمين الذين يعيشون في الدولة الإسلاميّة ولكنّهم من أتباع دولة أجنبيّة كافرة أن يخرجوا من تبعيّة تلك الدولة ويصبحوا من أتباع دولة إيران الإسلاميّة ، وليس لهم - ما لم يخرجوا من تبعيّة تلك - التصدي لعهدة ولاية الفقيه أو إشغال منصب رئاسة الجمهوريّة ، أو أن يصبحوا من الأعضاء المنتخبين للمجلس ، أو إشغال منصب رئاسة الوزراء

وسائر الوزارات وحقبة المدير العام، وبشكل عام، كلما يتعلق بالرئاسة وولاية أمور المسلمين ماداموا لم يخرجوا من تبعيتهم تلك .

ويجب على الحكومة الإسلامية؛ وصولاً إلى بسط الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أرجاء الدنيا حسب إمكاناتها؛ إعلان الجهاد وإرسال المسلمين لإرشاد وهداية الكفار للانضمام إلى بيضة الإسلام :

وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَكَّنَّهْم فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَقِبَةُ الْأُمُورِ .^١

والمراد من التَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ هو حكومة الإسلام، والاستقلال، والخروج من رِبْقَةِ الْعُبُودِيَّةِ لِلْكَفَّارِ، والتمكّن من تطبيق وإقامة الأحكام الإلهية .

وعليه، فإنّ هذه الآية تبيّن بوضوح أنّ وظيفة الحكومة الإسلامية لا تنحصر - كما هو الأمر في سائر الحكومات - في حفظ الأمن الداخلي، وحفظ حدود المملكة، وتأمين الرفاه المادّي للدولة والشعب، والاهتمام بالأُمور الاقتصادية، ورعاية أموال الناس وثرواتهم، وإيجاد التسهيلات في مجال الأُمور الطّبيّة والصّحيّة، أو في تحصيل العلوم الفنيّة والصناعات، والعلوم التجريبيّة والطّبيعيّة والأدبيات والتاريخ، بل إنّ واجبها الأوّل كحكومة إسلامية إقامة الصلاة في أرجاء البلاد، وجمع الزكاة، والأمر بالمعروف وترويح الأُمور اللائقة والمحاسن التي يعتبرها الله ورسوله معروفاً وحُسنًا والترغيب فيها، ومنع المنكرات والقبايح التي يعدها الله

١- الأيتان ٤٠ و٤١، من السورة ٢٢: الحجّ .

ورسوله منكرًا .

وفي المرتبة الثانية وبعد التمكن من بسط المعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فإنّ عليها إعلان الجهاد لتطهير الأرض من لوث الشرك والزندقة والكفر ، وإنارتها بنور الإسلام .

حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ .^١

هذه الآيات القرآنية الحيّة والباعثة للحياة والأمل ، التي ترتعد لسماعها فرائض الاستعمار فيقوم بجميع قواه بمحاربة الإسلام ، والتستّر باسم الحرّيّة للقضاء على كلّ شيء يقف أمامه وصلاً إلى الانتفاع بأتعاب المسلمين ومصادرة جهودهم ، وإلى الاستعباد الجمعيّ لهم بعشرات الملايين بل مئات الملايين ، فالمسلمون لا يمتلكون حلاًّ إلاّ العودة للقرآن ، فلا ينبغي لهم أن يجعلوا قراءته مقصورة على شهر رمضان ، وعليهم أن يجعلوا درس القرآن وتفسيره ضمن البرامج الدراسيّة الضروريّة ، بل من أهمّها وألزمها ، كما فعل سكّان الجزائر بعودتهم إلى القرآن والدرس والبحث والعمل به ، فوقفوا أمام دولة فرنسا الجائرة المتعطّشة للدماء التي فرضت عليهم لمائتي سنة الرقّ والأسر والاستعباد على نحوٍ أسوأ من استعباد الحيوانات ، ونهبت نساءهم وأولادهم وأموالهم وتجاوزت على شخصيّتهم وثوراتهم الطبيعيّة وجميع كيانهم ووجودهم ، حيث استطاع المسلمون بعد مقاومة بطولية دامت سنين عديدة ، وجهادٍ مُضنٍّ مليونيّ ، تحمّل لأشدّ المحن والآلام والمصائب أن ينجوا في شرف العمل بالقرآن من مخالاب عدوّهم المسمومة .

ولقد اعتبرت فرنسا مسلمي الجزائر ملكاً مطلقاً لها ، وعدتّ أرض

١- الآية ٤٨ ، من السورة ٩ : التوبة .

الجزائر جزءاً من ترابها ، واعتبرت مسألة خروجها من الجزائر في عداد المستحيلات ، وساندتها الدول الحليفة لها ، فلم يُصغِ أحد لآهات الضحايا الحرّى وأنيهم المصدّع للأفئدة ، ولقد أحرق أولئك الفرنسيون القرآن ، وهدموا المحراب ، وقوضوا الإيمان على رؤوس شعب الجزائر ، لكنّ هذا الشعب المقاتل في سبيل الحقّ قد تمكّن من تحرير نفسه من خلال مواظبته على الجهاد تبعاً لهداية آيات القرآن بشكلٍ صار معه عبرةً للآخرين وقدوةً لهم .

كتب أحد المعاصرين المطلعين :

لقد بدأت طلائع اليقظة والنهضة التحرّرية ضدّ الاستعمار في شمال أفريقيا يوم جاء محمّد عبده ؛ وهو من أتباع نهج السيّد جمال الدين الأسدآبادي الذي كان شعاره عودة جميع المسلمين للقرآن ؛ فجمع العلماء المسلمين ودعاهم للاتّجاه إلى القرآن بدل الغرق في العلوم غير النافعة ، وفي التدقيق الإفراطيّ الذهنيّ في التفاصيل والجزئيات بلا جدوى ...^١
... ومنذ ذلك الوقت ، فقد بدأ القرآن يستعيد دوره في المجتمع من جديد ، فيدرّس في حوزات الدرس ، وراج الاهتمام بتحقيق وتفسير

١- كتب أحمد أمين المصريّ في كتاب «يوم الإسلام» ص ١٢٧ و ١٢٨ ، يقول : ومن أهمّ أسباب ضعف المسلمين بُخلهم عن التضحية ، وهم يريدون النصر من غير إنفاق ، ويعزّ عليهم الإنفاق لأنهم يتسوا من النصر أمام العدو القاهر ، وشحّوا بالمال في أن يُبدل في هذا السبيل ، وإذا كانوا أشحّاء بالمال فهم بنفوسهم أشحّ .

وفي الحديث يُوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، قال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : بل أنتم يومئذ كثيرٌ ولكنكم كغناء السبيل ، ولينز عن الله من صدور عدوكم المهابة منكم . وليقذفن في قلوبكم الوهن . قال : يا رسول الله ! وما الوهن ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : حبُّ الدنيا وكراهية الموت .

القرآن بين علماء الدين ، وبمسائل الإسلام في جلسات المثقفين والمجاهدين ، وانتشر تعليم القرآن حتى في حلقات الدرس في الأرياف بصورة برنامج حيويّ وأساسيّ هامّ، وكان من نتائج ذلك أن ...
ويكتب أيضاً : لقد بسط الجنرال أرغو والجنرال سالان سلطة الاستعمار الفرنسيّ المعادي للإنسانية على جميع الجزائر ومراكش وموريتانيا ، فأذلاً به تلك البلاد ، ونهباً ثروتها وعزّتها وثقافتها ، وكان الجنرال سوستيل يخرج مع ابنه إلى غابات طلّمسن لاصطياد العرب ، من أجل تعليم ابنه الصيد وإطلاق النار ، فيكتب لزوجته في باريس : ... كلنا بخير ، أنا بخير ، وكلبي بخير ، وتابعي العربيّ بخير ... لكنّ القرآن الذي عاد من شرفه التقديس إلى مسند التعليم والفكر قد علّمهم أنّ طريق الفلاح في الآخرة هو الاستقامة في الدنيا ، وأنّ الإسلام هو الطريق المؤدّي إلى الجنّة ...

وهذه العلوم جميعها علّمها القرآن للناس فأيقظهم ... وقد دام ذلك حتى استطاع بواسطته جمعُ من المثقفين المتعصّبين الجامدين العودة إلى الإسلام والنجاة من التقليد الأعمى للغرب والتأثر به ، وعاد إلى الإسلام حتى عمر أوزغان المفكّر الماركسيّ المشهور والأمين السابق للحزب الشيوعيّ ، الذي جاء طوع إرادته في أفريقيا فالتحق بركب الإسلام ، وكتب أثره الكبير : « Lemeilleur Combat » (= أفضل الجهاد) ، الذي اقتبسه من بداية الحديث المشهور للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم :

أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ .

ويكتب رجلٌ مثل هنريّ ألغ رئيس تحرير «جريدة الجمهورية الجزائرية» الناطقة بلسان الحزب الشيوعيّ الجزائريّ ، وكان فرنسيّ الأصل انتمى إلى صفوف مجاهدي الإسلام على رغم تعاليم الحزب ، يكتب في

السجن أن :

أكتبُ في حال يُرثى لها من التعذيب المهول الذي لاقيته ... إنهم هنا يقذفون كل ساعة مجاهداً من غرف أحد الطوابق إلى ساحة السجن ، وأشاهد بأم عيني أنهم ، مع التعذيب الفظيع الطويل الذي تبدو آثاره عليهم ، كانوا يتمتعون ، بأفواهٍ داميةٍ محطّمة ، بكلماتٍ غير مفهومة من دعاءٍ مشهور^١.

ولم أكن لأعي معنى هذه الكلمات التي يلفظونها ، لكنّ ما أعرفه أنّ الشيء الوحيد الذي أعتقد به الآن من بين جميع المذاهب والإيديولوجيات العالميّة هي تلك الكلمات غير المفهومة ...

وهذا هو عين ما قاله الجنرال سوستيل ، الذي كان كالذئب الوحشيّ للاستعمار الفرنسيّ في أفريقيا ، فقد قال :

ليس القرآن كتاباً مذهبيّاً ودينيّاً ، بل كتاب ضدّ الدين والمذهب ، فهو بدلاً من الدعوة للتقوى والعبادة والصلح والعفو والتفكير في الله والموت والروح وأسرار ما وراء الطبيعة وفلسفة الحياة والمصير النهائيّ للإنسان ، فهو يدعو العرب إلى الحرب والنصر والانتقام والتمرد والسيطرة على العالم وأخذ الغنائم و ...

وليس من كتابٍ كالقرآن بإمكانه تحريك الفئات الفقيرة التلسة وتحريضهم على الشغب ، والتأثير بكلماته السحريّة والموسيقىّة المهيّجة على العقد والخصومات وإثارة مشاعر الغرور والحقد والغليان السياسيّ ... انتهى نقل هذه المقولة .

١- من الواضح أنهم كانوا يتمتعون بالشهادتين ، لكنّ أقوالهم لم تكن مفهومة له باعتباره فرنسيّاً .

يقول كندي - الرئيس الأمريكي السابق - في خطابه المفصل في مجلس الشيوخ بتاريخ ٢ تموز ١٩٥٧ م ، ضمن هجومه على فرنسا بشأن سياستها في الجزائر :

إنّ التعرّف على الشخصية الوطنية تبدأ عادة بشرارة لا يمكن لأمطار القمع إخمادها ، خاصّة إذا حدث هذا الحريق في منطقة تتمتع جميعها بميراث الإسلام وتعاليمه .

وكان كندي كذلك يُبدي أسفه في أحد خطبه من السياسة الخارجية لأمريكا في دعمها للحكومات التي تنفر منها شعوبها وتكرهها ، فيقول :
بدلاً من قيامنا بإسناد الشعوب والوقوف إلى جانبها ، فقد دعمنا الأنظمة ، ولعلنا قد ربطنا بهذا العمل مستقبلنا مع مصير الدول والحكّام الذين لا شعبيّة لهم والمعرّضين للسقوط في كلّ لحظة ...

ولقد كانت الأشلاء والأوصال المتناثرة لنوري السعيد رئيس الوزراء العراقيّ الأسبق - الذي عُلق على أحد أعمدة الكهرباء في تموز سنة ١٩٥٨ م في بغداد - مظهر المحنة التي أصابت سياستنا في العراق^١ .
وينبغي العلم أنّ سبب ضعف المسلمين وسيطرة الكفّار عليهم يُعزى لعاملين ، وقد أدى ترك العمل بالقرآن إلى إلحاق هذين العاملين الهزيمة الظاهريّة بالمسلمين :

العامل الأوّل : تسابق الأوروبيين في السيطرة على بلاد العالم بعد حركة كريستوف كولومبوس واكتشاف قارة أمريكا التي أدّت إلى توسّلهم

١- نقلاً عن كتاب «استراتژی صلح» (= استراتيجيّة السلام) أورده عنه مترجم كتاب «قانون اساسی در اسلام» (= القانون الأساسي في الإسلام) تأليف أبي الأعلى المودودي ، ترجمة السيّد محمد علي گرامي ، في مقدّمة الكتاب المذكور ، ص ٢١ و ٢٢ .

بالقوة البحرية لشنّ الحروب الدموية ضدّ المسلمين وبسط سيطرتهم ونفوذهم عليهم .

فقد تحرّك كريستوف كولومبوس في مجموعة من غرب إسبانيا المطلة على المحيط في طريقهم إلى الهند لاكتشاف طريقٍ جديد وقريب لإسبانيا يمرّ خلال البحار والمحيطات ، لكنّهم لم يصلوا إلى الهند ، بل اكتشفوا الساحل الشرقيّ لأمريكا الجنوبيّة ، ثمّ فتحوا أمريكا الجنوبيّة بمساعدة دولة إسبانيا ، ثمّ وصلوا بعد ذلك عن طريق جنوب أمريكا الجنوبيّة إلى السواحل الغربيّة لأمريكا واتّجهوا إلى غرب المحيط الكبير فوصلوا إلى جزائر جنوب شرقي آسيا التي تدعى إندونيسيا ، وفازوا بامتيازات هامة ، ثمّ واصلوا الطريق لفتح الهند .

وقد عمل الإسبان والبرتغاليون بعد اكتشاف أمريكا على السكنى في الساحل الغربيّ لأمريكا المركزيّة والجنوبيّة وجزر أنتيل وفي بعض المناطق الداخليّة . لتلك النواحي ، فأبعدوا تدريجياً سكّانها الأصليين واتّخذوا منازل أولئك ومساكنهم البدائيّة مستعمرةً لهم .

وقد طبق البرتغاليون عين هذا الأسلوب في بعض جزر الخليج الفارسيّ وسواحل الهند وجزر الهند الشرقيّة ، فقد سيطروا في الساحل الجنوبيّ لإيران على منطقة تدعى اليوم بندر عباس ، وأسّسوا بندر البرتغال (بورتوكيش) ، ثمّ بسطوا نفوذهم وحكمهم من خلال هذا الميناء على جميع سواحل الخليج الفارسيّ ، حتّى أعدّ شاه عباس الكبير في زمن الدولة الصفويّة بتحريك من الإنجليز جيشاً مجهّزاً واستعاد هذه المنطقة التي اشتهرت بعد ذلك باسم بندر عباس ، والتي تمكّن الإنجليز عن طريقها من التوجّه بعد هذه الفتوحات إلى القارّة الجنوبيّة لخطّ الاستواء ، باسطين حكمهم على الجزر والنقاط الهامة الاستراتيجية التي في طريقهم ، فصاروا

أصحاب الأمر والنهي على إمارات الخليج وحكموا الكويت ، قطر ، البحرين ، دُبي وعمان .

وقد تابع الهولنديون البرتغاليين في مجال السفر البحري والسيطرة على المستعمرات ، فقاموا بإخضاع أفريقيا الجنوبية وأستراليا وجزر جاوة وسومطرة .

ثم وصلت النوبة هذه المرّة بعد الإسبان والبرتغاليين إلى الإنجليز والفرنسيين ، فقام الفرنسيون في البداية بضمّ القسم الأعظم من الهند وأمريكا الشماليّة إليهم وجعلوها مستعمرة لهم ، وقد ظهرت بينهم وبين الإنجليز منافسة شديدة ، لأنّ الإنجليز كانوا يطمعون هم أيضاً في السيطرة على هذه المناطق ، وانجرت المنافسة إلى حرب تفوّق فيها الإنجليز فأخرجوا معظم القوّات الفرنسيّة من الهند وكندا واستقرت قوّاتهم في هاتين المنطقتين الغنيتين بالذهب .

وقد فقدت المستعمرات الإنجليزيّة في القرن الثامن عشر سعتها وامتدادها بسبب قيام مجموعة من المهاجرين الإنجليز الذين استوطنوا في السواحل الشرقيّة لأمريكا الشماليّة بالتمرد ، فقد أعلن هؤلاء استقلالهم وانفصلوا عن دولة الإنجليز وشكّلوا دولة كانت النواة لنشوء الولايات المتّحدة الحاليّة في أمريكا الشماليّة ، وفي الحقيقة فإنّ أمريكا الشماليّة لم تكن إلّا قسماً وكياناً انتقل من أوروبا إلى هناك .

ثمّ ظهرت حالات انفصاليّة واستقلاليّة مشابهة في نواحٍ أخرى مثل كندا وأستراليا ونيوزيلاندا وأفريقيا الجنوبيّة .

أمّا الفرنسيون فقد قاموا بتنظيم قوافل تحت إشراف دولتهم ، واندفعوا لفتح ممالك جنوب خطّ الاستواء في الجزء الساحليّ من أراضي أفريقيا الجنوبيّة ، فوصلوا أولاً إلى الساحل الجنوبيّ لأفريقيا ، ثمّ عبروا

الرأس الأبيض ، أو رأس الرجاء واتجهوا صوب الشمال والشرق .
ثم إن البرتغاليين في سفرهم إلى أجزاء من السواحل الغربية
لأفريقيا ، ثم إلى نواحي شرق أفريقيا (موزامبيق) ، ومنها إلى السواحل
الغربية للهند ، وسيطروا على الجزء الغربي للهند ، وبنوا في بعض تلك
المناطق قلاعاً حصينة لجمع الأمتعة التجارية ولإسكان رعايا البرتغال
فيها .

وقد استولى الفرنسيون في سباق الفتوحات البحرية على جزيرة
مدغشقر وجعلوها محلّ جمع الأموال والأطعمة ليتحرّكوا منها نحو فتح
الهند .

وتقارن مع هذا السباق أن تحرّكت دول إنجلترا وألمانيا وهولندا في
هذا الطريق ، فسيطروا أولاً عن طريق جنوب أفريقيا على قسم منها ، ثمّ
اندفعوا في هجومهم إلى جنوب شرقيّ أفريقيا ومنها إلى وسط القارة ، ثمّ
شمالاً باتجاه ممالك موزامبيق وشمالها ، وبسطت ألمانيا سلطتها على
الساحل الغربيّ لأفريقيا الجنوبيّة (ناميبيا) .

وفي نفس الوقت فقد شاءت دولة بلجيكا أن لا تتخلف عن القافلة ،
فشكّلت قوافل بحرية ووصلت إلى الساحل الغربيّ لأفريقيا عند خطّ
الاستواء ، ثمّ اندفعت من هناك داخل قارة أفريقيا متّجهة شمال وجنوب
خطّ الاستواء وسيطرت على منطقة باسم حكوفينزويلا .

أمّا الهولنديّون ، فقد وصلوا عن طريق البحر إلى سواحل الهند وجزر
جنوب شرقيّ آسيا وأسسوا هناك حكومة تابعة لهولندا ، ثمّ تمكّن
الفرنسيّون في هذا النزاع والصراع أن يصلوا إلى الهند الصينيّة وأسسوا
حكومة هناك باسم (أنام) .

وقد سيطر الإنجليز في هذا الصراع أولاً عن طريق بومبي على قسم

صغير من الساحل الغربي للهند ، و نفذوا منه إلى داخل القارة الهندية و وصلوا إلى أواسط الهند ، ثم وصلوا عن طريق البحر إلى ساحل كلكتا و سيطروا على مقاطعة بورما و سيام ، و تابعوا فتوحاتهم حتى وصلوا حدود الصين و مملكة التبت .

ثم إنَّ الإنجليز توجَّهوا بعد بسط سلطتهم على إمارات الخليج الفارسيّ إلى جنوب شرق خطّ الاستواء ، فسيطروا على جزيرة كاليدونيا و بوزة الجنوبية و شبه جزر الهند الصينية و بعض جزر إندونيسيا و هاندي ، ثمَّ اندفعوا لفتح استراليا . وكان من نتائج هذه التحرّكات كشف و استعمار القارة الخامسة التي اختصَّ كلَّ جزء منها بمجموعة من القوافل الأوروبيّة الفاتحة ، ثمَّ شكَّلت - باتفاق هذه المجموعات - دولة استراليا المستقلّة التي انشغلت بتطوير الزراعة و تربية الدواجن و خاصّة الأغنام ، ثمَّ بأمْر تجارة المنتجات الحيوانيّة .

العامل الثاني لضعف المسلمين : في زمن ضعف دولة بني العبّاس في الأندلس (إسبانيا) قُدِّم طلب إلى حكومة المسلمين المحليّة هناك لبناء مستشفى لتقديم خدمات إنسانيّة في عدّة مدن إسبانيّة تتحمّل الجماعات المسيحيّة هناك نفقات بنائها ، وقد نفَّذ هذا الأمر الذي كان يمثّل ظاهراً علاج المرضى و شفاءهم شروعاً من المسيحيّين أنفسهم ، ثمَّ امتدّت خدماتهم بمرور الزمن فصارت تقدّم لجميع الناس المسيحيّين منهم و المسلمين ؛ لكنّه كان في الباطن محلاً لإشاعة شرب الخمر و الرقص و ممارسة الجنس و غيرها ، اجتذب إليه بمرور الوقت جمعاً من الشبّان المسلمين فتیاناً و فتيات فصاروا يتمردون على القيود الإسلاميّة و يرتبطون بجماعة الأساقفة المستعمرين .

و ظهرت في تلك الفترة دول إسلاميّة صغيرة في مقاطعات إسبانيا

ومراكش وشمال أفريقيا، ثم وقعت الحروب الصليبية التي اجتاحت لقرنين ونصف بلاد المسلمين عن طريق البحر والبر وانتهت أخيراً بالهزيمة على يد صلاح الدين الأيوبي، لكن هذا القائد الإسلامي قام -مقابل هذا الفتح والظفر على المسيحيين المتعطشين للدماء- بإنهاء الحكومة الإسلامية الشيعية في مصر وشمال أفريقيا، فتأسست بدلها حكومة سنّية شافعية، مالكية، ثم حنفية، وكان التشديد على الشيعة والقتل العام لتسعين ألف نفر من شيعة مدينة حلب في يوم واحد من أعمال صلاح الدين الأيوبي.

وكان تشجيع الأوروبيين على فتح البلاد الإسلامية من الأمور المؤثرة في أوروبا، فقد كان الهجوم على الدولة الإسلامية في الأندلس (إسبانيا) ومحاربتها، والقضاء على الدول الإسلامية الصغيرة في تلك الأنحاء، وإخراج المسلمين والقتل العام لهم في الأندلس من المسائل المحيرة في التاريخ والحاكية عن الحد الأعلى لقسوة المسيحيين وهمجيتهم.

فحين سيطر المسيحيون على إسبانيا ظهرت هناك وجهتا نظر: أولاهما وهي للقساوسة، تقول بوجود قتل المسلمين جميعاً، الرجل والمرأة، الصغير والكبير حتى الأطفال القادمين حديثاً. أما وجهة النظر الثانية وهي للمسيحيين العاديين والعوام، فكانت تقول بوجود إخراجهم جميعاً من إسبانيا. وقد عمد فيليب الثاني -الحاكم آنذاك- جمعاً لكلا القولين إلى إصدار شروط للخروج في سنة ١٦١٠ م على أن يُخرج من إسبانيا من توقرت فيه تلك الشروط، ويُقتل من لم تتوقف فيه، وفي النتيجة فقد قُتل ثلاثة أرباع جمع المسلمين هناك وأخرج الربع الباقي فقط.

ولقد سقطت إسبانيا بجلالها وعظمتها ومدنيتها إثر فقدان المسلمين وسكونت النصارى، إلى درجة هُدمت معها المكتبات والمساجد ولم يعد

يوجد فيها الأطباء والجراحون المهرة ، وصارت المدينة قدرة للدرجة التي صار معها الناس يلقون نفاياتهم في الشوارع والأزقة ويجلسون عليها للتغوط^١.

وكان لتشجيع دولة فرنسا وسيطرة نابليون على مصر^٢ ثم على ولايات ليبيا، تونس، الجزائر ومراكش، ونهوض شعوب أوروبا من أجل تشكيل دول مستقلة، والذي كانت نتيجته تأسيس دول بروسيا الشرقية،

١- يقول غوستاف لوبون في كتاب «تاريخ تمدن إسلام»: في القرن الثامن عشر الميلادي حين كانت العلوم وخاصة علم الطب والجراحة قد حققت تطوراً ملحوظاً عند المسلمين، فقد وقع في إسبانيا حيث كان الحكم الإسلامي هناك قد أسقط فيها وصار سكنة إسبانيا بأجمعهم من النصارى، وقع اتفاق غريب، فقد اقترح بعض الناس مع التواضع والخوف إزالة الأقدار التي كانت تملأ شوارع مدريد وتفسد هواءها، وقد احتج رجال الصحة على ذلك بشدة قائلين: إن آباءهم العقلاء كانوا يعرفون ما يصنعون، وإنه يمكن للسكان أن يعيشوا مثلهم بين الأقدار، وإن رفعها ينطوي على تجربة لا يقدر أحد على كشف عواقبها!

٢- يقول أحمد أمين المصري في كتاب «يوم الإسلام» ص ١٣٠ و ١٣١: لقد كان نوم الشعوب الإسلامية عميقاً، فلم تستطع أن تصحو إلا على هدير المدافع في تركيا حين غزتهم الجيوش الأوروبية، وفي مصر حين غزاهم نابليون، فهذا الغزو أفقهم ونبتهم.

وكان في حملة نابليون كثيرون من خيرة العلماء الفرنسيين المختص كل منهم بفرع من العلم من عاديّات ودينيّات واقتصاد وجغرافية، وكانت مقسّمة إلى أربع فرق، فرقة للرياضيات وفرقة للطبيعة وثالثة للأدب ورابعة للاقتصاد. فرقة الرياضيات خطّطت القاهرة وهيأت الرسوم لمشروع قناة السويس وأحصت الضرائب التي جباها المماليك من أهل البلاد. وفرقة الطبيعيات اهتمت بوضع إحصاء طبيّ لأمرض مصر وجوّها وتربتها وطعامها وإحصاء المواليد والوفيات وشدّدت بوجوب الإخبار عن أي مرض في نواحي كلّ بلدة. واشتغل العلماء الكيمائيون في تصفية مياه النيل وتقطيرها وتخليص الأملح المستخرجة من الأعشاب والنباتات. واهتمت فرقة الأدب بإنشاء مكتبة يؤمها رجال العلم ومن يريد المطالعة في ساعات معيّنة. ومما عُنيت به من المسائل الاقتصادية جواز السفر ووجوب استخراجها وإثبات ورثة الميت بأحقّيتهم في الوراثة.

والغربيّة أو ألمانيا العظمى ، دولة إيطاليا ، واتّفاق هذه الدول على استعادة المقاطعات التي تسلّطت عليها الدولة العثمانيّة في حملاتها عليها ابتداءً من منطقة آسيا الصغرى إلى شبه جزيرة ممالك اليونان ، صربستان ، ألبانيا ، بلغاريا ورومانيا - وهو ما دوّنه التاريخ باسم مسألة الشرق انتهاءً بالحرب العالميّة الأولى - كان لذلك كلّهم وافر في اضعاف المسلمين .

وقد جرى بعد عقد الصلح في خاتمة الحرب العالميّة الأولى تقسيم الدول التي كانت خاضعة للدولة العثمانيّة بين الدول المنتصرة في الحرب ، وسمّيت الدول المنتصرة في الحرب بالحلفاء والدول المنهزمة بالمحور^١ .

ففي قارّة آسيا صارت سوريا مستعمرة لفرنسا ، وصار العراق وشبه الجزيرة العربيّة في نجد والحجاز واليمن وعدن وحضرموت وعمّان وإمارات جنوب الخليج والبحرين من حصّة الاستعمار الإنجليزيّ .

أمّا في أفريقيا فقد آل أمر مصر والسودان إلى الاستعمار الإنجليزيّ ، في حين أعطيت ولايات طرابلس الغرب وليبيا إلى إيطاليا ، وصارت ولايات تونس والجزائر ومراكش خاضعة للاستعمار الفرنسيّ .

ومن الحريّ بالقول أنّ السبب لبداية الحرب العالميّة الأولى كان هو استيلاء دولة النمسا حين تأسيسها على مناطق من أطراف مدينة فيينا تشكيل دول هنغاريا وصربستان وألبانيا في شمال أوروبا ودولة الإمبراطوريّة الروسيّة القيصريّة التي تضمّ شمال شرقيّ أوروبا وشمال

١- يقول في المعجم اللغويّ الفارسيّ «لغت نامه دهخدا» ما ترجمته : تُطلق كلمة الحلفاء في الحرب العالميّة الأولى والثانية على دول انجلترا وفرنسا وأمريكا والدول الأخرى التي حاربت ألمانيا وحلفاءها ، مقابل المتّحدين في الحرب العالميّة الأولى ، ودول المحور في الثانية.

آسيا .

وقد قامت الدولة الإمبراطورية الروسية بمنافسة دول ألمانيا وإنجلترا وفرنسا على توسيع رقعة أرضها ، فحاربت نتيجة لذلك دولة إيران وأخضعت ثمان عشرة ولاية ومدينة في القفقاس وولايات تركستان تحت نفوذها . وقد اشتدت المنافسة على توسيع رقعة النفوذ في إيران بين دولة الروس من جهة وبين الحكومة الإنجليزية والعثمانية من جهة أخرى .

وفي هذه الأجواء ، فقد اغتيل ولي عهد النمسا بتحريك من دولة أجنبية ، فقامت النمسا بإعلان الحرب على دولة الصرب انتقاماً له ، وهكذا فقد انحازت بعض الدول الأجنبية إلى النمسا وقامت بمساعدتها ، بينما انضم البعض الآخر إلى صف الصرب ، فكانت الدولة العثمانية وألمانيا منحازة إلى النمسا ، في حين قامت إنجلترا وفرنسا وروسيا القيصرية بإعلان الحرب منضمة إلى صف صربستان .

وقد قامت هاتان المجموعتان والتي دُعيت أولاهما باسم المحور والثانية باسم الحلفاء بمحاربة مخالفيهم من الطرف الآخر في أطراف الكرة الأرضية ، وبهذه الكيفية وقعت الحرب العالمية الأولى بين دول العالم وأدت إلى انقراض الإمبراطورية العثمانية .

وقد قامت إيطاليا بمساعدة صربستان وإنجلترا وفرنسا ، وقامت باستعراض قوتها أثناء الحرب فاستولت على ليبيا والصومال في القرن الأفريقي وعلى قسم من أرض الحبشة .

وحدث أن احتاجت جبهة الحلفاء إلى مساعدات مالية لإدارة أمور الحرب خلال الحرب العالمية ، فمدت يد الاستجداء إلى أميركا الظالمة التي جلست تنتظر وتراقب الوضع عن كثب ، وكان المبادر إلى هذا العمل دولة إنجلترا ، وكان ذلك بالطبع بتأييد من الفرنسيين ، فقدّمت أميركا

المساعدات الماليّة لهم مقابل حصولها على امتيازات في الممالك المفتوحة التي ستصير من حصّة الدول المنتصرة ، وبقبول دول الحلفاء للشرط الأمريكيّ فقد دخلت أمريكا كطرف في الحرب ^١ .
وكان للسفن الحربيّة لهذه الدول أدوار ومبادرات مذهشة ، وخاصّة للسفينة الألمانيّة عروس الدنيا التي قامت بقطع خطوط التموين بين دول إنجلترا وفرنسا وحلفائهما في المحيط الأطلسيّ والهنديّ والهادئ ، وكانت جبهة المحور من الدولة العثمانيّة وألمانيا على مشارف الفتح والنصر حين

١- قال أحمد أمين المصريّ في كتاب «يوم الإسلام» ص ١٤٧ و ١٤٨ :

ولمّا قامت الحرب العالميّة الأولى أحسّت أوروبا بالقلق واحتمال الهزيمة ، فاستنصرت بالمبادئ الإنسانيّة الأخلاقيّة القويمة ، من مثل حقّ الأمم الصغيرة في حكم نفسها بنفسها وإطلاق حرّيّتها ونحو ذلك . وصرّحت عشرات التصريحات في هذا المعنى ، فاعتقد العالم الإسلاميّ صحّة هذه الأقوال ومَنوا أنفسهم أمانى بعيدة ، وتداول المسلمون في جميع الأقطار هذه الأقوال بل حفظوها حفظاً ، فلمّا انعقد مؤتمر فرساي تبخّرت كلّ هذه الأقوال وعاد الأوروبيون إلى مسلكهم الأوّل ، وانفجر العالم الإسلاميّ في كلّ مكان ، واشتعلت الثورة في مصر وفي طرابلس وفي المغرب وفي الهند ، تطلب كلّها إبرار الأوروبيون بوعودهم ، وافتتح العالم الإسلاميّ عهداً جديداً ، عهداً مؤسساً على خيبة الأمل والانخداع بالعود الأوروبيّة ، ممّا حمل الأوروبيين على أن يغيّروا موقفهم تجاه هذه الحركات العنيفة ، فغيّروا كلمة الاستعمار بكلمة الانتداب ومنحوا بعض الأقطار الاستقلال كاملاً أو ناقصاً ، وعلى العموم فقد خطت البلاد الإسلاميّة خطوة جديدة لم تكن معروفة للعالم الأوروبيّ من قبل .

ولمّا جاءت الحرب العالميّة الثانية تكرّرت نفس المأساة ، فكان بعض العقلاء يرون أنّ عود الأوروبيين والأمريكيين وعود خلافة لا تثبت في السلم ، وأنّ السلم إذا جاء يبخرها ، ولكن أكثر الشعوب الإسلاميّة انخدع في المرّة الثانية كما انخدع في المرّة الأولى ، وإذا كانت الشعوب الإسلاميّة قد لدغت مرّة من قبل فإنّها لم تتألم من اللدغة الثانية تألمها من اللدغة الأولى ولكن ظلّ حثفها كميناً .

اكتشف السلاح الجديد : الطائرات ، وهرع لمساعدة الحلفاء .
وفي هذه الأثناء فقد قام الجيش الهنديّ الخاضع للاستعمار
الإنجليزيّ بمهاجمة أراضي الدولة العثمانيّة ، فطلبت الدولة العثمانيّة من
علماء دولة إيران وجماعة العلماء المقيمين في العراق ، وكذلك من رجال
الدين القاطنين في سوريا والحجاز ومصر المساعدة على الوقوف بوجه
الإنجليز .

وعليه ، فقد صدر أمر الجهاد المقدّس للدفاع عن حريم الإسلام
وصيانة الأعراض ، وقام العلماء المسلمون الساكنون في العتبات المقدّسة
بالتحرّك مع الناس بأنفسهم أو بإرسال أولادهم ، فتحرّكوا من النجف
الأشرف وكربلاء المقدّسة ومن بغداد ، وكانوا يسلّمون كلّ شخص سلاحاً
ومبلغاً من المال لتغطية نفقاته الشخصيّة ، وتحرّكوا باتجاه كوت العمارة
لمواجهة العدوّ الإنجليزيّ في جبهة خرّم شهر : (المحمّرة) ومنطقة القرنة
باتّجاه العزيز والفردوسيّة والجزر الواقعة في هور الحمّار ، وخاصّة القسم
الواقع بين نهريّ دجلة والفرات . وبقيت هذه القوات مدّة سنة تقريباً في
هذه المنطقة تمنع ورود القوّات الإنجليزيّة . ثمّ بدأ أخيراً الهجوم
الإنجليزيّ على الفاو ، ثمّ على مدينة البصرة .

وفي هذه المواجهة وصلت القوّات الإسلاميّة إلى مشارف الظفر
والنصر على العدوّ ، فقام جماعة من الخونة متوسّلين بإعطاء الرشوة
بالحصول على الأسرار والمعلومات اللازمة وسلّموها إلى رؤساء الإنجليز .
ووصل الأمر بشيوخ العشائر الذين كانوا يتحرّكون من ناحية سوق الشيوخ
في جيش كبير تحت قيادة وإشراف العالم المجاهد الشهير آية الله السيّد
محمّد سعيد الحبوبّيّ وعلماء آخرين من بينهم آية الله الحاج السيّد
محسن الحكيم متّجهين إلى منطقة الشعبة ، وكان هناك من جهة أخرى

جيش آخر مأمور بالدفاع المقدس بقيادة سليمان العسكري من طرف الدولة العثمانية آنذاك ؛ وصل الأمر بهؤلاء إلى الإيعاز لعشائرتهم الحاضرة في تلك المنطقة فطوت عَلمها الحربي المنسوب على رمح - والحرب لم تبدأ بعد - وانسحبت من ساحة القتال !

وقد أدّى ذلك إلى أن يسقط المرحوم آية الله السيّد محمّد سعيد الحَبّوي^١ مريضاً بالسلّ من الغصّة والحسرة والألم ، فحُمِل إلى النجف الأشرف في علته ، وفارقت روحه الطاهرة الدنيا وحلّقت إلى أعلى علّيين ، عَلَيْهِ الرَّحْمَاتُ الْوَفِيرَةُ مِنَ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ الْمَنَّانِ الرَّؤُوفِ بِعِبَادِهِ .

كما قام سليمان العسكري - قائد الجيش العثماني - جرّاء خيانة العرب بالانتحار ، فوضع خاتمة حياته بيده .

وينبغي العِلم أنّ سلاح المدفعية العثمانية كان ذا مدّي قصير ، وكانت قنابل مدفعية الجيش العثماني تبرد وتسقط ولما تصل بعد إلى مواضع العدو ، في حين كانت المدفعية البريطانية ذات مدّي بعيد ، فكانت قنابلهم تنهال في المعركة على مؤخّرة الخطوط الأولى وتصل إلى مؤخّرة ساحة القتال ، وكان ذلك من الميزات المهمة التي تميّز بها الجيش المهاجم . وفي النتيجة ، فقد أُجبر جيش المجاهدين الوطني خلال نصف يوم فقط على تخلية خنادقهم والفرار .

وقد قام الجيش الإنجليزي أولاً بمهاجمة وإسقاط الجناح الأيمن في

١- كان السيّد محمّد سعيد الحَبّوي آيةً عظيمة وحجّةً قويمه ، وهو من أعظم تلامذة آية الله الأعظم الآخوند الملاء حسين قلي الهمداني في التوحيد والعرفان . وقد ذكر ترجمته وشرح حاله الشيخ أغا بزرگ الطهراني في «أعلام الشيعة» وذكره الآخرون في التراجم .

منطقة الفلاحية - قرب خز مشهر - والتي كانت تحت إشراف المرحوم آية الله السيد محمد ابن المرحوم آية الله السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي ، ثم اتجه إلى الشعبية ، وقام عن طريق إعطاء الرشاوى والقيام بحرب مختصرة بهزيمة الجيش هناك ، ثم تحرك صوب سوق الشيوخ والناصريّة ، وقام باحتلال مدينة الناصريّة بعدة سفن حربيّة صغيرة .

وبعد الانتهاء والفراغ من هاتين الجبهتين ، فقد سقطت خلال نصف يوم النقاط الاستراتيجية المهمة في هور الحمار ومن ضمنها جزيرة عرار وأبو عران التي كان يدافع عنها مائة نفر من الجيش العثماني وحوالي مائة نفر من المجاهدين الوطنيين ، فقد بدأ الهجوم عليها عند الفجر ودامت المعركة إلى ساعة بعد الظهر .

وكان المرحوم آية الله الحاج السيد أحمد الخوانساري وآية الله آقا ميرزا علي مجاهد قمشاهي وابن خالته : آية الله آقا ميرزا محمد حسين قمشاهي ، والأستاذ أبو الحسن الشوشترّي (المسؤول الأخصائي ومهندس إدارة الماء والكهرباء في النجف والكوفة الذي ذهب أخيراً ليقوم بمهمة توسعة حرم وصحن ومرقد السيدة زينب سلام الله عليها) مع شخصين آخرين يدافعون في خندق صغير في مؤخرة الخنادق ، وكان هذا الجزء هو نقطة الدفاع الأخيرة في هذه الجزيرة ، وقد قام الجيش العثماني بعد هزيمته في هذه الجزيرة بالانسحاب رأساً باتجاه كوت العمارة (الإمارة) ، وانسحب الناس والعلماء المجاهدون : الآيات العظام : الحاج الشيخ فتح الله شريعت الإصفهاني الغازي ، والمرحوم السيد عبد الحسين حجّت ، والسيد مهدي الحيدري الكاظمي والعلماء الآخرون الذين رافقوهم ، وقاموا عن طريق الشيوخ المحليين بالركوب في قوارب صغيرة أوصلتهم إلى حيّ عفك السماوة ، ثم وصلوا إلى النجف الأشرف والكاظمية وكربلاء ، بينما استقرّ

الإنجليز في مدينتي الناصرية والعمارة .

ودامت الحرب مع الإنجليز سنتين ، حيث تحرّك هؤلاء باتجاه كوت العمارة بقيادة الجنرال طاووزند ، وكانوا لم يستقرّوا فيها بعد حين وصل الجيش العثمانيّ القادم من بغداد إلى مدينة الكوت ، وكان يتمتع بمعنويات عالية ، فقام بمحاصرة الجيش الإنجليزيّ لمدة ستّة أشهر حتى اضطره إلى التسليم بعد انتهاء أرزاقهم ، وكان عدد الجيش الإنجليزيّ المستسلم اثني عشر ألف جنديّ .

وبعد هذه الواقعة أرسل الإنجليز مجدّداً جيشاً آخر بقيادة الجنرال مود فاستولي أولاً على مدينة الكوت ، ثمّ توجه إلى بغداد فسيطر عليها ، واستمرّ في مطاردة الجيش العثمانيّ إلى مدينة سامراء وتكريت .

ثمّ قامت الدولة العثمانيّة بعد ذلك بإخلاء منطقة تكريت والموصل وأطراف هذه المناطق طولاً وعرضاً وتراجعت عنها بدون حرب ، فاستغلّ الإنجليز خلوّ الميدان وتابعوا تقدّمهم إلى منطقة ديار بكر والحدود الفعليّة لدولة تركيا ، فاحتلت المنطقة النفطية بلا حرب .

وبدأ بعد هذا التاريخ فصل جديد في الاستعمار عُرف بعنوان : العراق تحت استعمار وسيطرة الإنجليز ، إلا أنّ ذلك العنوان زال بعد ثورة الرميثة ، الديوانية ، الحلة ، ديالى ، الرمادي والنجف الأشرف ، وجرى منح الاستقلال للعراق .

ويلزم ذكر أنّ بقايا الجيش العثمانيّ المنسحب قد توجهت إلى إيران ووصلت إلى حدود همدان ، فعمد الإنجليز إلى تحريك القطعات العسكريّة الاحتياط باتجاه إيران خلف الجيش العثماني حتى وصلوا إلى حدود كيلان وغابات مازندران ولاهيجان .

وفي هذه الأثناء حدثت حوادث التمرد والثورة داخل الإمبراطوريّة

الروسية ، فأُسِرَ الإمبراطور الروسي القيصر بيدي المتمردين في حالٍ يُرثى لها ، ثم قُتِلَ مع أفراد عائلته بصورة فجعية ، وأُسست من ثمّ حكومات بلشفية واشتراكية في أرجاء المملكة الواسعة . ولم يمضِ وقت طويل حتى نشبت المنازعات والحروب بين هذه الحكومات حول مبدأ وأسلوب الحكم ، وأعقب ذلك غلبة لينين وسيطرته على جميع أرجاء الدولة ، فأخضعها لنظام بلشفي واحد .

وكانت ثورة الشعب العراقي قد تقارنت مع هذه الأوضاع ، حيث قاموا بهزيمة الجيش الإنجليزي الفاتح في عدّة معارك مهمة : الرميثة ، الرارنجية ، الرمادي وديالى ، ممّا أجبر الإنجليز إلى إعادة قادة جيوشهم من إيران إلى العراق لضمان السيطرة على العراق مجدداً ، وأعطوا وعود الاستقلال الوطني طبق رغبة الشعب العراقي .

وقد قام مرجع تقليد الشيعة : آية الله الميرزا محمد تقي الشيرازي المتوفى سنة ١٣٣٨ هجرية قمرية بإعلان الجهاد على الإنجليز ، فأطبع أمره واشتعلت ثورة عامّة ضدّ الاستعمار الإنجليزي في مناطق العراق المختلفة ، ومن بينها النجف الأشرف وكربلاء ، وقد عجز الإنجليز عن إخماد هذه الثورة بقوة السلاح ، فأجبروا مكرهين على منح العراق الاستقلال وقاموا بإمضاء حكم الاستقلال^١ .

وقد وقع هنا خبط واشتباه ، فلم يجر في تعيين الرئيس رعاية الدقة

١- أورد المحدّث والمؤرّخ العظيم الحاجّ الشيخ ذبيح الله المحلّاتي في «تاريخ سامراء» ج ٢، ص ٩١ إلى ٩٨ ، مطالب مهمّة عن الثورة والنهضة في العراق ودور المجتهد الكبير الميرزا محمد تقي الشيرازي أعلى الله مقامه في الثورة واستقلال العراق من أيادي الاستعمار الإنجليزي ؛ تجدر مطالعتها.

اللازمة ، فبالرغم من أنّ الشيعة يشكّلون ثلاثة أرباع ، بل أربعة أخماس مجموع السكّان ، إلّا أنّ المسألة انتهت لصالح السنّة وبضرر الشيعة ، فقد كانت أنظار أهل الكفر تتوجّه صوب أهل السنّة الذين كانوا أسهل في التعامل معهم . ولقد حكم الإنجليز العراق بواسطة هؤلاء الحكّام السنّة طيلة خمس وعشرين سنة عن طريق حكومة استشاريّة برئاسة الملك فيصل الأوّل والملك غازي بن فيصل والملك فيصل الثاني ابن الملك غازي ، حتّى سقوط الحكم الملكيّ في ثورة قادها عبد الكريم قاسم الذي أعلن فيها قيام الحكم الجمهوريّ بدل الحكم الملكيّ .

وطيلة السنتين اللتين حكم فيهما عبد الكريم قاسم حدثت زلزلة مشهود في كثير من الأحكام الإسلاميّة ، من ضمنها مسألة حقوق إرث الأب (حيث صارت حصّة المرأة في الإرث مساوية لحصّة الرجل) .

ولم يدم الأمر طويلاً حتّى نشب الاختلاف بين أعوان عبد الكريم قاسم ، فقام أحدهم واسمه عبد السلام محمّد عارف بانقلاب على عبد الكريم وهجم على بغداد ووزارة الدفاع ، فاعتقلوه بينما كان يساهم في الدفاع مع المدافعين وقتلوه شرّاً قتلة .

وكان في نيّة عبد السلام محمّد عارف إعلان حكومة لا دينيّة ولا مذهبيّة حين احترقت طائرته فجأة خلال سفره إلى مدينة البصرة لبحث أمورها الداخلية ، بينما كان يحلّق في موكب يضمّ ثلاث طائرات (أو ثلاث هليكوبترات) متّجهاً إلى منطقة صناعيّة في الهارثة ، وهوت طائرته المحترقة في منطقة نائية ولم توفّق الطائرتان الأخرتان على العثور على أثر من طائرته .

وأخيراً جاء في اليوم التالي أحد رعاة الأغنام إلى دائرة الشرطة فأبلغ عن كفيّة ومحلّ سقوط الطائرة ، ولم يشاهد المسؤولون حين وصلوا محلّ

الحادثة من بقايا الطائفة إلا أجساداً محترقة متفحمة .

وآلت الرئاسة بعد هذه الحادثة إلى أخيه عبد الرحمن محمد الذي لم يحكم إلا أقل من سنة واحدة ، فقد وقع انقلاب عسكري جاء بحكومة بعثية إلى الحكم وأقصي عبد الرحمن مع عائلته ، حيث طلب اللجوء السياسي من الحكومة التركية .

ثم لم تنقُض على ذلك سنة واحدة ، حتى وقع انقسام بين البعثيين الكبار جاء بالحكومة البعثية الثانية التي كان منظرها رجل نصراني يُدعى ميشيل عفلق ، وشكلت حكومة لإدارة البلاد برئاسة أحمد حسن البكر .

وبعد مرور عدة سنوات تنحى أحمد حسن البكر عن السلطة لصالح نائبه وقريبه صدام حسين التكريتي حيث بدأ بعد ذلك فصل جديد في تاريخ العراق ، وكانت الحكومة الثورية الإسلامية في إيران قد تأسست حين ذاك ، وكان يبدو أن تنحى أحمد حسن البكر ومجيء صدام - الذي كان مظهرًا للبطش والخبث وسفك الدماء - تمهيداً لإعلان الحرب وشنّ الهجوم الظالم على الحكومة الإسلامية في إيران ، حيث يمرّ حتى الآن على هذه الحرب مدة ثمان سنوات كان النصر فيها محالاً للدولة الإسلامية وللمجاهدين المسلمين ، ولا زالت الحرب قائمة وستنتهي إن شاء الله بنصر الأمة الإسلامية الناهضة في إيران وخسارة الكفر والزندقة والإلحاد العالمي .

تذييل رقم ١ : ولا ننسى القول إن الهيئة العلمية للمجاهدين ضدّ القوّات الإنجليزية قد فكّرت بعد هزيمتها في منطقة القرنة والعمارة بتجديد قواها من جديد ، فاجتمع لهذه الغاية آنذاك المرحوم حجّة الإسلام السيّد مصطفى الكاشاني - وكان مقيماً في الكاظمية برفقة علماء آخرين من كربلاء ، هم حجّة الإسلام السيّد محمد علي الطباطبائي ، والآخوند

الملا حسين قمشهاي ، والحاجّ الشيخ جواد الجواهريّ ، والشيخ علي مانع ، والحاجّ الشيخ إسحاق ابن آية الله الشيخ حبيب الله الرشتيّ ، والميرزا مهدي الكفائيّ ، والشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء وجمع آخر من الأعلام ورجال الدين الأفاضل في مدينة الكاظميّة - ودعوا الأُمّة إلى الثورة والنهوض من جديد . وكان قد وصل آنذاك إلى بغداد جيشٌ مجهّز من الحكومة المركزيّة في إسطنبول ، فذهب مع العلماء لحرب طاووزند المقيم في كوت العمارة وتمكّن بعد ستّة أشهر من الحصار من فتح مدينة الكوت ، وعادت هيئة العلماء من الكاظميّة إلى كربلاء والنجف الأشرف .

تذييل رقم ٢ : قام الحلفاء بعد نصرهم على دول المحور بتجزئة الدولة العثمانيّة وقسموها إلى تسع عشرة دولة صغيرة ، وساروا فيها بسياسة التفرقة في العقائد والأخلاق والسنن التي كانت تقوى وتنفذ يوماً بعد آخر ، وذلك لمواجهة الوحدة الإسلاميّة ، ودعوا الناس في هذه النقاط كلاً على انفراد إلى اتباع السنن والطقوس الشعبيّة في مناطقهم وذلك من منطلق حربهم للإسلام .

فقاموا في دولة تركيا باتباع برنامج سياسيّ ثقافيّ وسعوا في نشر هذا الفكر وتغذيته - من خلال الكتب الدراسيّة - بأنّ الأُمّة القديمة الأصليّة في آسيا كانت أقوام باسم حَتّ تركوا في شجاعتهم ومآثرهم دروساً لا تنسى لأُمّتهم ، وعلى أفراد الدولة أن يحفظوا أصالة قدامتهم وأجدادهم ويتبعوا سننهم وآدابهم^١.

١- يقول أحمد أمين المصريّ في كتاب «يوم الإسلام» ص ١٥٠ و ١٥١ : لقد نفخ مصطفى كمال في الأُمّة روحاً جديدة ترمي إلى الاعتزاز بقوميّتهم بدل الاعتزاز بدينهم،

وفي دولة سوريا كانوا يروجون بأن الأقوام الأصليين للشام ولبنان هم الآراميون والفينيقيون .

وقد نشر هؤلاء الآراميون لآداب حياتهم الخط واللغة الآرامية في أطراف آشور وجنوب لبنان . أمّا الفينيقيون فكانوا يرتون قوماً محاربين في البحار ، وكان لهم مساهمة خاصة في تكميل حروف الهجاء .

وقد قاتل الجيش الفينيقي في البحر مع دولة الروم الغربية ، وفتح سواحل تونس وشمال أفريقيا ، وسيطر على مدينة وميناء كارتاج ، وكان له التقدم في الفتوحات الساحلية حيث أحاط بسواحل أسبانيا والبرتغال وتفرد بالحكم هناك ، حتى وصل به الأمر أن يصل الى الساحل الجنوبي لجزيرة بريطانيا ويأخذ من أهلها الضرائب . فهذه الانتصارات وأعلام الفخر التي يحملها تعود جميعها إلى شعب لبنان .

وكانوا في دولة العراق يقولون : أنتم أفضل من جميع الأقوام

وبث في قومه العزة والافتخار بوصفهم أحفاد الطورانيين ، كما كان بعض الدعاة في مصر يدعون للاعتزاز بأنهم أحفاد الفراعنة . وأيد الفكرة الضعيفة التي قال بها بعض علماء قليلين من الأوروبيين التي تذهب إلى أن لغة السومريين -منشأ الحضارة البابلية القديمة- كانت ذات صلة بالتركية والقائلة بأن اكتشافات حدثت في الأناضول تدل على أن شعوب آسيا الصغرى اقتبست من حضارة الحيثيين التي أخذت من البابليين ثم أخذتها شعوب آسيا الصغرى وعنها أخذ الجنس الأوروبي ، فأصل الحضارات كلها إذن في زعمهم هي الحضارة التركية .

ثم قام مصطفى كمال بتصفية اللغة التركية من كثير من الكلمات العربية والفارسية وبحث مكانها عن كلمات طورانية قديمة ، حتى الأعلام مثل مصطفى كمال غيرت بكلمات أخرى مثل أتاتورك . وفي سنة ١٩٢٨م دعا مصطفى كمال مؤلفاً موسيقياً نمسواً للتدريس في المعهد الموسيقي باستنبول لإدخال العنصر الأوروبي في الموسيقى على العنصر التركي .

الأخرى ، فالآشوريّون كانوا في شجاعتهم وسعيهم لتوسعة البلد وفتح المناطق الأخرى إلى الحدّ الذي كانوا يحكمون فيه على القوم الآراميين وقسماً من إيران: كردستان ولرستان .

أمّا الأكديّون الذين سبقوا زمن الآشوريّين فقد أسسوا في مقاطعات وسط العراق قبل غيرهم أوّل دولة في العراق . ثمّ بسط بختنصر نفوذ دولته إلى فلسطين ودمر مدينة القدس فقتل الرجال وأسر النساء وجاء بهنّ إلى بابل في العراق . ثمّ استولى السومريّون على دولة الأكديّين وواصلوا تقدّمهم وفتوحاتهم حتّى وصلوا منطقة خوزستان وبختياري .

أمّا في دولة إيران ، فمع أنّها لم تكن من أجزاء الدولة العثمانيّة المقسّمة ، فقد كانوا يذكّرون بعصر جمشيد ملك فارس ، ويخاطبوهم : أنكم أفضل من غيركم وأمهر ، ولقد وصلت فتوحاتكم من فارس إلى بابل وسوريا وشمال العراق ، ووصلت غرب نهر النيل إلى حدود تونس ، حيث شكّلت في هذه البلدان دولاً عيّن لها أمراء محلّيين يحكمونها ، وهي كلّها تابعة لدولة الإمبراطوريّة الإيرانيّة . ثمّ إنّ أجدادكم قاموا بنشر القانون الأوّل لحقوق البشر وأوكلوا أمر التجارة والزراعة في كلّ ولاية إلى القاطنين فيها ، والذين كانوا يتبعون إدارة الحكومة المركزيّة في شوش القديمة .

كما كان هؤلاء يظهرّون لشعوب الحجاز واليمن ومصر بسلسلة تأريخهم المفصّل عظمة وتفوّق قوميتهم على جميع أفراد الدنيا وأمّمها ، ويوحون إلى وجوب اتباع هذه الآداب والعادات للوصول إلى الرقيّ والتقدّم .^١

١- كانت المصادر التي اعتمد عليها المؤرّخ المذكور هي : «الحرب العامّة الأولى»

إنّ الشرح والتفصيل سيجرّنا إلى الإطالة ، فنذكر إجمالاً أنّ الاستعمار كان يبذل - كما رأينا - قصارى جهده ومساغيه لتحطيم الحكومة الإسلامية وتمزيق وحدتها ومركزيتها ، سواء من ناحية المكان والأرض ، أو من ناحية الأفكار والأفهام . ثمّ إنّ الدول الاستعمارية نصبت على رأس كلّ واحد من هذه الدول المجزأة الصغيرة أحد عملائها ، وقاموا بالمحافظة على تسلّطهم على هذه المراحل بإدارة الأمور فيها عن طريق المستشارين الأجانب الذين كانوا يرسلونهم للعمل تحت إشراف هؤلاء الرؤساء العملاء .^١

« والثانية » ، « خاطرات مصطفى كمال » ، « قيام عبد القادر بن عبد الكريم الجزائري » ، « سعد زغلول باشا » ، « مجلّة «المختار» ، « النظرات » للشيخ محمّد عبده ، « العروة الوثقى » للسيد جمال الدين الأسدآبادي ، « تاريخ الدولة الصفوية » ، « قيام مصطفى أتاتورك » ، « تمدّن اسلام » غوستاف لوبون ، « كليّات تاريخ تمدّن جديد » لعبّاس إقبال آشتياني ، « تاريخ روابط سياسي إنكليس وإيران در قرن نوزدهم » تأليف محمود محمود ، ومشاهداته في ثورة الشعب الإيراني الشريف في العهد الإسلامي الجديد .

ويقول أحمد أمين المصري في كتاب «يوم الإسلام» ص ٩٥ : وأما التفرّق باختلاف اللغة والجنس والوطن ، فله في العصر الحاضر دعاة من المتفرنجين هم أشدّ آفة من دعاة التفرقة للمذاهب ، فمنهم من يفتخر بالفراعنة ومنهم يفتخر بالفينقيين . وقد كان هذا الخلاف يُقبل ويُحتمل لو صحبته الحرّية والتسامح ولكن مُني قوم بالعصبية فتعصّبوا لفرقتهم ضدّ غيرهم وأباحوا لأنفسهم ما لم يُبيحوا لغيرهم ، فكان الخلاف سبباً للنزاع والفرقة .

١- قام الأخوان أميدوار : عيسى وعبد الله في زمننا هذا بسفر إلى دول العالم طافا فيه على ما يزيد من ٨٤ دولة وألّفوا كتاباً حول مشاهداتهما باسم «سفرنامه برادران اميدوار» (=قصّة رحلة الأخوين أميدوار) ؛ فكتبنا في ص ٤٣٦ ضمن تعريفها لأوضاع زنجبار:

لقد اتّبع الإنجليز بعد تسلّطهم على الأراضي الأفريقية سياسة خاصّة هناك لم يحدوا عنها ولم يجدوا مناصاً عنها ، فقد قسّموا هذه الأراضي إلى قطع مختلفة حسب حدود أراضي القبائل ، ليتمكنهم تركيز قوّاتهم بشكل أفضل وضمان المحافظة على سلطتهم ، وإذا

وكانت خطوتهم الأولى هي منح الحرّية ، أي الحرّية في العقيدة والمذهب والأخلاق ، والتي ليست في الحقيقة إلا الحرّية في الشُّكر والرقص وأعمال الجنس وشيوع الموسيقى وازدياد محلات بيع الخمر والمساحب المختلطة ودور السينما المبتذلة والمُفسدة للأخلاق ، وإشاعة الفساد بواسطة الجرائد والمجلاّت ، والتغيير الجذري للبرامج الثقافية للمدارس ، شروعاً من دور الحضانة وانتهاءً بالجامعات ، وصياغتها جميعاً على أساس تربية العبيد ونزع الحميّة والغيرة الإسلاميّة ، وترويج التدخين والإدمان على المخدّرات باختلاف أنواعها حتى لأطفال المدارس وتلاميذها ، وعلى السخرية من العلماء والفقهاء والعلوم الأصيلة ، والاجتناب عن العمامة والزيّ الإسلاميّ ، وكانت هذه الأمور جميعاً

« حدث أن فقدوا أحد الأميرين حافظوا على الآخر ، وعليه فقد قاموا بتعيين حاكم في كلّ منطقة، وشكّلوا في كلّ منطقة من مناطق الحكم نظاماً خاصاً جديداً . وقد منح الإنجليز هذه القبائل، وخاصّة رؤساءها نفوذاً وقدرة أكبر ليصلوا من خلال ذلك إلى تنفيذ مآربهم . وفي ص ٤٤٧ عرض الأخوان صورة لهما مع سلطان زنجبار ورجل إنجليزيّ، وكتبها أسفلها:

خلال لقائنا بسلطان زنجبار لم يدعنا المشاور الإنجليزيّ -الذي هو في الحقيقة المسيّر لجميع أمور الجزيرة- أن نبقي مع السلطان لوحدها ولو لحظةً واحدة!

وكتبنا في ص ٥٣٥ حين دخلا جمهوريّة مالي بدون تصريح في جواز سفرهما: يا للحسرة! فليس في إمكاننا هنا بيان الوضع السياسيّ والجغرافيّ لهذا الجزء من أفريقيا للقراء، وكلّ ما نقوله إنّ الجزء قد قسّم بشكل يبعث على السخرية ، ولقد قامت في كلّ نقطة منه حكومة مستقلّة ويحصل أن تنهض القبائل الصغيرة لتطالب باستقلالها فلا تعمل شيئاً ذا جدوى لتحصل على حرّيتها . ولقد أصبحنا في هذه البلوى والفتنة -نحن اللذان لم يكن لنا من هدف سوى السياحة والطواف حول العالم- ضحيّة الأوضاع السيئة لهذه الديار ، وصرنا أشبه بكرة القدم ، كلّما قربنا من أحد الأهداف تقاذفونا هنا وهناك .

تنصّب في جبهة مقابل تعاليم القرآن^١.

١- يقول الرجل الواعي والمحقّق الإسلاميّ آية الله الحاجّ الشيخ محمّد الحسين كاشف الغطاء، الذي له الحقّ العظيم على الإسلام والمسلمين في خطابه في المؤتمرات الإسلاميّة وفي قلمه القاطع الصريح الجميل في بيانه للمطالب المفيدة، يقول في أشعار له نقلها آية الله الحاجّ السيّد محمّد علي القاضي الطباطبائي في مقدّمة كتاب «جنة المأوى» أحد تأليفات الشيخ كاشف الغطاء، ضمن تعليقه عليه، ص ٤٤، الطبعة الأولى:

فَلَمْ تَكُنْ الْحَيَاةَ كَمَا أُرِيدُ	قَضَيْتُ سَبِيبِي وَبَدَلْتُ جَهْدِي
وَكَمْ أَسْعَى وَغَيْرِي يَسْتَفِيدُ	إِلَى كَمْ أَسْتَحِثُّ النَّفْسَ عَزْمًا
خَيْرَتُ الْقَوْمِ أَعْجَبَنِي الْقُعُودُ	نَهَضْتُ فَقِيلَ أَيُّ فِتْيَ فَلَمَّا
كَضَارِبَةٍ وَقَدْ بَرَدَ الْحَدِيدُ	وَإِنِّي بَعْدُ مُجْهَدَةٌ وَقَوْمِي
عَصِيبًا فِيهِ يُفْتَقَدُ الْوَحِيدُ	وَحِيدٌ بَيْنَهُمْ وَلَعَلَّ يَوْمًا
تَضِيقُ بِنَا كَمَا ضَاقَتْ لُحُودُ	لَنَا فِي الشَّرْقِ أَوْطَانٌ وَلَكِنْ
وَنَظْمًا لَا يَسُوعُ لَنَا الْوُرُودُ	نُقِيمُ بِهَا عَلَى ذُلٍّ وَفَقْرٍ
تَكِيدُ بِهَا الْحُكُومَةُ مَا تَكِيدُ	أَكَاذِيبُ السِّيَاسَةِ بَيِّنَاتٍ
فَكَمْ وَالِيٍّ مَ تَخْدَعُنَا الْوُعُودُ	وَعُودٌ كُلُّهَا كِذْبٌ وَزُورٌ
فَلَا يَبْقَى الْخِدَاعُ وَلَا الْمَشِيدُ	إِذَا مَا الْمُلْكُ شِيدَ عَلَى خِدَاعٍ
فَلَا تُغْنِي الْجُيُوشُ وَلَا الْبُنُودُ	وَمَنْ لَمْ يَتَّخِذْ مُلْكًا صَاحِبًا

ويصحّ أن نقول هنا إنّ الأشعار المذكورة من التنبؤات التي تبصّر الإنسان - شأن أقوال الأنبياء - بواقع أمره وبأضرار التقاعس والتثاقل أمام الاستعمار الأجنبيّ. وقد نادى صريحاً في الأشعار التالية بعلة وسبب ذلّة الإسلام والمسلمين:

كَمْ نَكْبَةٌ تُحَطِّمُ الْإِسْلَامَ وَالْعَرَبَ
وَالْإِنْجِلِيزُ أَضْلَاهَا فَتَشَّ تَجِدُهُمُ السَّبَبَ
بَلْ كُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ وِيَلَاتٍ حَرْبٍ وَحَرْبٍ
هُمْ أَشْعَلُوا نِيرَانَهَا وَصَيَّرُوا النَّاسَ حَطَبَ
وَاسْتَخْدَمُوا مُلُوكَنَا لِضَرْبِنَا وَلَا عَجَبَ

فَمُلُوكُهُمْ بِفَرَضِهِمْ كَانُوا وَإِلَّا لَأَنْقَلَبُوا

وكان يجري تعيين ميزانية خاصة في البرنامج السياسي لهذه الدولة من قبل ملوك ورؤساء الجمهوريات فتصرف المبالغ الطائلة لإشاعة المنكرات والأمور الجنسيّة ومحاربة المسائل القرآنيّة .

نعم ، فليس لهذا الاستعمار حقيقة إلا الاستعباد بصورته القبيحة المنفورة التي تختفي وراء قناع الإعانات والتقدّم والتنمية . وكما يقول غوستاف لوبون ، فإنّ شموخ قصور لندن وتقدّم تلك المدينة هناك وفي سائر الدول المُستعمِرة كان يقوم على الأنقاض والتخريب والنهب والقتل في الدول المستعمِرة ، ومبنيّ على إتلاف ثرواتها وأخلاقها وشرفها .

فلقد عطلّ جهاد صدر الإسلام ذاك ، وتناست إمبراطوريتنا بني أميّة وبني العباس الكبيرتين الإسلاميتين ظاهراً برنامج القرآن القائم على أساس محاربة الظلم وبسط العدل والإنصاف ، واستمرّوا في اكتساب الملذّات والتنعم والأكل والشرب وبنوا قصورهم من أتعاب الآخرين .

ونتيجة لإلقاء الدرس العمليّ للقرآن ، فقد آلت نوبة الاستعباد إلى السقوط بأيدي هؤلاء الشياطين الذين لا همّ لهم إلا الفساد في العالم ، ولا هدف لهم من الحرب إلا توسعة الأرض والتمتّع بالذخائر والمعادن على حساب كدح وجهود الضعفاء واليتامى والأرامل .

وتصيبنا الدهشة والحيرة حقّاً حين نقارن ذلك الجهاد الإسلاميّ ، وذلك الهدف ، وذلك القصد ، وذلك الإيثار والعدل والإنصاف والأخوّة

﴿ هُمْ نَصَبُوا عَرْشاً لَهُمْ فِي كُلِّ شَعْبٍ فَانْشَعَبَ

وَاسْوَأْنَا إِنْ حَدَّثَ التَّارِيخُ عَنْهُمْ وَكَتَبَ

ولكاشف الغطاء أشعار كثيرة في هذا الباب ذكر بعضها في كتاب «المثُل العليا في

الإسلام لا في بحمدون» وفي كتابه الآخر «المحاورة بين السفيرين» ينبغي مراجعتها فيهما .

والمساواة مع هذه السيطرة على العالم والاكتشافات والرحلات البحرية والسيطرة على الأمم بالمكر والرشوة ونشر المواد المخدرة وإسقاط قيمة الأخلاق والفضائل لنيل الحطام الدنيوي والحياة الناعمة .

فأين هذا من ذلك؟! فهذا يمثل الانحطاط والدناءة مائة في المائة ، وذاك يمثل الشرف والفضيلة مائة في المائة .

إنّ سياسة هؤلاء تقوم على أساس من الكذب والمكر ، في حين تبتني سياسة القرآن على أساس من الصدق والواقعية .

فعلام يُحمل احتلال البلاد وتسخير أهلها للعمل في المعامل والأشغال الثقيلة لاستخراج المعادن ، فلا يحصلون في المقابل حتّى على قوت لا يموت ؟ وعلام يُحمل القحط والجوع وإتلاف نفوس الملايين والحرمان من الثقافة والأدب ؟

نعم ، فلقد كانت تلك اللقمة ملوثة بالدماء التي سالت لأجلها ، وذاك القصر والبلاط وتلك الحكومة والسلطان ، وتلك الجامعة والمدرسة ، وتلك المدينة وذلك الفضاء الذي حُصل عليه من ألقاب وجهود هؤلاء الناس المحرومين بالمكر والخديعة ، مملوءة بالهواء المتعفن الناقل للأوبئة .

ولقد قال غاندي حين ذهب إلى لندن : أعجبُ كيف لم تغرق هذه الجزيرة تحت المياه حتّى الآن ؟ قيل : لماذا ؟

قال : لقد حُيِّل لي أنّ الذهب الذي نقلته دولة الإنجليز من الهند إلى هنا قد أثقل هذه الجزيرة بكثرتة فأغرقها تحت الماء .

لقد كان إعمار مدن البلاد الاستعمارية يقابل تخريب المدن المستعمرة ، ممّا يذكرنا بأهرام طغاة مصر وفراعتها التي شيدت بتلك العظمة والجلال الذي يصعب معه على البعض أن يصدّق أنّها من بناء كرتنا الأرضية ، فقد جسدت أتعاب ومحنة ومعاناة ثلاثين ألف عبد قد قاموا بنقل

قطعاتها الضخمة الثقيلة من فاصلة ألف كيلومتر ولمدة ثلاثين سنة ، وكانوا يتهاونون في الطريق ويموتون فتُدفن أجسادهم بعنوان خدم وحشم في مواضع منخفضة جنب البناء الشامخ للأهرام الذي كان بمثابة مقبرة أولئك الطغاة ، ليدافعوا عن جنایات أولئكم في العالم الآخر .

نعم ، لقد كان هذا كله دليلاً على فساد وتعاسة أولئك الطغاة ، لا على جهل الناس .

أفيمكن للعالم نسيان الجرائم والفجائع التي ارتكبتها في التاريخ دولة بلجيكا بحق شعب الكونغو المحروم في إجبارهم على حمل الآلات والمعادن المستخرجة ؟

«ولأن لومومبا المظلوم كان شهماً فضح الأسلوب الديكتاتوري الظالم لبلجيكا حين وقف في عيد استقلال الكونغو يوم الثلاثين من حزيران سنة ١٩٦٠م ليقول أمام ملك بلجيكا : إن الهدية الوحيدة التي تفضلت بها على شعب الكونغو بلجيكا المسيحية المتمدنة ، التي تدعي أنها هي التي أوجدت تقدم وتربية الأقوام المتوحشة بعد سنين من استخدامها وتسخيرها لنا نحن شعب الكونغو البائس ، هي الفقر والمرض والجهل ، إذ لم يتجاوز عدد مثقفينا المائتي شخص من بين عدة ملايين ...

وكان هؤلاء مشغولين بالرقص والأعمال التافهة الأخرى إلى الحد الذي رأى لومومبا حين عاد من أمريكا - حسب قول مؤلف كتاب «نشاطات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA - وضع بلده بدرجة من السوء والوخامة والتعاسة بحيث كان يظن أن الأمم المتحدة مشغولة بالتأمر على بلده .

ولقد اتهم المستعمرون وعملاؤهم لومومبا - المضحي والحامي لشعبه - بالشيوعية واعتقلوه وسجنوه ، ثم عذبوه تعذيباً وحشياً حطّموا فيه

أصابه ، ثم قتلوه بأفجع قتلة ، كي لا يجرؤ لومومبا آخر أن يكرّر خطأه ويتحدّث عن منافع شعبه»^١.

إنّ المنطق القرآنيّ هو تساوي أفراد البشر على اختلاف عناصرهم وأعراقهم ، المثقفون منهم والأُمّيون ، المتوحّشون والتمتدّنون ، الأبيض منهم والأسود ؛ فالفضيلة للتقوى فقط ؛ ولقد كان شعار الإسلام أينما توجه للجهاد هذه الآية :

يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْبِكُمْ^٢.

وكان يُعلن ذلك لجميع الأمم المغلوبة ، فهذه الآية من آيات القرآن ، ولقد كان الإسلام أينما وضع أقدامه يعطيهم القرآن ويأمرهم بتلاوته .

ولقد توائم الجهاد الإسلاميّ مع الرفق والمحبة والعطف وإعطاء جميع الامتيازات الإنسانية والبشريّة للشعوب المغلوبة ، بحيث أثار عجب ودهشة حتّى الأجنبي ، ولقد اعترف هؤلاء بأنّ تعاليم أئمة ودين لا تقوم على أساس المحبة كما هي الحال في الإسلام . وقام المسلمون عملاً بإظهار هذه المودّة والرفقة في حروبهم ، فكانوا يعاملون أسراهم وعبيدهم كمعاملتهم بعضهم البعض الآخر .

يقول غوستاف لوبون : لم يكن انتشار واتساع الإسلام في الشرق والغرب بالسيف والقوة ، بل كان بالأخلاق الفاضلة الإسلاميّة^٣ التي تسيطر

١- من كلام مترجم كتاب «القانون الأساسي في الإسلام» تأليف أبي الأعلى المودوديّ ، المقدّمة ، ص ١٦ .

٢- صدر الآية ١٣ ، من السورة ٤٩ : الحجرات .

٣- كتاب «تمدن اسلام وعرب» (= حضارة الإسلام والعرب) ص ١٣ ، مقدّمة المؤلف ، الطبعة الثانية ، يقول :

على قلوب المسلمين والتي قد فقدت مركزيتها السياسيّة بالفعل .
ويقول أيضا : غير أنّ أهمّ نتيجة يمكن استنباطها من جميع ما تقدّم
هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه ، فالديانات التي لها
ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جداً .
وقد لا تجد ديناً اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم ، والقرآن
هو قطب الحياة في الشرق ، والقرآن هو ما نرى أثره في أدقّ شؤون
الحياة .

أجل ، دخلت دولة العرب في ذمّة التاريخ ، بيد أنّ الدين الذي كان
سبباً في قيامها لا يزال ينتشر ، وسيطر ظلُّ النبيّ من مرقده على ملايين
المؤمنين الذين يسكنون أقطار أفريقيا وآسيا الواقعة بين مراكش والصين
والبحر المتوسط وخطّ الاستواء .^١

ولقد عامل المستعمرون ويعاملون سكّان مستعمراتهم معاملة
الحيوانات ، وما أسهل عليهم أن يذبحونهم زرافات زرافات ويقتلونهم
ويحرقونهم على أساس تفوّقهم عليهم وبمنطق القوّة التي يحسبونها ميزاناً

﴿ إنّ الممالك التي فتحها العرب كانت عبارة عن أقوام مختلفة قد سخّرتها وفتحتها
أقوام أخرى وأخرجتها من أيديهم ، لكنّ المدينة التي بنوها هناك لم يستطع أي قوم فاتحين
أن يقتلونها ويبدّلونها بمدينة أخرى . بل إنّ جميع تلك الأقوام كانت تختار ذلك الدين ،
القانون ، الفنون والصناعة والمهن ، وكان الكثير منهم يختارون على الأخصّ لغتهم العربيّة ،
وكأنّ شريعة محمّد التي انتشرت في تلك الممالك غير قابلة للتغيير . حتّى في الهند ، حيث
تغلّب هذا الدين على الأديان القديمة هناك . وقد بدّل هذا الدين مصر الفراعنة التي لم تؤثر
عليها إيران والروم واليونان إلّا قليلاً ، بدّلها كلياً إلى بلد عربيّ ... إلى آخره .

١- «تمدن اسلام و عرب» ص ٥٦٨ و ٥٦٩ ، الباب الخامس ، المذهب والأخلاق ،

الفصل الثالث : أخلاق الإسلام .

لكلّ حقّ وواقعيّة .

يقولون : لأنّنا نمتلك القوّة والبنديقيّة ، فنحن نمتلك كلّ شيء ،
فالحكم والسيادة للأقوى .

ونقول : إنكم إن كنتم تمتلكون القوّة والمهارة ، وترغبون في
الاستفادة من المنابع الطبيعيّة لسائر البلاد والأمكنة ، فعليكم أوّلاً تحصيل
إجازة من أصحابها للورود إليها ؛ وعليكم ثانياً أن تعملوا وفق عقد واتّفاق
صحيح وعادل ، فتدفعوا لأصحابها حقّهم ، وتعملوا على رفع مستوى البشر
فيها ، فيرتفع مستواكم أنتم وتعمّر قلوبكم . لكنّ مجيئكم بالدبّابات
والمدافع ، وبالسفن الحربيّة التي تصبّ الحمم ، وعبوركم بالقصف الجوّيّ
على أجساد أصحاب البلد الذين كانوا يعيشون تحت ظلّ أشجار الغابة
ويقضون عمرهم في قناعة ، ونهبكم لكّدّهم وحاصل جهودهم ، وأسركم
لجمعهم واستعبادكم لهم ، ثمّ صرفكم منافعهم وثرواتهم على ترفكم
ونزواتكم التي لا حدّ لها ولا حصر ، كلّ هذا أمر خاطئ ومُدان .

ولكن ، أنى لأؤلئك الذين أسكرهم غرورهم وأعمتهم نكرة الجاهليّة
والتكبر أن يصغوا لهذا الكلام ؟ فهم يؤلّفون الكتب ، محاولين بأدلة واهية
سخيفة إثبات تفوّق عنصرهم وعرقهم على سائر العناصر والأعراق ،
فيثبتون على هذا الأساس أنّ الغلبة حقّ مسلمّ لهم ، وأنّ التبعيّة والمغلوبية
حقّ طبيعيّ للأمم الضعيفة ، ليمنحوا بهذا وجهة فلسفيّة وعلميّة لجناياتهم ،
ولإثبات إمكان الضغط على كلّ ضعيف وعاجز حسب ميزان أفضليّة
وتفوّق قدرتهم وقوّتهم .

وكم كان بيان الأستاذ العلامة آية الله الطباطبائيّ جميلاً وشافياً حين

قال :

كان الإنسان فيما مضى يرمي بالحجر فيقتل به إنساناً ، واليوم صار

يرمي بقنبلة فيمحو ويُهلك مدينة هيروشيما ، والإنسان الذي كان يأسر يوماً إنساناً عاجزاً ضعيفاً فيجعله عبده ويحصل من كده وأتعابه على دراهم معدودة ، صار اليوم لا يكتفي بملايين العبيد ومليارات الليرات والدولارات و...^١

وقال أيضاً : وكان هناك دوماً قوانين جارية في المجتمعات الإنسانية ، وكل ما هنالك أنّ القوانين في المجتمعات غير المتقدمة كانت تتعین تلقائياً وسط الاضطرابات لمصلحة الأقوى ، وكانت تجري في المجتمع وتنفذ بشكل غير منتظم ، لكّتها توضع في المجتمعات المتقدمة الراقية عن روية وفكر وتفرض على الناس وتطبق وتنفذ بشكل منتظم نسبياً .

وفي نفس الوقت فإنّ الاعتداءات التي كانت تجري سابقاً بين الأفراد الأقياء والأفراد الضعفاء ، أو بين الأفراد الأقياء والمجتمعات الضعيفة ، تجري حالياً بين المجتمعات القوية والمجتمعات المتخلفة .^٢

وقال سماحته أيضاً : وحين ندقق في الأمر نلاحظ عياناً أنّ جميع الرذائل الإنسانية التي كانت موجودة في العصور المظلمة السابقة بين الفرد والفرد الآخر ، أو بين فرد قويّ ظالم وبين مجتمع ما ، موجودة فعلاً بين المجتمعات القوية والضعيفة ، بين مرتبي عالم الإنسانية والبشر ، بين الغربيّ والشرقيّ ، بين الأبيض والأسود ، وبين المثقفين المتنورين والمتخلفين .

فأنواع الظلم والمكر والتزوير والفساد وآلاف البلايا الأخرى التي لا علاج لها ، وكانت تجري سابقاً بشكل عشوائيّ غير منظم ، تجري اليوم بمنتهى الدقة ووفق برامج لمائة سنة ولألف سنة ، وتحصل بشكل مؤثر

١- كتاب «وحي يا شعور مرموز» (= الوحي أو الشعور الخفي) ، ص ٩٢ .

٢- كتاب «وحي يا شعور مرموز» ص ٩١ .

ومنظّم ، دافعةً بالإنسانيّة يوماً بعد آخر إلى هاوية الهلاك والفناء .
 فلا يمكن اعتبار أنّ يوم سعادة وحسن حظّ البشر سيأتي على يد
 هؤلاء المربيين الأغرّاب ، الذين يدعون أنّهم أشفق على الطفل من أمّه التي
 أنجبتّه^١ .
 ويمكن استخلاص أمور هامة بالتأمّل والتمعن في المطالب التالية ،

١- كتاب «وحي يا شعور مرموز» ص ١١٢ و ١١٣ .
 يقول أحمد أمين المصريّ في كتاب يوم الإسلام بعد شرح مشبع عن أضرار المدنيّة
 الغربيّة في الجانب الأخلاقيّ ، ص ٢٢٠ و ٢٢١ :
 ومع الأسف فقد جنت المدنيّة الحديثة على العلوم والآداب ، فاستأصلت هذه العاطفة
 الإنسانيّة ، ووضعت مكانها العاطفة الجامحة الوطنيّة ، كما ملأناها بحبّ النفع المادّيّ ،
 ولم تعبأ بحبّ المعاني السامية والأخلاق الراقية والجمال المعنويّ . ولذلك أخرجت شاباً
 في شكل إنسان ، وحقيقة أحجار لا قلب له ولا شعور ، ولا أمل عنده ولا ألم ، سواء في ذلك
 الشباب الأوروبيّ والشباب الشرقيّ ، وسواء في ذلك الفتيان والفتيات .
 إننا لا نقوم العلم والأدب إلا بمقدار خدمتهما للإنسانيّة . وأكبر عيب في المدنيّة الغربيّة
 أنّها جعلت الشباب كالإنسان المصاب بالسرطان ، تتضخّم ناحية منه ولا تتضخّم الأخرى ،
 فتضخّم عقله وضمّر قلبه فاختلفت توازنه .

إنّ المدنيّة الحديثة جعلت قلبه فارغاً ظمآن ، صقيل الوجه ، كاسف الروح . مستنير
 العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس ، قد حاز كلّ أسباب السعادة إلا سعادة قلبه ،
 قد نزعته منه عاطفة الدين فساءت حياته في الدنيا . والشباب الشرقيّ على الخصوص
 شغفته الحضارة الغربيّة فمدّ يده إلى الأجانب ليتصدّقوا عليه بفتات الموائد ، قد باع روحه
 بثمن رخيص جدّاً ، وهي أعزّ شيء في الوجود . فاشترى من الغربيين عبادة المادّة ، وعبادة
 الشهوات والجاه ، وأعطاهم قلبه .

لقد كانت -والحقّ يُقال - المدنيّة الغربيّة في نعمتها وبرامجها وأفكارها أقسى على
 الشرق من مدافعها وكلّ آلات قتالها . فما فعلته هذه الآلات أفسدت الناس بكلّ سهولة .
 لقد كنّت في الحجاز فرأيتُ بعض سواقى السيّارات يسوقونها بعقليّة الجمال ، فكذلك
 المعدّمون اليوم يربّون الصقور تربية الحدأة ، وأشبال الأسود تربية الغنم .

التي نقلت بأجمعها عن أقوال الأجانب :

إنّ إلقاء نظرة واحدة على الأجزاء الأربعة الضخمة لكتاب الكونت غوبينو حول اختلاف العناصر والأعراق البشرية ، تشير إلى مدى الجِدِّ والسعي الذي بُذل فيها لإظهار اختلاف العناصر بطريقة علميّة ، حتّى أنّهم لم يتورّعوا في إثباتهم العلميّ لهذا المطلب عن الإفراط بالتوسّل بأية خرافة ومهزلة !

فحين يعجز السيّد صاموئيل كارت رايت في مقاله عن الإتيان بأيّ دليل ، فإنّه يتوسّل في إثباته لحيوانيّة السود الاستدلال بشكل شعورهم ، فيقول :

إنّ ساق كلّ شعرة منهم مغطّاة بما يشبه الفلس ، شأنها شأن صوف الأغنام ، فيمكن حياكة شعورهم ببعضها كما يُحاك الصوف ، وليس الشّعْر الحقيقيّ هكذا ... والسود كثير و القرب من جهة حاسة الشمّ بالحيوانات الوائئة ، ويمكنهم أن يميّزوا بيننا بحاسة الشمّ فقط ...^١

إنّ جميع طغاة وسفّاكي التاريخ هم ظاهراً أو باطناً من أتباع ومستحسني هذا المنطق العلميّ البرّاق ، ابتداءً من آتيلّا ونرون إلى بسمارك وهتلر ، فكلّ هؤلاء يؤيّدون تصرّيحاً أو تلميحاً المثلّ الإنجليزيّ القائل بأنّ القوّة تعني الحقّ ، أو حسب مقولة بسمارك : الحقّ يمرّ من فوهة الدبّابة .

ويحاول أدولف هتلر السفّاك العنصريّ المشهور أن يبرّر هذه الخشونة والعنف الوحشيّ تحت غطاء جميل ولطيف الاحترام لقانون الطبيعة ، فيقول :

إنّ لم نحترم قانون الطبيعة فنفرض إرادتنا كأقوياء على الآخرين ،

١- صاموئيل رايت ، مع مقالات أخرى في كتاب « Slavery Defended ».

فسياً تي اليوم الذي ستفترسنا فيه الحيوانات ثانية ، ثم ستلتهم الحشرات تلك الحيوانات ، ولن يبق على وجه البسيطة إلا الجراثيم^١ .
وننقل هناك مقتطفاً من بحث روبرت نوكس^٢ حول العناصر البشرية السوداء ، لتتضح لنا بشكل أفضل المباني العلمية لأخلاق دعاة العنصرية وتحكيم القوة ، وحرّي بنا قبل نقل كلام نوكس أن نتحدّث عن شخصيته ، فذلك ممّا لا يخلو من فائدة ؛ فهو طبيب إنجليزي ومؤسس لمدرسة التشريح في أدينورو .

وقد تورّط الشخصان اللذان كانا يهتئان له أجساد الموتى للتشريح في أعمال أبعد من نبش القبور ، فارتكبا جنائيةً قتلها فيها شخصاً ليجلبا بدنه للتشريح ، فامتدّت الفضيحة لتتال نوكس أيضاً ، ممّا أجبره على الاستقالة .
وكان قد تجاوز نوكس بعد ذلك حدود علمه الخاصّ المحدود ، فقام بإلقاء محاضرات في التشريح العالي^٣ الذي يتضمّن مقارنة العناصر البشرية المختلفة ، فيميّز الجيد منها من الرديء . وقد نشر كتابه سنة ١٨٥٠ م تحت عنوان «العناصر البشرية» . والخلاصة التي نقلها فيما يلي مقتبسة من فصل في كتابه تحت عنوان العناصر البشرية السوداء ، يقول فيه :

لقد كانت القوة دوماً منذ الأدوار الأولى للتأريخ المدوّن هي التي توجد الحقّ ، أو التي يتصوّر أنّها كذلك . وعلى أساس هذا الحقّ فقد قام

١- انظروا خطابات هيتلر أيام شبابه ، المجموعة في كتاب:

H . R . Trevor - Raper , Hitler's Table Talk (London 1953)

٢- R. Knox

٣- Transcendental Anatomy

العنصر السلافي بتدمير إيطاليا والقضاء على أشرف فئات البشرية .
ولقد قمنا ؛ بهذا الحق ؛ بالاستيلاء على أميركا الشماليّة وأخرجناها
من أيدي العناصر المحليّة التي تُعدُّ أمريكا حقاً طبيعياً لهم ، وقمنا بإبعادهم
إلى الغابات الأولى التي كانوا فيها وقتلناهم بكلّ سهولة ويُسر . وبناءً على
هذا الحقّ نفسه - أي بالقوّة - فقد قام أعقابنا من أفراد الولايات المتّحدة
بإبعادنا عنها ...

ويتزامن مع كتابتي لهذه الكلمات قيام عنصر السّلت بإعداد العدة
للسيطرة على أفريقيا الشماليّة بنفس الحقّ الذي سيطرنا به على الهند ، أي
بالقوّة والضغط . فالحقّ الطبيعيّ الوحيد يتمثّل في ذلك الضغط الفيزيائيّ ...
وليس لديّ أدنى شكّ في أنّ كبار المسؤولين في إدارة المستعمرات
كانوا يفكّرون في هندٍ مماثلة أخرى في أفريقيا المركزيّة ، والتي يمكن أن
تجعل الثروة من حاصل عمل الملايين من الأفارقة ؛ الذين ليسوا في
الحقيقة إلاّ عبيداً تنساب إلى صناديق إدارة الهجرة . وللأسف الشديد فإنّ
المستعمرين الساعين لامتلاك الأراضي والسيطرة عليها قد تدخّل الماء
والجوّ في عملهم فأغرق ركّاب السفينة التي أرسلوها لهذا الهدف وحوّل
آمالهم هباءً منثوراً .

وعليه ، فإنّ العناصر السوداء لم تزل منذ القِدَم عبيداً لأسيادهم
المستعبدين البيض .

فلمَ كان ذلك ؟ يجيب السيّد غييون بأسلوبه الجازم الدائمّي على هذا
السؤال فيُشير إلى الضّعة البدنيّة المشهودة لذوي شعر القلط ...

ولكّتي اعتقد أنّه ينبغي وجود نوع من الضّعة والانحطاط البدنيّ الذي
يؤدّي إلى ضّعة رويّة في جميع أفراد العناصر السوداء ... ويمكن أن
لا يكون ذلك عموماً مرتبطاً بنفس مادّة المخ ، بل إنّه يرتبط أكثر بكيفيّة

تركيب المخّ ١.

هذا هو أسلوب تفكير الدول الاستعماريّة ومنطقها ، ويمكن القول إنّ هؤلاء يمثلون خطراً عظيماً وجناية على البشريّة . والله وحده يعلم كم من المصائب صُبت على إيران في القرنين الأخيرين من قبل الروس والإنجليز ، ويمكن للراغبين في الاطلاع مراجعة «تاريخ روابط سياسي إيران وإنكليس در قرن نوزدهم» (= تأريخ العلاقات السياسيّة لإيران وإنجلترا في القرن التاسع عشر) تأليف محمود محمود ، وخاصّة الفصول ٩٢ إلى ٩٥ من الجزء الثامن .

لقد فغرت جميع الدول الاستعماريّة ، وخاصّة أمريكا ، أفواهاها وأعدت نفسها لابتلاع المسلمين في شهية كبيرة ، فهي الشياطين المفسدة المثيرة للفتن ، الكُفْرُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ . لكن الإنجليز يمتلكون عداءً خاصاً للإسلام ، ولقد أزاحت كلمات وخطب وكتابات السيد جمال الدين الأسدآبادي الستار عن هذا الأمر ، فقد جاء في كتاب «سير در انديشه سياسي عرب» (= جولة في الفكر السياسي العربي) :

أنّ السيد لا يعتبر إنجلترا القدرة الاستعماريّة الوحيدة فقط ، بل يعدّها العدو اللدود الصلب للمسلمين ، ويعتقد أنّ هدف إنجلترا في إفناء الإسلام ؛ وكتب مرّة يقول :

إِنَّ عَدَاءَ إِنجِلْتَرَا لِلْمُسْلِمِينَ يَكْمُنُ فِي اتِّبَاعِهِمْ لِدِينِهِمُ الْإِسْلَامِيّ ، فَهِيَ تَسْعَى دَوْماً بِمُخْتَلَفِ الْحِيَلِ لِتَسْتَوْلِيَ عَلَى جُزْءٍ مِنَ الْأَرْضِيّ

١- «فيليب كورتين (لندن ١٩٧١)» ص ١٢ إلى ١٤ .

P. Courtin Imperialism (London 1971)

مطالب منقولة عن كتاب «دانش وارش» (= العلم والقيم) ص ١٧ ، ٣٠ ، ٣٢ و ٣٣ .

الإسلامية فتعطيها لأمم أخرى من غير المسلمين ، لكان انكسار وسوء طالع أهل الدين يثلج فؤادها ، فهي تسعى إلى سعادتها في إذلالهم وإفناء ومحو كل مقدراتهم وثرواتهم^١.

وكان يعتبر اعتداءات فرنسا على تونس نتيجة مباشرة لسياسة التوسع الإنجليزية في البحر المتوسط^٢.

وكان من نتائج نظراته المعادية للإنجليز أن مال إلى اعتبار الإسلام دين الحرب والجهاد ، لذا فقد كان يؤكد كثيراً على فريضة الجهاد ، فلم يكن للمسلمين أمام حكومة عازمة على إفناء الإسلام إلا اللجوء إلى القوة ، لذا فقد كان يهاجم بعنف جميع القادة الدينيين المسلمين الذين كانوا يمنحون تعاليم الإسلام وجهاً مسالماً يميل إلى الصلح والسلام والدعة^٣.

وعليه ، فقد كان السيد يمتدح التعصب الديني ، لأنه كان يعدّه رأسمال وحدة وفخر كل قوم في الدفاع عن حقهم ، وكان يهاجم أولئك الذين يعتبرونه عائقاً أمام تقدم أهل الدين باتجاه المدنية الجديدة ، لكنه كان يقول في نفس الوقت : إن التعصب صفة كباقي الصفات الإنسانية لها حد معتدل ولها إفراط وتفريط ، فإن روعي فيها المحافظة على الاعتدال عدت من الصفات الحميدة ، وإلا صارت من الصفات الذميمة .

وعلى أية حال ، فإن التعصب الديني لا يختلف عن التعصب

١- «سيري در اندیشه سياسي عرب» تأليف السيد حميد عنايت ، قسم الفكر والمجتمع ، ص ١٠٠ إلى ١٠٢ ، نقلاً عن كتاب «العروة الوثقى» ص ٣٣٤ فصاعداً.

٢- انظر : «سيري در اندیشه سياسي عرب» تأليف السيد حميد عنايت ، قسم الفكر والمجتمع ، ص ٣٥٥ إلى ٣٥٧.

٣- انظر : «سيري در اندیشه سياسي عرب» تأليف السيد حميد عنايت ، قسم الفكر والمجتمع ، ص ٢٠٢ و ٢١٩ و ٢٢٥ و ٢٤٣ و ٢٤٨.

العنصريّ عداً أنّه أنزه منه وأقدس وأكثر نفعاً وفائدة ، ولكن كيف يُمتدح التعصّب العنصريّ باسم الوطنيّة في حين يعدّ التعصّب الدينيّ عيباً؟!^١

١- أورد أحمد أمين المصريّ في كتاب «يوم الإسلام» ص ١١٠ إلى ١١٣ : وجاء في

النشيد الإيطاليّ :

أمّاه صليّ ولا تبكي - بل اضحكي وتأملّي - ألا تعلمين أنّ إيطاليا تدعوني وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأُمّة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلاميّة التي تميّز البنات الأبقار للسلطان - سأقاتل بكلّ قوّتي لمحو القرآن . ليس للمجد من لم يمت لإيطاليا حقّاً ، تحمّسي أيتها الوالدة ... تذكّري كاروني التي جاءت بأولادها في سبيل وطنها... وإن سألك أحد عن عدم حدادك عليّ فأجيبه : أنّه مات في محاربة الإسلام . الطبل يقرع يا أمّاه ، أنا ذاهب أيضاً ... ألا تسمعين هرج الحرب ، دعيني أعانقك وأذهب .

وسيق رجل من الثوّار في حادثة بنجاب إلى مدفعية كان فيها بارود أكثر من المعتاد فأطلق عليه النار فطار جسمه ممزقاً كلّ ممزق ، وأشار الجنرال نيكلسن في كتاب له إلى إدوارد قائلاً: يجب علينا أن نسنّ قانوناً يُبيح لنا أن نحرق أو نسلخ جلود الثوّار وهم أحياء ، لأنّ نار الانتقام تتأجج في صدورنا لا تخمد بالشفق وحده ، ثمّ إنّ الأُمم الشرقيّة اعتادت ألاّ تحسب للحكومات حساباً ولا تخاف جانبها إلاّ إذا كانت ذات سطوة قاهرة .

وكتب مدير أَسار في ذلك العهد يقول : كان جميع الضباط في البنجاب يبدؤون بالفضائح لإيقاع الرعب في الأهالي لكيلا يتجرّأوا على أخذ الثأر منهم .

وذكر لامسون للسير هنري كلتن عن بعض المسجونين المسلمين ، قال : أتاني ذات ليلة عسكريّ فقال -بعد التحيّة العسكريّة- أرجو أن ترى المسجونين ؛ فقامت حالاً إلى السجن فرأيتهم مربوطين على الأرض يتنفّسون آخر أنفاسهم وكان على أجسامهم آثار الكيّ بالنحاس المحمّيّ على النار ، فرقّ قلبي لحالتهم التعبة فأخرجت المسدّس وصرّت أطلق النار عليهم واحداً بعد آخر لأحلّصهم من هذا العذاب الأليم .

وقد ذكر اللفتنانت ماجدن حادثته قال : رأيت ذات يوم الإنجليز والسيخ كان يطعنون عسكرياً هندياً بالحراّب لكنّ طعنهم لم يقتله فجمعوا الحطب وأشعلوا النار فيه ، فلمّا اشتدّت النار ألقوا الهنديّ المسكين فيها ، وصاروا ينظرون إليه بفرح وسرور عظيمين .

وقال المستر غلادستون من مشاهير الإنجليز : يجب إعدام القرآن وتطهير أوروبا من المسلمين . وقال اللورد سالسبري من عظماء الإنجليز أيضاً : يجب إعادة ما أخذه الهلال ⇨

ومن الجليّ أن الأوروبيّين حين يرون أن العقيدة الدينيّة للمسلمين هي أقوى الروابط بينهم ، يسعون لإضعاف هذه الرابطة باسم مخالفة التعصّب ، لكنّهم يقعون أسرى التعصّب الدينيّ أكثر من أيّة جماعة ودين ، فيتكلّم رجل متحرّر مثل غلادستون رئيس وزراء إنجلترا فيدافع بتعصّب عن المسيحيّة وخاصّة في مقابل الإسلام مع أنّه لم يكن متديناً عملاً ، وكان كلّ كلامه بشأن الإسلام ترجمة لروح بطرس الراهب ، أي إظهاراً لروح الحروب الصليبيّة .^١

من الصليب للصليب دون العكس . وكان الفرنسيّون يستنكفون من السفر مع المسلمين في عربات السكك الحديديّة في تونس والجزائر . ونادى كيجون اليونانيّ : يجب نسف الكعبة ونقل القبر المعظم لرسول الله إلى متحف اللوفر .

وحدث مرّة أنّ أحد التجّار الفرنسيّين عامل أربعة رجال من أهالي غربيّ أفريقيا بسلع تجاريّة ، ولما استحقّ له عندهم مبلغ قليل من المال ذهب إلى هؤلاء وطالبهم بذلك فاستمهلوه مدّة ريثما يتمّ لهم جمع المال فأبى وشدّد عليهم النكير بالطلب وأخذ يؤنّبهم ويشتمهم ، ثمّ استلّ الفرنسيّ مسدساً وأطلق رصاصة على أحد الأربعة فقتله ، ولما رأى الثلاثة صاحبهم يتخبّط في دمه قبضوا على القاتل الفرنسيّ ونزعوا المسدّس من يده وراموا وثاقه وتسليمه للحكومة فلم يستطعوا ذلك ، إذ فرّ من بينهم بواسطة ، وبلغ القاتل مقرّ الحكومة ما عمل وشكّأ وألثك الثلاثة فأرسلت الحكومة في طلبهم ، ولما حضر الثلاثة لدى المحكمة الفرنسيّة وأحضر القاتل وأقرّ الفاعل بقتله ، حكمت المحكمة الفرنسيّة بقتل الثلاثة الذين ضربوه لقتل رفيقهم ، وفي اليوم التالي سيق هؤلاء الثلاثة إلى فسحة خارج البلد ورُبطوا بالأشجار وأطلق عليهم الجنديّ الفرنسيّ الرصاص حتّى فارقوا الحياة وتُركوا على حالتهم دون أن يواروا التراب !

١- «سيري در انديشه سياسي عرب» ص ١٠٢ و ١٠٣ ، عن «العروة الوثقى» ص ٣٩

إلى ٤٨ .

ويقول أحمد أمين المصريّ في كتاب «يوم الإسلام» ص ١٠٩ و ١١٠ : وكما هدّد الصليبيّون الشرق بحملاتهم المتوالية عليه ، فقد أفلحوا في طرد المسلمين من الأندلس

بعد أن أصيب المسلمون بالتفرق والانحلال وأنسحب الصليبيون من الشام ليعودوا إليه في حملة أخرى إذا واتت الظروف، فإن عداةهم للمسلمين لا يفتر.

قال صاحب مجلة «العالم الإسلامي» الفرنسيّة: العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسيّة هو عدوّ مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص، فجميع الدول النصرانيّة متّحدة معاً على ذلك الممالك الإسلاميّة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً؛ والروح الصليبيّة كامنة في صدور النصارى كمن النار في الرماد، وروح التعصّب لم تنفك حيّة معتلجة في قلوبهم حتّى اليوم كما كانت في يد بطرس الناسك من قبل.

فالنصرانيّة لم يزل التعصّب مستقرّاً في عناصرها متغلغلاً في أحشائها متمشياً في كلّ عرق من عروقها، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداة والحقد والتعصّب الدينيّ الممقوت، وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان في كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى، حيث القوانين والشرائع الدوليّة لم تعامل فيها الأمم الإسلاميّة معاملة السواء مع الأمم النصرانيّة.

تنتحل الدول النصرانيّة أعداراً لها في كرهاها وهجومها وعدوانها على الممالك الإسلاميّة وإذلالها وإكراهها بقولها إنّ الممالك الإسلاميّة هذه إنّما هي من الانحطاط والتدنّي بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شؤون نفسها وفوق جميع هذا، فهذه الدول النصرانيّة عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية وتذرّع بألوف الذرائع بنواح أخرى حتّى بالحرب والحديد والنار للقضاء على كلّ حركة حاولها المسلمون لبلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة. وجميع الشعوب النصرانيّة مُجمعة متّفقة على عداة الإسلام وروح هذا العداة متمثّلة بجهد هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الإسلام سحقاً. وتأخذ النصرانيّة مشاعر كلّ مسلم وأماله ورغباته التي تجول في صدره ثمّ تمثّلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء، وأنّ ما يدعوها الفرنجة عندنا في الشرق تعصّباً مذموماً محرّماً هو عندهم في بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسيّة المباركة والقوميّة المقدّسة والوطنيّة المعبودة، وأنّ ما يدعوها عندهم في الغرب إباءً للنفس وشمماً وشرفاً ووطنيّة وعزّة قوميّة، يعدّونه في الشرق غلواً مكروهاً وإفراطاً في حبّ الوطن ضاراً ومقتاً وشناناً للأجنبيّ الغربيّ.

منقول من مقال تحت عنوان «الجامعة الإسلاميّة والجامعة التركيّة» نُشر في مجلة

ولهذا السبب فقد كان السيّد جمال الدين يعتبر القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الباعث للحياة في عالم الإنسانية ، ويعدّ ضعف المسلمين وذلّهم راجعاً إلى ضعف عملهم بالقرآن ، وأنّ السبيل الوحيد لهم في النجاة والقوّة والحياة من جديد ينحصر في الرجوع إلى هذا القرآن العمل به .

يقول في كتاب «شرح حال وآثار سيّد جمال الدين أسد آبادي» (= ترجمة حياة ومؤلّفات السيّد جمال الدين الأسدآبادي) :

ويذهب السيّد إلى مصر ثانيةً فيتوقف فيها عشر سنين يرّبي تلاميذه ويشغل بالتدريس والبحث وإلقاء الخطب ، ومن جملتها خطبته المشهورة في مسألة الرجوع إلى القرآن ، وهي خطبة غزاء بالعربيّة ، نوردها فيما يلي :

إلهي ! قولك : **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** .^١

وكلامك الحقّ المحض ! ولأنّ دعوتي واستجابة هذه النفوس الزكيّة كان خالصاً مخلصاً لوجهك الكريم ، فأهدنا بموجب قولك الحقّ إلى سبيل الهداية والرشاد .

أيّها السادة ! إنّ القرآن هو المدينة الفاضلة الإنسانية ، والصراف المستقيم للسعادة البشريّة . إنّ جلال الدستور المقدّس الذي يمثل خلاصة سموّ ورفعة جميع أديان العالم الحقّة ، والبرهان القاطع للخاتميّة المطلقة للدين الإسلاميّ إلى يوم القيامة ، وضمن سعادة الدارين وفوز النشأتين ،

«العالم الإسلاميّ» في مارس سنة ١٩١٣ م ، ويقول كاتبه إنّ استفادته من مسلم ثقة كبير المنزلة والشأن .

١- الآية ٦٩ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

آه، آه، صار من فرط الغفلة مهجوراً .

إنّ جلال وعزّة الدستور المقدّس الذي وصل العالم القديم والدنيا الحديثة مع تلك الحقارة بشرارة طفيفة من قبسات أنواره المضيئة إلى هذه المدينة، آهاً، آهاً، صارت فوائده اليوم تنحصر في الأمور التالية :

التلاوة على القبور ليالي الجمعة، مشغلة للصائمين، متروكات المساجد، كقارة الذنوب، ألعوبة الكتاتيب، للوقاية من الحسد، اليمين الكاذبة، رأسمال الاستجداء، زينة قماط الطفل، قلادة العروس، تميمة عضد الخباز أو في عنق الأطفال، حرز حفظ المسافرين، سلاح علاج المصروعين، زينة الاحتفالات وفي حجلة العروس، مقدّمة نقل أثاث البيت، حرز محلّ ألعاب القوى (زورخانه)، في أمتعة التجارة لروسيا والهند، رأسمال الكتبيين، رأسمال استجداء المتسوّلين من النساء والرجال في المعابر والطرقات .

آه، وآسفاه! فسورة والعصر كانت لوحدها - مع عدم احتوائها على أكثر من ثلاث آيات - أساس نهضة جماعة أصحاب الصُّفّة الذين حوّلوا بالفیض المقدّس لهذه السورة المختصرة، محلّ أصنام مكّة الذي كان مرتعاً للشرك قبل الهجرة إلى بستان للتوحيد وبيت لله في بطحاء مكّة .

آه، وآلهفاه! هذا الكتاب السماويّ المقدّس، وهذا التصنيف العزيز للحضرة السبحانية، وهذا الأساس لكلّ السعادات الإنسانيّة، لم يعد يحظى اليوم بالاهتمام إلّا أقلّ من «ديوان سعدي» وحافظ و«المثنوي» وابن الفارض .

وعلى العكس من ذلك، فحين تقرأ إحدى المقطوعات الشعريّة في جمع وحفلٍ ما فإنّ الآهات تتصاعد من أعماق القلوب، والعيون والآذان والأفواه تفتح وتصغي وتفغر لسماعها، وكم هو الأمر معكوس بالنسبة

للقرآن والذي لن يزاحم أبداً في أي مكان ثرثرة أحد أو عمله أو تفكيره .
إي وَحَقِّكَ ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ! أَنْتَ الْقَائِلُ وَقَوْلُكَ حَقٌّ : «نَسُوا اللَّهَ
فَأَنْسَبْنَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» .^١

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ : «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
بِأَنْفُسِهِمْ» .^٢

عَلَيْكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ وَبُرْهَانِهِ الْأَقْوَمِ ؛ فَإِنَّهُ نُورُهُ الْمُشْرِقُ الَّذِي بِهِ
يُخْرَجُ مِنَ ظُلُمَاتِ الْهَوَاجِسِ وَيُتَخَلَّصُ مِنْ عَتَمَةِ الْوَسَاوِسِ وَهُوَ مُصْبِحُ
النَّجَاةِ . مَنْ اهْتَدَى بِهَا نَجَى وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ . وَهُوَ صِرَاطُ اللَّهِ
الْقَوِيمِ . مَنْ سَلَكَهُ هَدَى ، وَمَنْ أَهْمَلَهُ هَوَى .

عَلَيْكُمْ بِالْفَوْزِ مِمَّا انْتَشَرَ مِنْ لِنَائِي مَقَالَاتٍ صَاحِبِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِقَوْلِهِ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى قَائِلِهِ :

إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا قَلَّ فِيهِمُ الْعَمَلُ ؛ وَكَثُرَ فِيهِمُ الْجَلَالُ .
وَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ
فِيهِ ، وَالنَّصِيحَةُ لِأُمَّرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلِزُومُ جَمَاعَتِهِمْ .
الْمُسْلِمُونَ تَكَافَوْا دِمَاؤُهُمْ أَدْنَاهُمْ ؛ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ مَنْ وَالَاهُمْ ؛ وَهُمْ
يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ .

وَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا يَزَالُ الْأَمْرُ فِي أُمَّتِي مَا لَمْ يَتَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ
الْفُرْسِ . وَأَشْبَاهُ هَذِهِ الْغُرَرِ الزَّاهِرَةِ الَّتِي تَضْمَنُ وَاحِدَةً مِنْهَا سَعَادَةُ الْأُمَّمِ
كُلِّهَا . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

ثم نزل السيد بعد هذه الخطبة من منصّة الخطابة وقد أعغمي على ثلث

١- الآية ١٩ ، من السورة ٥٩ : الحشر . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَبْنَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ .

٢- الآية ١١ ، من السورة ١٣ : الرعد .

أعضاء الجمعيّة وتضعض حال الباقين ، وكان السيّد الجليل يبكي ويردّد :
 إِي وَحَقِّكَ اللَّهُمَّ ، نَسِينَاكَ فَأَنْسَيْتَنَا ، يردّها حتى يسقط مغمىً عليه .
 وقد ظلّت حالة الإغماء والنحيب حاکمة على الجمعيّة طوال ساعات
 ثلاث قام بعدها حسن عطا بك صهر خديوي مصر باستعمال العطور
 لإعادة السيّد وأعضاء الجمعيّة إلى الوعي .

ثمّ يقوم السيّد بتشكيل جمعيّة مع مقرّرات للعمل بالقرآن كانت
 مؤثّرة بشكل محيّر ، ودام الأمر مدّة تسعة أشهر وأيام عدّة ، قام بعدها
 الإنجليز وأمراء مصر بإغلاق الجمعيّة وإخراج السيّد من مصر .^١
 ثمّ يعقّب مؤلّف «شرح حال وآثار سيّد ...» بعد ذلك فيقول :

نعم ، لقد أبعدهوا السيّد مع تلميذه وخادمه أبي تراب عن مصر سنة
 ١٢٩٦ هجرية قمرية ، فذهب إلى الهند وكتب سنة ١٢٩٧ هـ . ق الرسالة
 النيشريّة (المذهب الطبيعيّ) في ردّ الدهريّين ، طبعت في بمبي . ثمّ سافر
 سنة ١٣٠٠ هـ . ق من الهند إلى لندن ، ثمّ إلى باريس حيث بقي هناك ثلاث
 سنوات ، وأسّس سنة ١٣٠١ هـ . ق صحيفة «العروة الوثقى» التي كان
 محرّرها الشيخ محمّد عبده ضدّ سياسة الإنجليز والأوروبيّين ، وكان
 يرسلها مجاناً إلى جميع نقاط الشرق ، لكنّها للأسف أوقفت عن الصدور
 ولم ينشر منها سوى ثمانية عشر عدداً .^٢

١- «شرح حال وآثار سيّد جمال الدين أسدآبادي» بقلم الميرزا لطف الله أسدآبادي ،
 وتقديم حسين كاظم زاده ، طبعة إيران شهر . وبالطبع فقد ذكرنا هذا المقدار الذي أورده من
 الخطبة ، وكان يمثل جزءاً من خطبة السيّد ، وقد أوردها ابن المؤلّف في الصفحات ٢٨ إلى
 ٣٠ . وعلى الراغبين بالاطّلاع على الخطبة الكاملة للسيّد مراجعة تفصيلها في كتاب «گفتار
 خوش يارقلي» تأليف الشيخ محمّد المحلّاتيّ .

٢- يقول أحمد أمين المصريّ في كتاب «يوم الإسلام» ص ١٣٩ و ١٤٠ : على ☞

وفي حدود سنة ١٣٠٣ هـ. ق عزم السيّد على السفر من باريس إلى بلاد الشرق ، فدعاه ناصر الدين شاه بواسطة صنيع الدولة للقدوم إلى

المسلمين أن يتحرّكوا ويسيروا حسب شروط النهضة ليتصرفوا ، فالله لا يعبأ بالأسماء مسلماً كان أو نصرانياً أو وثنياً ، إنّما يعبأ بالأسباب ، والمثل العربيّ يقول :

وَمَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلَ . حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْقَوْلِ :

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ؛ فتنقّد المسلمين أولاً وتأخّرهم أخيراً ثم نهضتهم ثالثاً لم تكن مجرد حوادث ليس لها تعليل طبيعيّ ، وإنّما هي معلّلة تعليلاً طبيعيّاً يدركه ذوو العقول الراجحة .

لهذا ، دعا كثيرٌ من المصلحين إلى الجامعة الإسلاميّة ، ويعنون بها الرابطة التي تربط بين المسلمين في مختلف الأقطار من فرس وترك وعرب ، وقد كانت كلمة مفزعة لأوروبا في القرن الماضي ، وليس صحيحاً ما قاله المرحوم سعد زغلول : «إنّ صفراً و صفراً يساوي صفراً» ، بل الصحيح أنّ ناقص خمسة في ناقص خمسة يساوي زائد خمسة وعشرين . فكلّ دولة وحدها قد لا تساوي شيئاً ، ولكنّها مع بعضها تستطيع مجتمعة أن تواجه الاستعمار الأوروبيّ . ولأنّ الأوروبيين يتقدّمون شيئاً فشيئاً في بطاء لمحق المسلمين ، فإنّ من الحرّي للمسلمين أن يتحرّكوا للدفع الظواهر الاستعماريّة المقيّنة .

وكان أوّل من نادى بهذا الشعار في العصر الجديد السيّد جمال الدين الأفغانيّ ... حتّى

يقول :

ولم تستطع أوروبا الصبر على جريدة «العروة الوثقى» التي كان السيّد جمال الدين يصدرها في باريس ، فأوقفوها بعد صدور ثمانية عشر عدداً منها .

ثمّ يقول في ص ١٤٤ : ولقد أشارت إنجلترا على فرنسا بإيقاف جريدة «العروة الوثقى» للسيّد جمال الدين الأفغانيّ ، كما انتقدوا في جميع أوروبا جامعة الوحدة الإسلاميّة هذه ، وأعلنوا وجوب عدّها من الأمور القبيحة والمنكرة .

ولقد علمت إنجلترا وفرنسا أنّ هذه الوحدة كانت نابعة من الغيرة على الإسلام ، لذا اعتبروها أمراً غير مقبول ، وعدّوها رذيلة من أكبر الرذائل الأخلاقيّة وأخافوا المسلمين من اتّحاد كهذا أملاً في أن يخاف المسلمون منها ويعدّونها أمراً مكروهاً فيعدّلون عنها ، على الرغم من أنّ هذه الغيرة والتعصّب فضيلة من أكبر الفضائل مقابل تعصّب النصارى ضدّ المسلمين .

طهران ، فوصلها السيد سنة ١٣٠٤ هـ. ق وعرض عليه ناصر الدين شاه منصب رئاسة الوزراء ورئاسة دار الشورى فرفض السيد ذلك قائلاً : لم أكن ولست طالب دنيا ورئاسة ، بل إن هدفي ينحصر في إصلاح أمور المسلمين . ويذهب السيد سنة ١٣٠٤ هـ. ق من طهران إلى روسيا فيقيم سنتين في مدينة بطرسبورج ، ثم يذهب إلى النمسا فيلتقي به ناصر الدين شاه في سفره الأخير إلى بلاد الغرب في فيينا ويدعوه مجدداً إلى طهران ويعقد له العهود والمواثيق أنه سيعمل بقول السيد ، فيجئ السيد إلى طهران ، ويخلف الشاه عهده فلا يوافق على إجراء اقتراحات السيد في الأمور .

ويعلن السيد مخالفته لناصر الدين شاه علناً ، فيعتصم في صحن السيد الشاه عبد العظيم لمدة سبعة أشهر ، ثم يصدر ناصر الدين شاه أخيراً في سنة ١٣٠٨ هـ. ق أمراً إلى الميرزا علي أصغر خان الصدر الأعظم باعتقال السيد ، فيعتقله ويبعده في الشتاء مع مرضه وسوء حاله إلى كرمانشاه وخانقين راكباً على بغل ، ثم يرسله حاكم بغداد إلى البصرة .

ويكتب السيد في البصرة رسالة مفصلة حول تسلط الإنجليز على إيران وقيامهم بشراء أراضي إيران واستحكاماتها ، وامتياز التبأكو وعواقبه الوخيمة ، وغفلة ناصر الدين شاه وجرمه في هذه المسألة ، فيبعث بها إلى المرحوم آية الله مرجع التقليد آنذاك : الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي في سامراء ، ثم يتجه السيد من البصرة ميمماً صوب لندن .^١

وقد أثبت في كتابي «تاريخ سامراء» و«أعيان الشيعة» بالأدلة الوافرة كون السيد جمال الدين إيرانيّاً وشيعيّاً ، وأنّ تسمية بعض الغربيين

١- «شرح حال وآثار سيد جمال الدين أسدآبادي» ص ٣٠.

والمصريين له بالأفغانِيّ ليس إلا خطأً محضاً.^١

ويورد كتاب «تاريخ سامراء» بالتفصيل رسالة السيّد جمال الدين من البصرة إلى الإمام المجدّد المرحوم الحاجّ الميرزا محمّد حسن الشيرازيّ بشأن مسألة التباكو وعن احتلال دولة إنجلترا للأراضي الإيرانيّة، ثمّ يقول المؤلف المذكور:

يقول شكيب أرسلان في تعليقه على كتاب «حاضر العالم الإسلاميّ»:

فَكَانَ هَذَا النَّدَاءُ مِنَ السَّيِّدِ الْحُسَيْنِيِّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْفَتْوَى الَّتِي أَفْتَاهَا ذَلِكَ الْإِمَامُ بِبُطْلَانِ هَذَا الْأَمْتِيَّازِ وَأَضْطَرَّتِ الْحُكُومَةُ الْفَارِسِيَّةُ خَوْفَ انْتِقَاضِ الْعَامَّةِ إِلَى الْغَايَةِ - انتهى .

لكنّ السيّد محسن العامليّ يقول: إنّ الإمام المجدّد الشيرازيّ أصدر فتواه بشأن تحريم التباكو حين اطلع على منح الامتياز إلى دولة بريطانيا، وكان ذلك قبل وصول رسالة السيّد. ثمّ يورد المرحوم العامليّ متنها بكامله.^٢

١- «تاريخ سامراء» للمؤرّخ الشهير الشيخ ذبيح الله محلاتي، ج ٢، ص ٣٥؛ و«أعيان الشيعة» للسيّد محسن الأمين العامليّ، ج ١، ص ٣١٠، نقلاً عن «نقاء البشر في القرن الرابع عشر» للشيخ آغا بزرك الطهرانيّ.

٢- «أعيان الشيعة» ج ١٦، ص ٢٧٧ إلى ٢٨٢.

ولقد ذكرتُ في رسالة منفصلة ومختصرة عن السيّد جمال الدين أنّ وجهة نظري عنه ليست إيجابية، وأنّي لا أعدّه رجلاً إلهياً، مع أنّ من المسلّم أنّه كان من نوابغ الدهر ومن الفلاسفة الأجلّاء، وممتازاً في الخطابة والعربيّة، وامتاز بسعي دؤوب لتشكيل حكومة واحدة مركزيّة للمسلمين. لكنّ هذا لا يمكنه إثبات معنويّته وحتّى إسلامه بالمعنى المتداول المعروف. ويُسْتَوْحَى من كلماته وخاصّة من جوابه على خطاب أرنست رينان أنّه لم يكن معتقداً بنبوّة الأنبياء والاتّصال بعالم الغيب. ومع امتلاكه الرغبة في اتّحاد

نعم ، منذ وضع المسلمون السيف في غمده ، أي حين أودعوا القرآن في صندوق مقفل ، فقد بدّلوا عصر عزّتهم وفخرهم إلى زمن الذلّ والعار ؛ القرآن القائل :

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَبْدُونَ الْحَامِدُونَ أَلْسِنَتُهُمُ الرَّاكِعُونَ أَلْسِنَتُهُمُ السَّاجِدُونَ أَلْسِنَتُهُمُ الْوَارِعُونَ وَاللَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ١

القرآن القائل : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٢

« المسلمین ، ولكنّه كان يسعى لذلك في ظلّ رئاسته وحكمه ومحوريّته ، لذا لم ينل مراده ولفظ أنفاسه في حال الذلّ والهوان في تركيا عند السلطان عبدالحميد العثمانيّ . ومن المشهود والبيّن في كثير من كلماته أنّه كان يريد تجديد وتغيير الإسلام ، وليس فقط تغيير وتغيير المسلمین ، وكان يتمنّى أن يأتي أحد فيكسر الأغلال التي قيّد بها الإسلام المسلمین ويحرّر المسلمین من أسرها . ولا محمل لهذا الكلام غير الغرور والجهل والعمى عن الحقائق والواقعيات .

١- الآيتان ١١١ و١١٢ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢- الآية ٨ ، من السورة ٦٣ : المنافقون .

وأورد القاضي القضاي القضاي في «شهاب الأخبار» الشرح الفارسيّ للكلمات القصار لختام الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلم ، ص ٤١ ، رقم ١٠٣ : الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلِّ السُّيُوفِ .

هست جنتت به زير سایه تیغ شود از تیغ ، آب زهره میغ

يقول : «الجنة تحت ظلال السيوف ، لأنّ السيوف تهطل بقطر غيوم الزهرة» .

أي السيوف التي يدعى بها الكفار إلى الإسلام ، وأفضل السيوف جميعاً سيف «

وكم أبدعت (نیم تاج خانم رشتی) حین وقفت تخاطب الرجال
وتوبّخهم ؛ وقد تدققت الجیوش الروسیّة فی گیلان واعتدت علی أعراض
الناس ونوامیسهم وأموالهم وشرفهم ؛ وتلومهم علی ضعفهم وتواكلهم ،
وتدعوهم إلى الجهاد والدفاع :

شد پاره پرده عجم از غیرت شما

اینک بیاورید که زنها رفو کنند

نوحی بیاید وطوفان وی ز نو

تا لگه های ننگ شما شستشو کنند

نسوان رشت ، زلف پریشان گشاده مو

تشریح عیب های شما مو به مو کنند

اندر طبیعت است که باید شود ذلیل

هر ملتی که راحتی وعیش خو کنند

مرد بزرگ باید وعزم بزرگتر

تا حل مشکلات به نیروی او کنند^۱

« ذی الفقار لأمیر المؤمنین وإمام المتّقین علیّ علیه السلام الذی أرسله الله تعالی من
الجَنّة، وكان علیه السلام یثبت فی الحرب بینما ینهزم الجميع ، وهو مُقدّمٌ غیر معرض
یضرب بذی الفقار قُدماً فیقتل به الکفّار ، ونادی جبرئیل بین السماء والأرض : لَا فَتَى إِلَّا
عَلِیٌّ ، لَا سَیْفَ إِلَّا ذُو الْفَقَّارِ . وقال المصطفی علیه السلام : « کُلُّ لهو المؤمن باطل إلا فی
ثلاث : فی تأدیبه الفرس ورمیه عن قوسه وملاعبته امرأته فإنهنّ حقّ » .

۱- «کشف الغرور أو مفاسد السفور یا وظیفه زنان» تألیف المؤرّخ الشهیر الشیخ
ذبیح الله المحلّاتی ، ص ۲۵۸ ، طبعة ۱۳۶۸ هـ . ق .

تقول : «لقد تمزّق ستر العجم من فقدانکم الغیره ، فهاتوه لترتقه النساء وتصلحه .

ولیأت نوح وطوفانه من جدید لیغسل لطخات عارکم وشنارکم .

ولقد كانت نساء رشت بشعورهن المتناثرة الذعری مظهرًا لتشریح عیوبکم واحداً «

ايوانِ پى شكسته مرمت نمى شود
 صد بار اگر به ظاهر وى رنگ ورو کنند
 آزاديت به دستۀ شمشير بسته اند
 مردان همیشه تکیه خود را بدو کنند^۱
 نعم ، فحين يذهب السيد جمال إلى لندن يقوم هناك سنة ۱۳۰۹
 بتأسيس جريدة عربيّة وإنجليزيّة باسم «ضياء الخافقين» ، لكنّ الإنجليز
 يوقفون صدورها .

ثمّ يدعوهُ سفير تركيا آنذاك نيابة عن السلطان عبد الحميد للسفر
 إلى تركيا ، فتنشأ بينه وبين السلطان علاقة حميمة ومودّة شديدة ، ويبدل
 السيد في مسألة وحدة الدول الإسلاميّة مساع حثيثة ويوافقهُ السلطان على
 ذلك ، لكنّ العلاقة بينه وبين السلطان تتعكّر في عاقبة الأمر ، فيرحل عن
 الدنيا سنة ۱۳۱۴ أو ۱۳۱۵ في شهر شوّال بعد عمليّة جراحيّة أُجريت له في
 حلقيه ، أو بسمّ جرى سقيه إيّاه ، أو حتف أنفه^۲ .

وكان السيد يجلس على مائدته في إسلامبول ، والتي كانت تبسط
 على مائدة عالية وتنسق وفق الطراز الإفرنجّي ، ومع أنّ جميع ضيوفه كانوا
 يتناولون طعامهم بالشوكة والملعقة ، لكنّه وهو المضيف كان ينفرد من

◀ واحداً.

فالأمة التي تخلد إلى الراحة والدعة ستكون في طبعها ذليلة خاضعة .
 وعلى الرجل أن يكون كبيراً وعزيمه أكبر ، ليُستعان بقوته في حلّ المشكلات
 والمعضلات».

۱- يقول : «إنّ الطاق حين ينهدم فلن يمكن ترميمه ولو طُلي ظاهره مائة مرّة .
 لقد عُدت حرّيتك بقبضة السيف ، وعلى الرجال أن يستندوا دوماً على قبضات
 سيوفهم» .

۲- «شرح حال وآثار سيّد جمال الدين أسدآبادي» ص ۳۰ .

بينهم بتناول الطعام بأصابع يده مُعرضاً عن آداب ذلك الزمن وعاداته^١. لقد اتضح ممّا أوردنا أنّ هدف إنجلترا هو بثّ التفرقة بين المسلمين وتشتيت صفوفهم ، وهو الهدف الذي عملت من أجله بمختلف الصور والأشكال في جميع الأزمان ، ولقد أدرك السيّد جمال الدين هذه الحقيقة جيّداً ، ولم يكن يرى طريقاً وعلاجاً لمواجهة غير اتّحاد المسلمين وفتح جبهات الحرب عند الضرورة لحفظ كيان الإسلام وإعادة عزّة المسلمين إلى مركزها الأصليّ ومحورها الحقيقيّ .

وعليه ، فإنّ ما يجري هذه الأيام بين الأمم المختلفة من شيوع الأفكار القوميّة والشعوبيّة التي يدعونها الوطنيّة في أشكال وقوالب : وحدة الشعب الإيرانيّ ، الوحدة العربيّة ، الوحدة التركيّة ، الوحدة الهنديّة ، وغيرها من الأقطار الإسلاميّة بترغيب وتحريض من الاستعمار والترويج الإعلاميّ لأيديه وأبواقه ، وكذلك تشديد وتقوية الصراعات المذهبيّة بين الشيعة والسنة ، وتجزئة الأرض الإسلاميّة والدولة العثمانيّة الواسعة إلى دول صغيرة متنافسة بينها ، كلّ ذلك من منطلق محاربة الفكر الهادف لاستئصال الاستعمار ، أي محاربة الوحدة الإسلاميّة وعودة القرآن ليأخذ موقعه الرياديّ .

ينقل صاحب «أعيان الشيعة» بعد بحث مفصّل عن هويّة السيّد جمال الدين الأسدآباديّ وشخصيّته ؛ عن تلميذه الشيخ محمّد عبده ، قوله :
 أَمَّا مَقْصَدُهُ السِّيَاسِيُّ الَّذِي قَدْ وَجَّهَ إِلَيْهِ أَفْكَارَهُ وَأَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ السَّعْيَ إِلَيْهِ مُدَّةَ حَيَاتِهِ ، وَكُلُّ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ ، أَصَابَهُ فِي سَبِيلِهِ ؛ فَهُوَ إِنْهَاضُ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ مِنْ ضَعْفِهَا وَتَنْبِيْهِهَا لِلْقِيَامِ عَلَى شُؤْنِهَا حَتَّى تَلْحَقَ

١- «شرح حال و آثار سيّد جمال الدين أسدآبادي» ص ٨٢.

الأمّة بالأُمّ العزيزة ، والدولة بالدول القوية .
 فيعود للإسلام شأنه ؛ وللدين الحنيف مجده ، ويدخل في هذا
 تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها على رؤوس
 الطوائف الإسلامية ، وله في عداوة الإنجليز شؤون يطول بيانها .^١

إن أحد الطرق التي يتبعها الإنجليز في سياستهم في إيران وفي سائر
 الدول الأخرى ، بل الطريق الوحيد لهم ، هو تأسيس محافل ماسونية داخل
 الدولة على يد صنائعهم وأذئابهم تبت أنواع الفساد والخراب باسم الحرّية
 في كل مكان ، بما يتناسب وأوضاع البلد ومحيطه ، وتقفو أثر ما تختطه لها
 السياسة الإنجليزية .

يقول في كتاب «تاريخ روابط سياسي ايران وانگليس» (= تاريخ
 العلاقات السياسية بين إيران وإنجلترا) :

حين تظهر الحرّية في آية أمة ، فإنها ستسوقها للموت والخراب
 وتدفعها إلى الفناء والهلاك ، وستوجد طغياناً من الفتنة في تلك المملكة
 يحرق الأخضر واليابس ، ومن سوء الحظ أن هذه النار قد امتدت إلى بيدرنا
 أيضاً وأفنت وجودنا وكياننا .

إن أحد أسباب نشر شعار (الحرّية ، الأخوة والمساواة) هو المحافل
 السريّة الماسونية ، ولقد كتبت في الفصل السّتين موجزاً عن تاريخ هذه

١- «أعيان الشيعة» ج ١٦ ، ص ٢٦٤ . كما أنّ جميع المطالب التي أوردناها هنا بشأن
 المنهج السياسي للسيد جمال الدين نقلاً عن الشيخ محمد عبده كان قد أوردتها بالفارسيّة
 الميرزا حسين خان دانش الإصفهانيّ المقيم في إسلامبول في رسالته ص ٨٦ و٨٧ ، الملحقة
 بكتاب «شرح أحوال وأثار سيد ...» تأليف الميرزا لطف الله . ويقول بعدها : ليس هناك من
 شك أنّ حبّ الشهرة الذاتية وغرور النفس الجبليّ كان له الأثر الكبير في هذه الحركات . فقد
 كان يعجب السيد أن يواجه عدواً أكبر منه ويقاقل خصماً أقوى منه - انتهى .

المحافل السريّة . فمئذ أوائل القرن التاسع عشر لم تطأ قدم أيّة شخصيّة إيرانيّة أرض أوروبا ، ولندن بوجه خاص ، إلّا ودعوه إلى هذا المحفل السريّ وحصلوا على إمضاء منه بالانتماء إليه ، وعتوه بالأخوة والمساواة لهم ، ثمّ أجموا فمه فصار هذا الإنسان بعد ذلك طوع أيدي دعاة الحرّيّة ، يعدّ نفسه تابعاً مطيعاً لتعاليمهم .

وربّما سيأتي اليوم الذي يُنشر فيه على يد عالم ومنتبّع إيرانيّ التاريخ الصحيح لظهور هذا المحفل في إيران ، لكنّ هذا الأمر ظلّ مستتراً حتّى الآن وربّما نُشرت قصّة عنه بين الفينة والفينة ، لكنّ جذوره لم تتضح بعد .^١ وكان لممثلي الدولة الإنجليزيّة الذين يُعيّنون في إيران إخوة من هؤلاء في كلّ مكان ، ينشدون عن بعضهم البعض ، ويتبادلون الألغاز والأحاجي ويبدلون لبعضهم كلّ شيء .

ولم يمتلك الإنجليزيّة هذه المحافل في إيران وحدها ، بل امتدّ الأمر ليضمّ جميع ممالك آسيا وأفريقيا وسائر البلاد الأخرى . ولم يكن مأمورو دولة الإنجليزيّة الرسميّة غرباء في هذه الممالك ، فقد كان لهم أصدقاء كثيرون يعشقون الحرّيّة ويحبّون الإنجليزي ولا يعدّونهم غرباء عنهم ، وكانوا ما إن يقابل أحدهم الآخر حتّى يتعارفوا ويبدلوا لبعضهم كلّ شيء .^٢

١- لم يكن قد نُشر كتاب مفصّل عن هذا المحفل -حسب قول المؤلّف- إلى تاريخ نشر هذا الجزء من أجزاء كتاب «تاريخ روابط سياسي إيران وانگليس» الذي طبع الجزء السابع منه سنة ١٣٤٥ هـ. ش الموافق لسنة ١٣٨٦ هـ. ق ، ولكن في أوائل الثورة الإسلاميّة للشعب المجاهد الإيرانيّ سنة ١٣٥٧ هـ. ش الموافق لسنة ١٣٩٨ هـ. ق ، نشر كتاب مفصّل في ثلاثة أجزاء ضخمة ، تأليف إسماعيل رائين بعنوان : «فراموشخانه و فراماسونرى در ایران» (=المحافل والماسونيّة في إيران) من قبل مؤسّسة نشر أمير كبير .

وينبغي القول إنّ حكومة لندن كانت بلا شكّ من أوّل دعاة المحفل الماسونيّ حين قامت بإدارة محفل ماسونيّ في إيران .
 وحين يتأمل الإنسان أعمال وسيرة رجال بلاط فتح علي شاه ، محمّد شاه وناصر الدين شاه ويطالعها بتمعّن ، يلاحظ أنّ هؤلاء جميعاً كانوا أشخاصاً متداعين متهاكين ومهملين بطّالين لا يمتلكون حماساً ولا رغبة في العمل ، لكأنّ مقدّراتهم ليست في أيديهم ، فلم يكونوا يتصرّفون وفق إرادتهم ، ولم يكونوا بأنفسهم حكّام إيران ، بل كان لإيران حاكم آخر غير الشاه والصدر الأعظم .

فحين يشاهد هؤلاء أنّ اعتماد الدولة الرجل القويّ الوحيد في إيران يحكم يوماً ثمّ يُقتل وأعوانه وأنصاره وأولاده في يوم آخر ، ويؤتى بالميرزا شفيع ليجلس مكانه ، فإنّ رجال البلاط سيغرقون في التفكير بأنّ الشاه ليس هو الذي أزاله فأتى بأخر مكانه ؛ وحين لا يتركون الميرزا أبا القاسم قائم مقام في مقام الصدر الأعظم سنة واحدة ، بينما يحفظون الحاجّ الميرزا آقاسي في ذلك المقام أربع عشرة سنة ، فإنّ من الواضح أنّ ذلك لم يكن من عمل الشاه . وكذلك الأمر للميرزا تقي خان أمير كبير حين يقتلونه في قدرته وقوّته تلك ويُجلسون الميرزا آقا خان نوري على مسند الصدرة ، يفهم الجميع أنّ ذلك لم يكن عمل الشاه ، فهناك يدٌ أخرى قتلت الميرزا تقي خان وأجلست الميرزا آقا خان مكانه .

إنّ المراسم والتشريفات التي وضعت لدخول المحفل تُذهل كلّ وارد جديد للمحفل وتصيبه بالدهشة ، فيفقد إرادته ، ويرى نفسه أمام أشياء تخرجه عن طوره وسيطرته ، وحينذاك يأخذون منه تعهداً ، فيرى نفسه مرتبطاً بذلك المحفل إلى آخر عمره ، لا رجعة بيده في أمره ، بل ينبغي تنفيذ أوامر المحفل بلا مناقشة للوصول إلى الجتّة الموعودة ، وهي الحرّيّة

التامة التي يرتع فيها جميع سكان العالم ، وحينذاك تطبق الحرّية والمساواة والأخوة في أرجاء العالم أجمع .^١

ثمّ يورد شرحاً مفصلاً للتخريب والإفساد الإنجليزيّ للأمور فرنسا قبل الثورة على يد صنائعهم من أفراد الماسونيّة الذين أعدّوهم لذلك ، والذين نشروا الفوضى هناك ليُدْمروا فرنسا باسم الحرّية والثورة فيُسقطوا بذلك اعتبار منافسهم الوحيد في أوروبا ، وقد قاموا بذلك فعلاً ، ثمّ يقول :

ويمكن القول إنّ تاريخ إيران في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجريّ يُماثل تماماً تاريخ فرنسا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلاديّ ، فإيران كان لها خصمٌ ، بعد حكم طويل لناصر الدين شاه لما يقرب من خمسين سنة والمماثل لملك فرنسا لويس الخامس عشر ؛ هو نفسه خصم فرنسا ، وقد تصرّمت أيام سلطنة ناصر الدين شاه في الملذّات والمتع .

ونتيجة لدسائس الإنجليز ، فقد فصلت عن إيران - أيام حكم هذا الملك - جميع أفغانستان ، نصف منطقة سيستان ونصف منطقة بلوچستان ، وحين توفي ناصر الدين شاه ترك هو الآخر شعباً متخلفاً يفتقر إلى جميع مستلزمات المدنيّة والرقّيّ .

ولم تترك جارتا إيران القويتان طيلة فترة الخمسين سنة هذه أيّة فرصة لتقدّم إيران ، ففضت على كلّ من كان يفكر بتقدّم إيران ورقّيّها ، وكان حكام إيران من عملائهما .

١- يرجع إلى الكتاب التالي لزيادة اطلاع الراغبين :

Roman Catholicism and Freemasonry by : Dudley Wright . London 1922

وانظر : «تاريخ روابط سياسي إيران وانجليس در قرن نوزدهم» ج ٧ ، ص ٢ و ٤ .

وقد أحس ناصر الدين شاه والصدر الأعظم في السنوات الأخيرة لسلطنته مدى احتيال هؤلاء ومكرهم ، فأبعدا من كان في البلاط منهم ، وأغلقت محافلهم وقطعا السبل أمام دعاة الفتنة ، لكن ذلك لم يدم طويلاً ، ففي هذه الأيام القصيرة سقط ناصر الدين شاه قتيلاً برصاصة الميرزا رضا الكرمانى بتحريك من السيد جمال الدين .

وخلف ناصر الدين شاه على الحكم شخص كان أسوأ ممن سبقوه وأضعف عزماً وإرادة ، وأقل حماساً لمملكته وسلطنته ، وكان من أهل البذل والعطاء ، ولم يكن مختاراً في نفقاته ومصاريفه ، فاستحال في حكم ملك كهذا إجراء أي نوع من الإصلاحات في شؤون المملكة .

وكانت هذه المحافل والجمعيات تهيئ أسباب الفوضى والفتنة والفساد في إيران ، وكانوا يطلقون على هذه الفوضى نهضة قومية ، ولقد صنعوا انقلاباً مزيفاً لم يكن نابغاً من روح الشعب الإيراني .

وينبغي تسمية هذه الفوضى بفوضى مثيري الفتنة التي أقامتها المحافل السرية في إيران لحساب السادة الجالسين في المقصورات على ضفاف نهر التايمس لإخافة الروس وتحذيرهم من النفوذ الإنجليزي في إيران ، وسأورد فيما بعد في فصل خاص تفاصيل التدقق الذي حصل على السفارة الإنجليزية المقارن لسفر جورج تشرشل إلى قم متنكراً في لباس الزهد والتقوى باسم الأخوند الطالقاني .

لقد أعلق ناصر الدين شاه هذه المحافل وشئت أتباعها بعد بليّة رجي ، فلم يكن لأحد في زمنه الجرأة في إظهار هذه الشعارات ، وإذا ما كان هناك أتباع لهذه المحافل فإنهم كانوا مختفين تماماً ، لكن هذه المحافل استعادت رونقها في زمن مظفر الدين شاه وخاصة بعد عزل أتابك إلى مدينة قم ، لكنّها بقيت في طور السرية والجديّة ، حتى وجدوا فرصة

للفوضى بضعف الدولة ودعوة أمين الدولة إلى التحرر ومجيء الميرزا أبي القاسم خان ناصر الملك إلى الحكم ، وكان من أركان الماسونيّة في إيران ، حيث جرى إعادة محفل هؤلاء السادة من جديد ، وكانت الأوضاع مهيبّة لنشرهم شعاراتهم وبثّهم دعوتهم^١.

ولقد سعت إنجلترا -كلّما أحسّت أنّ خطر الروس يتهدّدُها- إلى مواجهته عبر وسائل أُخرى ، ففي حرب كيريمه كانت فرنسا في عون الإنجليز ، وفي سنة ١٨٧٨ م كان مؤتمر برلين هو المغيث لإنجلترا ، وفي سنة ١٩٠٤ م كانت اليابان هي المنقذة لإنجلترا من الخطر الروسي المحدق بها ، فأعطت الإنجليز الحرّيّة في إنهاء الوجود الروسي في إيران ، وفي إذلال أتاك والهيمنة على دولة إيران .

ولقد أنهوا إلى الأبد نظام السلطنة القاجاريّة ، وأقاموا في أرجاء إيران حكماً لن يُفْلَح معه الشعب الإيرانيّ أبداً ، هذا الحكم الذي لا يزال موجوداً منذ خمس وأربعين سنة ، ولا يعلم إلاّ الله وحده متى سيمكن للشعب الإيرانيّ النجاة من هذا الفخّ . وعلى إيران أن تتحمّل المحنة وتتجرّع عذاب الصبر حتّى تمتدّ يدٌ من الغيب فتنقذها . وما أجمل قول من قال : **إِنَّ الْحُرِّيَّةَ هِيَ السُّمُّ الْإِنْجِلِيزِيّ الْمُهْلِكُ**^٢.

وكان تأريخ كتابة ونشر هذا الكلام حسبما ورد في أوّل الكتاب سنة ١٣٤٥ هجرية شمسيّة ، وكان قد مرّ على مجيء رضا خان إلى الحكم - بانقلاب عسكريّ دبره نرمان الوزير الإنجليزيّ المفوض بواسطة السيّد ضياء - مدّة خمس وأربعين سنة ، فقد وقع ذلك الانقلاب العسكريّ في

١- «تاريخ روابط سياسي إيران وانجليس» ج ٧ ، ص ٣٨ إلى ٤١ .

٢- «تاريخ روابط سياسي إيران وانجليس» لمحمود محمود ، ج ٦ ، ص ٤٢٥ .

الثالث من برج الحوت (الثالث من إسفند) سنة ١٢٩٩ هجرية شمسية ،
(وعُرف في التاريخ باسم انقلاب نِزَمان) ، ويوافق ذلك حسب التاريخ
الإسلامي ، أي التاريخ القمري سنة ١٣٤١ هجرية قمرية .

ولكن ولله الحمد وله الشكر ، فقد أنهى ذلك الحكم الاستعماريّ
البغيض في شهر بهمن لسنة ١٣٥٧ هجرية شمسية الموافق لربيع الثاني
١٣٩٩ هجرية قمرية ، وقد انقضى على تأريخ نشر الكتاب خمس وعشرون
سنة ، وذلك بحركة وانتفاضة الشعب الإيراني المجاهد والمثابر ، ولاذ
محمد رضا خان ابن رضا خان بالفرار من إيران وتحطّم إلى الأبد ذلك
النظام الفاسد .

ولقد أثمر بحول الله وقوّته الصبر على المحن والمصائب ،
واستشهاد مئات الآلاف من الإيرانيين بيد نظام الشاه الطاغوتيّ وبيد نظام
صدّام العفلقيّ وحربه الظالمة المفروضة ، أثمر ذلك في إيصال الثورة إلى
هدفها وغايتها ، ولكن يبقى على عاتق الشعب الإيراني المسلم أن يسجدوا
لله شكراً على نعمائه ، وأن يكفّوا عن الانتقادات والكلام الذي لا طائل
وراءه ، وأن يبادروا إلى تقوية ودعم النقاط الإيجابية في الحكومة ،
ويرمموا النقاط السلبية ، وأن يكونوا بصدد الإصلاح ، فبحمد الله صار
الوطن وطنهم والأرض أرضهم ، وأنّ من أهمّ الواجبات على كلّ فرد غيور
أن يحفظ بيته الذي يمثل الصائن والحافظ لعرضه وناموسه ، وأن يصونه
من عبث أيادي الأجانب .

وَلَيْنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيْنِ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ^١

إنّ التبعية لولاية الفقيه لازمة ، والحضور في صلاة الجمعة واجب ،

١- الآية ٧ ، من السورة ١٤ : إبراهيم : وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ... الآية .

وحفظ وصيانة الحكومة الإسلامية من أهمّ الفرائض .

يقول مؤلف «تاريخ روابط...» في ذكره لمقدمات السلطنة البهلوية :
 وكان الميرزا أبو القاسم خان مهرج ناصر الملك في هذا التاريخ
 نائب السلطنة ، وهو الشخص الذي تلقى درس السياسة في إنجلترا وتخرّج
 من نفس المدرسة التي درس فيها اللورد كرزون المعروف بالحيلة
 والتزوير والمكر ، وكان الذين يتصلون به تلك الأيام يعلمون أيّ طبيعة
 وذوق خاصّ كان يمتلك ، وكان على وجه خاصّ من أولئك الذين يتحدّثون
 تلك الأيام عن إنشاء السكك الحديدية في إيران ، كلّ ما في الأمر أنّه
 لم يكن يمتلك الجرأة كالآخرين ليعزف مثلهم على هذه النغمة .^١

وكان اللورد كرزون يشغل في ذلك الوقت منصب وزارة الخارجية
 الإنجليزية ، وكان له عداة للإيرانيين والمسلمين ، ليس لكونه مسيحياً تابعاً
 للسيد المسيح - فمثل هؤلاء ، لا يملكون أساساً ديناً ومذهباً - ولكن لأنّه
 مثل غلادستون - رئيس الوزراء الإنجليزي الأسبق - كان الفارس الأوحدهم
 لمعركة السياسة ، وكان يدرك جيّداً أنّ الإسلام هو المانع والعائق لنفوذهم
 وعملهم في الدول المستعمرة .

لقد أدرك هؤلاء - خلال سوابقهم الاستعمارية لثلاثمائة سنة - أنّ
 سبيل نفوذهم وحفظ مستعمراتهم سهلٌ يسير ، لكنّ هذا العمل كان يصطدم
 بسدّ ومانع في الدول الإسلامية ، سواء في بدء بسط النفوذ والحرب ، أو في
 زمن الحفاظ عليها ، فلقد كانت آيات القرآن التي تمثّل برنامج عمل
 المسلمين تغلق أمامهم سبيل العمل .

وكما يُعدّ الذئبُ عدوّ الراعي ، لأنّه يمنعه من اختطاف الخراف

١- «تاريخ روابط سياسي إيران وإنجليس» ج ٨ ، ص ٢٣٤ .

وقتلها وازدادها ، فقد كانوا كذلك أعداء للقرآن ، لا فرق في الأمر أكانوا مسيحيين صهاينة في مسلحهم ، أو يهوداً صهاينة ، أو كانوا لا يمتلكون أصلاً عقيدة ومسلماً خاصاً .

وكان عصر كرزون عصر أعمال الضغط على الأمة والدولة الإسلامية ، إلى الحد الذي كان يُرهق رجال السياسة والمؤمنين والمليتمين ويصيبهم بالعجز والتداعي ، ويسلب منهم القدرة على العمل والمبادرة ، ويُبقي أسياهم في أغمادها .^١

ففي زمن تصدي الميرزا حسن خان مشير الدولة لرئاسة الوزراء ، وكان معدوداً في الرجال الملتزمين الإيرانيين من ذوي النزاهة والفكر الصائب ، لم يكن خاضعاً لأوامرهم ، ولم يكن ينفذ تعليماتهم ، لذا كانوا يأتون إليه بكل سهولة بملاحظات من السفارة الإنجليزية مما أجبره على الاستقالة ، فخلفته تشكيلة وزارية كانت تعمل حسب أوامرهم .^٢

١- على الراغبين بالأطلاع على الأوضاع الداخلية لإيران وسير الأمور فيها ومقدار تسلط الإنجليز على مقدرات هذا البلد وفي إيجاد الفتن والقلاقل ، فليراجع كتاب «تاريخ بيست ساله إيران» (= تاريخ إيران خلال عشرين عاماً) تأليف حسين مكّي بأجزائه الثلاثة ، حيث عنوان الجزء الأول باسم «كودتاي ١٢٩٩» (= انقلاب ١٢٩٩) ، والثاني باسم «مقدمات تغيير السلطنة» ، والثالث باسم «انقراض القاجارية» ، وكذلك كتاب «زندگانی سياسي أحمد شاه» (= الحياة السياسية لأحمد شاه) تأليف حسين مكّي ، وكتاب «انقراض قاجارية تاريخ سياسي إيران» تأليف ملك الشعراء بهار . وقد استعار هذا الحقيق قبل أربع وأربعين سنة - كنت أدرس حينذاك في الحوزة العلمية في قم - هذه الكتب كأمانة من آية الله العظمى الحاج السيد أحمد الشبيري الزنجاني رضوان الله عليه عن طريق ولده العزيز آية الله الحاج السيد موسى الزنجاني وهو من أعزّ الأحبة الأجلاء للحقير أدام الله أيام بركاته وجعله ذخراً لنا وللمسلمين ، ثم أعدتها بعد مطالعتها كاملة .

٢- أينما لمحننا في التأريخ اسم مشير الدولة تبادر إلى ذهننا الأمانة والاستقامة ⇨

يكتب مشير الدولة يوماً إلى الوزير الإنجليزي المفوض :
أرى نفسي مجبراً لأذكركم بهذه الحقيقة : لو نحو القوّة العظيمة
للبحريّة الإنجليزيّة من ورائكم ، وأزاحوا عني القوّة الضعيفة لدولة إيران ،
ثمّ وضعوا آنذاك شخصيّة مشير الدولة ومارلينج في كفتي ميزان ، فلن
يكون أكيداً أن ترجح كفة الميزان الثقيلة لصالحكم . لذا فإنّ شخص مشير
الدولة لا يسمح لشخص مارلينج أن يكون له أسلوب خشن فظّ كهذا^١ .
وقد تزامن عهد اللورد كرزون مع مجيء مارلينج كوزير مفوض ،
ومجيء نرمان مدبّر الانقلاب العسكريّ ، وإزالة أساس السلطنة القاجاريّة ،
ومجيء البهلويّ إلى الحكم وتنفيذ المقاصد الإنجليزيّة المشؤومة على يد
رضا خان .

وأورد في كتاب «زندگاني سياسي أحمد شاه» تأليف حسين مكّي ،
أن اللورد كرزون وزير الخارجيّة الإنجليزيّة ، قال : في الواقع أنّ على إيران
أنّ تعين إلى الأبد مقدراتها ومصيرها بمساعدتنا^٢ .
ويقول أيضاً : لقد ورد ضمن كلمة اللورد كرزون وزير الخارجيّة
الإنجليزيّة قوله : ولكن من جهة أخرى فإنّ امتنع البرلمان الإيراني عن

« والرأي الصائب ، له كتاب «إيران باستان» (= إيران القديمة) وهو كتاب مفصل في ثلاثة
أجزاء ، وكتاب «إيران باستاني» (= إيران الأثريّة) في جزء واحد وهو أكثر اختصاراً من الأوّل .
ويعدّ هو وأخوه آقا ميرزا حسين خان مؤتمن الملك بيرنيا المعروف بإخلاصه وأمانته
وتديّنه وفكره ، من رجال السياسة الإيرانيين الزيهين في الكثير من الأدوار ، وقد شغلا
مناصب وزير ووكيل وزير .

١- مجلّة (خواندنيها) ، رقم ١٠ ، سنة ٣٩ ، السبت ٢٧ أبانماه ١٣٥٧ هـ.ش .

٢- «زندگاني سياسي سلطان أحمد شاه» تأليف حسين مكّي ، الطبعة الثانية ، أورده
في موضعين من الكتاب : الأوّل ص ١١ ، والثاني ص ١٢٤ و ١٢٥ ضمن كلمة اللورد كرزون .

الموافقة على الاتفاقية (اتفاقية آب ١٩١٩ م) فإن على دولة إيران أن تمضي لسبيلها^١.

أقول : وردت كلمة كرزون هذا في ١٧ نوفمبر ١٩٢٠ م ، الموافق للخامس والعشرين من شهر آبان ١٢٩٩ هـ . ش ، ولأن هذه الاتفاقية لم يُصادق عليها من قبل أحمد شاه الذي كان ملكاً لإيران ، لذا فقد قدّم مشير الدولة استقالته مدفوعاً بالملاحظات التي أرسلت إليه من السفارة الإنجليزية ، وخلفته الحقيبة الوزارية للقائد العسكري سبهدار تنكابني ، ثم وقع بعد ثلاثة أشهر من خطاب اللورد (أي في الثاني من إسفند ١٢٩٩ هـ . ش) الانقلاب العسكري الإنجليزي على يد نرمان الوزير الإنجليزي المفوض في طهران باسم انقلاب السيد ضياء الدين ورضا خان القزاق ، وكان لقبه آنذاك مير بنج .

ويقول كذلك : يقول الدكتور مصدق في المجلس في كلامه ضد وثوق الدولة بشأن الاتفاقية :

إنّ أساس التبعية للإسلام هو اليوم في مملكتنا أقوى ، لأنّ المسلم الحقيقي لا يستسلم إلا إذا قضوا على حياته ، ولهذا تقوم الدول المسيحية في عواصمها ببناء المساجد لكسب المسلمين من هذا القبيل ؛ لكنّ دعاة التغيير السطحيين من عديمي الفكر يمكن أن يستسلموا بمجاملة واحدة^٢ .
ويضيف في كلامه : لقد أفضى المجلس القاجارية عن السلطنة زمن حقيبة مستوفي الممالك بعد التاسع من آبان ١٣٠٤ هـ . ش ، فقرّر أصحاب

١- «زندگانی سیاسی سلطان أحمد شاه» ص ١٢٣ و ١٢٤ .

٢- «زندگانی سیاسی سلطان أحمد شاه» تأليف حسين مكّي ، ص ١٦٣ و ١٦٤ ، الطبعة

الثانية .

المناصب المهمة في طهران فيما بينهم قلب الحكومة وتغييرها بمجرد الحصول على موافقة الشاه (أحمد شاه)، وكان أخو الشاه (السلطان محمود الميرزا) قد جاء إلى طهران هو الآخر، وكانت مقدمات هذا العمل جاهزة بكل معنى الكلمة، ولو بادرت طهران في هذا الأمر لتابعتها أيضاً سائر الولايات بلا شك.

لكن أحمد شاه - الذي كان في الخارج - أبدى معارضته من جديد فلم يوافق على ذلك، ممّا أثار حفيظة الكثير من مريديه، لكن رسالة وصلت من هذا الملك توضّح جريان الأمور وتعلق أمام المخالفين طريق الاعتراض، فقد كتب لهم: إنّ مملكة إيران أشبه بمريض جعله ضعف النقاهة المتמادية متهاكاً، فهو بحاجة إلى الراحة والهدوء، ولقد اقترح عليّ حتى أصدقائي الذين لن يغيبوا عن خاطري أبداً من الإيرانيين الطيبين الأحرار حقاً أن أعود بالقوة إلى المملكة، ويبدو أنّهم كانوا قد أعدوا مستلزمات ذلك.

ولقد وجدتُ بعد دراسة كاملة لهذا الأمر أنّ عودتي لن تكون في صالح المملكة، لأنّه ينبغي لهذه العودة أن تحصل عن طريق الصراع، ممّا سينجرّ إلى الانقسام مجموعتين واتّساع رقعة الأمر، فالأمور الداخليّة لإيران لا تحلّ المشكلة لوحدها، ولستُ راغباً بأي شكل في حلّ المشكلة السياسيّة. لذا فإنّ إراقة الدماء أمرٌ لا طائل وراءه، وسيوجب ذهاب شخص ومجيء أشخاص آخرين مكانه.

ومع إبداء الامتنان لهؤلاء الأصدقاء، أنصحهم أن يضحّوا لأجل المملكة فيحترزوا عمّا ينجرّ إلى الفوضى الداخليّة.

وبالطبع فإنّ أحداً لن يمكنه أن ينسب إليّ الخوف، لأنّ هذا الصراع

والثورة المسلّحة ستحصل في غيابي .^١

ويُحضر أتاتورك - رئيس الحكومة التركيّة الجديدة - أنوشيروان سبهدي - سفير إيران في تركيا - فيسلّمه رسالة إلى أحمد شاه يدعوها فيها إلى العودة إلى إيران ، ويضع تحت تصرّفه قوات كافية من الأكراد الأتراك والإيرانيين ليعود من غرب إيران إلى مقرّ سلطنته ، فيقول أحمد شاه في جوابه : أبلغه شكري لذلك ، فيردّ سبهدي : ليس هذا ردّاً : أيوافق جلاله الملك على هذه الدعوة أم لا .

فيجيب الشاه : لم يحدث في قاموس سلسلتنا أن استعاد أجدادي أو حفظوا تاجهم وعرشهم بمساعدة دولة خارجيّة، أو أن يكونوا قد خلّفوا لي هذا العار . تشكّر فقط من الطرف المقابل ، وقل : لم يوافق !

ثمّ يقول لسبهدي : لو كنتُ راغباً بالعودة إلى إيران بوسائل غير مشروعة لخضعتُ للإنجليز ، ولأُحيتُ رأسي أمام طلباتهم .^٢

ويكتب الشاه المخلوع محمّد علي الميرزا عدّة مرّات رسائل إلى ابنه ويطلب منه أن يتدخّل في أمور المملكة ، حتّى أنّه يجتمع بابنه السلطان أحمد شاه في سفره الأوّل إلى أوروبا حال وصوله إلى إسلامبول ويرجو منه أن يجيب أباه إلى طلبين ونصيحتين فيعمل بهما :

أولاً : أن يتصرّف مع جاراته الجنوبيّة تصرّفاً مناسباً ، ويلبّي بعض طلباتهم .

وثانياً : أن يتدخّل شخصياً في الأمور الجارية في الدولة ، فيطبّق نظره عملياً في جميع القضايا والأمور .

١- «زندگانی سیاسی سلطان أحمد شاه» ص ٢١٣ و ٢١٤ .

٢- «زندگانی سیاسی سلطان أحمد شاه» ص ٢١٥ .

لكن السلطان أحمد شاه لم يخضع لذلك ، وقال في جوابه : إنَّ القانون الأساسي لم يخوّلني ذلك ، ولا يمكنني إلا أن أمتلك جانباً تشريفيّاً .

ويرى محمّد علي الميرزا مجبراً في النهاية للاستعانة بالمرحوم احتشام السلطنة - سفير إيران الكبير في البلاط العثماني - فيطلعه على الأمر ويطلب منه التوسّط من قبله في المباحثة مع ولده السلطان أحمد شاه في الموضوعين اللذين نصحه بهما وأن يطلب منه تنفيذهما بأيّ نحو ممكن .

ويردّ السلطان أحمد شاه على احتشام السلطنة في حضور والده محمّد علي الميرزا : إنَّ القانون الأساسي بمثابة عقد عمل بين شخصين ، ولستُ أنا الذي نظّم هذا العقد ، ولقد أمضيتم عليه كي تنقذوه !

لقد وجدتُ نفسي فعلاً أمام أمر مقضيّ ، ولن يمكنني أن اتخطّى هذا العقد والموادّ المذكورة فيه بأدنى شيء ، فهذا القانون الأساسي للمملكة هو عقدٌ عمل بين الشعب والشاه . وقد وجدتُ نفسي حين وصلتُ إلى السلطنة أمام أمر قد أبرم ، فلم يمكنني رفضه أو التحايل عليه . ولو تمّت المصادقة على هذا القانون في زمني لما أمضيته بكيفيته هذه ، ولَوْضَعْتُ حقوقاً لنفسي . والآن أيضاً إن جرى إعادة النظر في القانون الأساسي فأعطاني الشعب الإيرانيّ صلاحياتٍ للعمل لتدخلت بالطبع ، وإلاّ فلستُ حاضراً بأيّة صورة أن أعمل أي شيء يُعدّ خلافاً للقانون الأساسي وتخطّ له .

أمّا بشأن أسلوب تعاملي وسلوكي مع الإنجليز وسائر الدول المجاورة ، فسأعمل وفق ما تقتضيه مصالح المملكة ، ولو انجرّ ذلك إلى إقصائي عن السلطة أو انقراض السلسلة القاجارية^١ .

وتبيّن هذه المسألة بوضوح مدى احترام السلطان أحمد شاه للقانون

١- «تاريخ زندگانی سیاسی احمد شاه» ص ٢١٦ و ٢١٧ .

الأساسي للمملكة ، فلم يكن مستعداً للقيام بإقدام يعاكسه ويخالفه^١ .
وقد كتبت عنه الجرائد والمجالات في أواخر عهد سلطنته ، وخاصة
في سفراته الإجباريّة إلى الخارج ، فنسبت إليه التهم بتحريك الماسونيين
الإنجليز ، وذكرته بما لا يُستساغ ، لكن ذلك السلطان طاهر الذليل ، كان
مصوناً منزهاً من ساحة هذه التهم والافتراءات .

وأورد أيضاً في «تاريخ زندگاني سياسي ...» : كان عارف القزويني
يمتلك عداءً قديماً للقاجاريّة ، لذا فقد كان له دور مهمّ بإعلامه المسموم
المضادّ لسلطنة أحمد شاه ، ومنشغلاً بالمسرحيات والعزف والغناء
الجماعيّ وأشعاره الكاذبة التي كان ينشدها لصالح قائد الجيش
(رضا خان) . وكان مدمناً على الأفيون ، ولقد كوفئ على الخدمات التي
قدّمها لرضا خان بأن عيّن له إلى آخر عمره راتباً شهرياً يعادل راتب نقيب
في الجيش ، فاختار همدان وسافر إليها ، ثمّ ندم هناك ندماً لا يوصف إلى
آخر عمره على ما اجترحه ، حتّى مات أخيراً في بؤسه وشقائه .
وقد أنشد عارف أشعاراً ضدّ أحمد شاه نورد بعضها هنا :

به مردم اين همه بيداد شد ز مركز داد

زديم تيشه بر اين ريشه هر چه بادا باد

پس از مصيبت قاجار عيد جمهوری

يقين بدان بود امروز بهترين اعياد^٢

١- «تاريخ زندگاني سياسي سلطان أحمد شاه» ص ٢١٨ .

٢- يقول : «لقد صُبّ كلّ هذا الظلم على الناس من مركز العدل ، فضررنا بفؤوسنا على
هذه الجذور وليكن ما يكون .

ولقد خلف مصيبة القاجار عيد تأسيس الجمهوريّة ، فاعلم أنّ هذا اليوم كان أفضل ⇨

خوشم که دست طبیعت گذاشت در دربار
 چراغ سلطنت شاه بر دریچه باد
 تو نیز فاتحه سلطنت بخوان عارف
 خداهش با همه بد فطرتی بیامرزاد^۱
 وله كذلك أشعار غزلیة كاذبة معروفة :
 سُوی بلبل ، دم گل باد صبا خواهد بُرد
 خبر مقدم گل تا همه جا خواهد برد
 مُژده ده مُژده جمهوری ما تا همه جای
 هاتف غیب به تأیید خدا خواهد برد
 سَر بازار جنون ، عشق شه ایران را
 در اروپا چه خوش انگشت نما خواهد برد
 کس نپرسید که آن گنج جواهر کز هند
 نادر آورد ، شهنشه به چه جا خواهد برد؟^۲

﴿ الأعباد﴾.

يقول : «ويفرحني بأن أرى يد القدر وضعت مصباح سلطنة الشاه في البلاط في مهبّ الريح.

فاقرأ فاتحة السلطان يا عارف ، وليغفر له الله مع كلّ سجيّته الرديئة».

۲- «تاريخ زندگانی سیاسی سلطان أحمد شاه» ص ۲۲۲ إلى ۲۲۶ .

يقول : «سينقل النسيم أنفاس الوردة إلى البلبل ، وسينقل نبأ قدوم الوردة إلى كلّ

مكان .

فهاث البشارة ، فبُشّرى جمهوريتنا سينقلها هاتف الغيب بتأييد الله إلى كلّ مكان .

من معبده ، سوف يشير العارف مستهزئاً إلى عشق ملك إيران في أوروبا .

ولايسل أحد: أين سيأخذ ملك الملوك ذلك الكنز الذي جاء به نادر شاه من الهند؟».

تا که آخوند وقجر زنده در ایرانند این
 ننگ را کشور دارا به کجا خواهد برد ؟
 زاهد ار خرقة سالوس به میخانه برَد
 آبروی همه میکدهها خواهد بُرد
 شیخ طرّار به تردستی یک چشم زدن
 اثر از مصحف و تسیح و دعا خواهد بُرد
 تاج کیخسرو و تخت جم اگر آبرویی
 داشت آن آبرو این شاه گدا خواهد بُرد
 باد سردار سپه زنده در ایران عارف
 کشور رو به فنا را به بقا خواهد بُرد^۱
 يقول الحقیر : يُمكن بالأشعار المذكورة في «ديوان إيرج ميرزا»
 وبعلاقاته الحميمة مع عارف القزويني استنتاج درجة الفساد في أخلاق
 عارف ، والتي مثلت في الفساد والغبي أقصاه ومنتهاه .
 وجاء كذلك في الكتاب المذكور : أن الإنجليز اقترحوا إنشاء شبكة

۱- يقول : «مادام هناك قاجار ورجال دين في إيران ، فماذا سيفعل حاكمو البلد بهذا العار؟».

فالزاهد إن أخذ معه خرقة المکر إلى الخمارة ، فسيريق ماء وجه جميع الخمّارات .
 وسيجعل الشيخ اللص بطرفة عين واحدة ، المصحف والمسبحة والدعاء تختفي أثراً
 بعد عين .

وإن كان لتاج كىخسرو و(تخت جم) ماء وجه فإنّ هذا الشاه الشحاذ كان على وشك
 إراقته .

فليعش قائد الجيش الإيراني يا عارف ، فهو الذي سيقود البلد المشرف على الهلاك إلى
 الاستقرار والبقاء».

السكك الحديدية من الجنوب إلى ميناء جز (كز)، فقام أحمد شاه ببيان عيوب هذا الطريق، وقال: إن من الصالح أن تمتد السكك الحديدية في إيران من الشرق إلى الغرب فتساعد تجارة الهند إلى إيران وترانزيت إيران، في حين أن خطوط السكك الممتدة من الجنوب إلى الشمال لها جانب عسكري واستراتيجي فقط، وليست في صالح الشعب الإيراني، فلا يمكنني أن آخذ أموال الشعب، أو بالاقتراب من الخارج، لأصرف ذلك في سكك حديدية ليس فيها إلا الأهمية العسكرية للإنجليز.

ورد الوزير الذي كان يحمل الرسالة على السلطان أحمد شاه قائلاً: لا يمكن إعطاء جواب سلبي بهذه الصراحة إلى الوزير الإنجليزي المفوض، وكان الأحرى أن يكون الجواب أكثر ليونة.

فتأمل السلطان أحمد شاه هنيهة، ثم قال في جوابه: أيها السيد! إن هؤلاء يعرفونني ويعرفونك أفضل مما نعرف أنفسنا، فلو أعطي لهم غير هذا الجواب لفهموا أنه قد كذب عليهم. فالأفضل أن يقال بهذه الصراحة: إنني لا أوافق بأية صورة على هذه الخطة.^١

وأورد أيضاً تحت عنوان: لِمَاذَا كَانَ السُّلْطَانُ أَحْمَدُ شَاهُ مُعَارِضاً

لِاغْتِيَالِ رِضَا حَانَ؟

لم يكن قد بقي على انقراض السلسلة القاجارية وجلسة التاسع من آبان ١٣٠٤ هـ. ش أكثر من شهرين أو ثلاث، وكان السلطان أحمد شاه آنذاك في سويسرا وقد جاءه شخص أو شخصان من أقاربه والمنسويين له لوداعه قبل سفرهم إلى إيران، فأخبراه بعزمهما على السفر إلى إيران وطلباً إذنه لهما بذلك. وقد بدأ كل من الطرفين خلال هذا اللقاء بمعاينة الطرف

١- «تاريخ زندگانی سیاسی أحمد شاه» ص ٢٨٤.

الآخر ، فعاتبهما الشاه : لماذا يندر أن تأتيا عندي ؟ وعتبا بدورهما على أمر آخر .

ثم قال الشاه والدموع تنساب من طرفي عينيه :
لكم الحق أن تفكروا أنني سأكون السبب في انقراض السلسلة
القاجارية ، وأنتي الباعث لسوء حظ الأسرة ، لكنكم تستطيعون امتلاك هذا
النمط من التفكير أو النوايا مادتم لستم في موقع كموقعي . ولو كنتم في
مكاني لصدقتم أن ما فعلته كان في صالح الشعب والمملكة والأسرة
القاجارية .

فأجابه أحدهما مُعَرَّضاً : لقد هيتتم بنفسكم وسائل الانقراض ، فلو
كنتم قد أعطيتم موافقتكم على إنهاء أمر رضا خان لما عانينا اليوم من كل
هذه المشكلات .

فقاطعته الشاه قائلاً : لو كنتما قتلنا رضا خان فرضاً لأوجدوا لنا رضا خان
آخر ! لو كان رضا خان قد قُتل لأوجدوا لنا رضا خان آخر أقسى ألف
مرة ، ولا استغلوا قتل رضا خان ولنسبوا إلينا كل ما يريدون ولتقولوا علينا
الأقاويل ، فلم يكن في صالحنا أن نوافق على اغتيال رضا خان أو إعدامه .
فقال الآخر : ليس في الأمر من معضلة ، فنحن نستطيع ترميم
علاقاتكم مع الإنجليز ، ولن يكون آنذاك من عائق يعيق عودتكم إلى
إيران .

أجاب الشاه بلا تأمل : لو علمتم ماذا كانت طلباتهم لما اقترحتهم
اقتراحاً كهذا ! ولو استسلمت لهم لاكتسبت خطتهم صورتها العملية بهذا
الشرط : أن تُطبّق جميع مطالبهم ، ولكن على يدي أنا . وسيكون نصيبي
في هذه الحال الفضيحة والسمعة السيئة ، في حين سيكون رضا خان كمثل
أهل الجنة .

دعوا رضا خان نفسه يطبق خطّهم ، فستكون الفضيحة والعار في انتظاره في الخاتمة وسأكون أنا من أهل الجنة ، وَالْحُكْمُ فِي هَذَا الْأَمْرِ لِلتَّارِيخِ الذي سيرى الماضي ويشهد المستقبل ، وعند ذلك سيقارن بين الاثنين ويقضي بيننا .

وليس بيدي فعلاً إلا التسليم للقدر .

وأما من انقراض الأسرة القاجارية ، فليكن ذلك ، ولكنني لم أهَيئ أسباب الشقاء لأحد ، ولستُ مستعداً مطلقاً للتسليم لإرادة الآخرين ، فما دامت الدنيا ، وما دام التاريخ فلن ألصق السمعة السيئة لاسمي ، ولكم أن تتصوّروا ما تشاؤون .

فإن وصموني بالجنين فلهم أن يفعلوا ، لكنهم لن ينسبوني إلى الخيانة ، ففي هذا وحده السعادةُ لي ولعائلتي .^١

ولربّما كان كلام بوانكاره رئيس جمهورية فرنسا الأسبق مستنداً إلى هذه الأوّليات حين قال لأحمد شاه - وكان صديقه الحميم ، وكانا يلتقيان غالباً لقاءات حارة غير رسميّة كصديقين - : أعجبُ كيف تعجزون عن إدارة أجهزكم مع كلّ الذكاء والفراسة التي نعرفها عنكم ، ومع هذه الدراية والصلابة التي تمتلكونها؟! ولربّما لم يكن الشعب الإيراني لائقاً ليكون له ملك قانوني يدافع عن الدستور مثلكم! وكان أحرى لكم وأنتم بهذه الكيفية أن تلوا سلطنة مملكة كسويسرا مثلاً ، ليتمكن لشعبها الاستفادة من وجودكم .^٢

وكان قد انقضى على جلسة التاسع من آبان ١٣٠٤ هـ. ش (التي أصدر

١- «تاريخ زندگانی سیاسی سلطان أحمد شاه» ص ٢٨٦ .

٢- «تاريخ زندگانی سیاسی سلطان أحمد شاه» ص ٢١٨ .

فيها المجلس قراره بانقراض القاجارية)، وفي مدينة نيس (في جنوب فرنسا) التي يذهب إليها أغلب اللوردات الإنجليز وسائر أثرياء الدنيا للنزهة؛ وفي دعوة رسمية من قبل أحمد شاه، وقف شاه إيران المخلوع يدافع عن تاجه وعرشه في خطاب مفصل، وكانت كلمته تدور حول تأريخ إيران السياسي، وقد تكلم ما يقارب ساعة كاملة ببلاغة، فبحث عن تأريخ إيران ثم أورد مطالب مهمة عن تغيير السلطنة في إيران، ونُعرض لعدة أسباب عن ذكر محور ومفهوم هذا الخطاب التاريخي^١.

وكان غالباً ما يؤامر رئيس الوزراء الفعلي في الظروف الحرجة، فتتخذ الأمور السياسية باستقلالهم شكلاً آخرًا، ونتيجة لذلك فلم تكن الحياة السياسيّة للدولة تصاب بالركود والشلل.

وكانت وطنيته هذه واتخاذها نهجاً سياسياً هادئاً قد أدى إلى قيام أغلب الصحف الخارجيّة بعد عزل المرحوم المذكور بتمجيده وامتداحه، وكتبت إحدى الصحف في مقالتها هذه العبارة:

لَمْ يَكُنِ الشَّعْبُ الْإِيرَانِيَّ لِيَسْتَحِقَّ مَلِكًا دُسْتُورِيًّا وَقَانُونِيًّا وَوَطَنِيًّا
كَهَذَا.

ولقد دخلت في ذلك الزمن قوّات دولتين متنازعتين فاحتلت إيران، وكانتنا دوماً تسعيان إثر نفوذهما وضعف الحكومة المركزيّة لاستحصال وثائق من المشار إليه.

وقد تظاهر أحمد شاه بالوسوسة، وتمارض مدّة طويلة بهذه الذريعة وأجاد دوره، وكان يسعى لتمويه الأمر، وبذريعة أنّ الأشخاص الموجودين حوله يمكن أن يكونوا ملوثين بالجراثيم، فقد كان يطلب أدوات إعداد

١- «تاريخ زندگانی سیاسی سلطان أحمد شاه» ص ٢٠٠.

الشاى فيقوم بإعداده بنفسه خوفاً من تلوّثه بأيدي الآخرين !
 وكان مبرّر هذا التمارض وهذا الأمر أن لا يمسك بيده قلماً أبداً ،
 وكان لهذا المبرّر لا يمسك بالقلم بيده ولا يوقع بإمضائه أيّ شيء ، وإذا ما
 حدث أن التقى بممثل لدولة أجنبيّة ، وكان له طلب معين ، فلم يكن أحمد
 شاه ليأخذ من أحد شيئاً ، وكان يقول : ضعوا الورقة على المنضدة !
 وسأرسل إلى هيئة الوزراء وأمرهم أن يعطوكم جوابه بسرعة ^١ .
 وكان حين ينصحونه كي يتغلّب على مخالفه ب: شكّل حزباً !
 يردّ: حين أكون ملكاً دستورياً ، فأنا رئيس حزب الشعب ، وسيكون
 كافّة أفراد البلد أعضاء فيه . أمّا إن عزلتُ عدّة قليلة من هذا الحزب
 وميّزتهم عن الآخرين فقلتُ مُستثنياً إنّ هذا سيكون حزبي الخاصّ بي ،
 فسيلزم من ذلك أن أنظر إلى الآخرين باحتقار وأن أعتبرهم لا ينتمون إلى
 حزبي . وسيكون ردّ الفعل على هذا العمل أن الناس سيشكّلون مقابل هذا
 الحزب حزباً آخرّاً ستكون مقاومته بالنسبة لي غير ممكنة ومستحيلّة ^٢ .
 تمعّنوا في القصة التالية التي تبين مدى الوقاحة ، وفي نفس الوقت
 مدى قدرة النفوذ الإنجليزيّ في تلك الفترة وتأثير شيطنتهم ومكرهم :

قَرَارُ الْإِنْجِلِيزِ عَلَى خَلْعِ الْقَاجَارِيَّةِ

... حين أحسّ رؤساء القاجاريّة أنّ الإنجليز في صدد تغيير نظام
 الحكم وعزل أحمد شاه بسبب مخالفته لهم ، عقدوا اجتماعاً بينهم ورأوا أنّ
 في صالحهم أن يتباحثوا مباشرة مع الإنجليز ويأتوا للحكم بشخص آخر

١- «تاريخ زندگاني سياسي سلطان أحمد شاه» ص ٢٠١ .

٢- «تاريخ زندگاني سياسي سلطان أحمد شاه» ص ٢٠٣ و ٢٠٤ .

من الأسيرة القاجارية .

وقد اتخذ قرار في هذا الاجتماع بأن يقوم نصرت السلطنة وعضد السلطان عمّا السلطان أحمد شاه بالسفر إلى أوروبا ومصطحبين معها آقا خان المحلاتي الذي كان الإنجليز يثقون به ، فيذهبوا إلى لندن ويفاوضوا اللورد كرزون وزير الخارجية الإنجليزية مباشرة .

وحين وصلت هذه الهيئة إلى لندن ، طلب الأشخاص الثلاثة مقابلة وزير الخارجية الإنجليزية فحدّد لهم موعد لمقابلته . وقد أوضحوا في هذا اللقاء هدفهم بصراحة ، فقال وزير الخارجية الإنجليزي في جوابهم : إنّ ملفّ هذه القضية في يد المدير العامّ لشؤون الشرق ، وقد ذهب فعلاً في إجازة إلى اسكتلندا ، وسأكتب له رسالة فابحثوا معه الأمر فسيطلعكم على مسار الأمور .

وقد ذهب هؤلاء الثلاثة إلى اسكتلندا وقرعوا على باب البيت الصيفي للمدير العامّ ، ففتح لهم الباب ومنشفة الحّمّام على كتفه ؛ وكان قد خرج توّاً من الحّمّام ؛ وسألهم عمّا لديهم ، فسلمّوه رسالة وزير الخارجية فدعاهم إلى الدخول فدخلوا وجلسوا في غرفة الطعام . وبدأ هناك آقا خان المحلاتي فذكر الغرض من هذا اللقاء وأعقب راجياً : الآن وقد حصلت لديكم النية لعزل السلطان أحمد شاه ، فالأفضل أن يُنتخب للسلطنة أيّ شخص آخر يحظى بقبولكم .

سأل المدير العامّ : أديكم موضوع آخر تطرحونه ؟ فأجابوا بالنفي ، فدفع بيده ورقة وزير الخارجية الموضوعة على المنضدة أمامه ، وقال : لا نستطيع العمل أكثر من هذا مع هذه العائلة التي جعلتنا طوال مائة وخمسين سنة في حرب دائمة مع الروس على كلّ متر .

فنظر الثلاثة إلى بعضهم ، وقال أحدهم : **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** .^١
ثم خاطب المدير العام لشؤون الشرق نصرت السلطنة وعضد
السلطان وأخبرهم أن أحداً لن يتصدى لمزاحمتهم وأن سلامتهم مصونة .
وقد عاد هذان الشخصان إلى إيران عن طريق روسيا ، وكانا وهما في
طريقهما من رشت إلى طهران أن داهمهما عدّة أشخاص مقتنعون في منطقة
إمام زاده هاشم ، فأوقفوا سيّارتهم ونهبوا كلّ ما لديهم ، فراجع نصرت
السلطنة القنصلية الإنجليزيتية في رشت وأخبرهم بالأمر ، فأعادوا لهم
وسائلهم وأمتعتهم التي نُهبَت منهم بعد ٢٤ ساعة بدون أن ينقص منها
شيء .^٢

وكان المرحوم المدرّس رضوان الله عليه مخالفاً لتغيير السلطنة من
القاجارية إلى البهلويّ ، وقد ألقى عدّة خطابات منطقيّة واستدلالية على
رأيه في المجلس ، وقد أرسل قبل اجتماع المجلس في التاسع من آبان
١٣٠٤ هـ . ش ، من قبله السيّد رحيم زاده الصفويّ إلى باريس ليدعو أحمد
شاه للعودة إلى إيران بأيّ شكل ، وكانت رسالة المدرّس مؤثّرة في أحمد
شاه ، وعلى خلاف الردود السليّة التي أعطاها للآخرين فقد قبل دعوة
المدرّس ، لكنّ جملة أمور جعلته يتلكأ بالعودة ، منها : تساهل مفتاح
السلطنة - سفير إيران الكبير - وإتلافه للوقت في إعداد سفينة للسفر إلى
إيران ، فكان يتصرّف كلّ مرّة بالمزاح والهزل فيقول :
أين يريد صاحب الجلالة الذهاب تاركاً أوروبا ذات الجمال الرائع ؟
وكان ذلك بإشارة وتوجيه من الإنجليز .

١- الآية ١٥٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢- «تاريخ زندگانی سیاسی سلطان أحمد شاه» ص ٢٤٢ و ٢٤٣ .

ومن تلك الأسباب : مرور الوقت وسوء الظنّ بتلك الرسالة ، وسوء الظنّ بوليّ العهد ، حتّى انقضى الأمر واجتمع المجلس - وكان غير قانونيّ لفقدانه رئيس المجلس - وكان مستوفي الممالك قد استقال ، وسبقه في ذلك الرئيس الأسبق - مؤتمن الملك ، الذي استقال لنفس السبب - فأصدر بلا مشاورة أو علم مُسبق قراره الفوريّ بخلع القاجاريّة وتنصيب رضا خان لرئاسة الحكومة المؤقتة^١.

لقد كانت هناك جهات عديدة في مجلس التاسع من آبان الذي خلع القاجاريّة من السلطنة ، والتي كان لها دلالة على عدم قانونية ذلك المجلس ، ممّا يمكن أن يسبّب لقائد الجيش (رضا خان) مشاكل فيما بعد ، وتظهر حكومته كحكومةٍ جاءت بالإجبار والإكراه ، لذا عمد البهلويّ إلى إرسال ذكاء المُلك فروغي^٢ إلى أوروبا في مهمّة ليلتقي أحمد شاه في باريس ويحاول تطميعة بأيّة وسيلة ممكنة ليكتب استقالته ويسلمها له فيستلم مقابل ذلك المال .

وقد سافر فروغي فالتقى بالسلطان أحمد شاه وعرض عليه ذلك فردّ عليه بالرفض ، فأضاف فروغي في خاتمة طلبه : لديّ أمر يخولني أن أشتري استقالتك ولو بمليون ليرة !

١- «تاريخ بيست ساله إيران» (= تاريخ إيران خلال عشرين عاماً) الجزء الثالث: «انقراض قاجاريّة وتشكيل سلسله پهلوي» (= انقراض القاجاريّة وتأسيس السلسله البهلويّة) تأليف حسين مكّي ، ص ٣٥٦ إلى ٣٧٠ (ملخصاً).

٢- محمّد علي فروغي ذكاء المُلك من الذين أدوا خدمات هامّة إلى البهلويّ في زمنه ، وقد شغل منصب رئاسة الوزراء لعدّة سنين ، وقد عدّه إسماعيل رائين في كتاب «فراموشخانه وفراماسونرى در إيران» (= المحافل والماسونيّة في إيران) ج ٢ ، ص ٥٣ و ٥٤ ، من فرقة الماسونيّة في درجة أستاذ أعظم ، ونشر صورته بملابس المحفل الخاصّة.

ردّ أحمد شاه وقد امتقع وجهه : لست مستعدّاً للبيع ولو بألف ضعف هذا المبلغ ، فقل لسادتك عني : إنكم توهتمم باطلاً ! وسأشمخ برأسي أمام وجداني وأمام أجيال إيران القادمة ، إنني كنت مستعدّاً أن أقصي عن السلطنة ولا أخون ولا أنكل ، فلم أعمل إلا الواجب الذي أسند لي ، وسيحكم التاريخ أنني أقصيت عن السلطنة والحكم على رغم إرادة الشعب الإيراني .

وعليه ، فاستقالتني سئطهري كما لو أنني تنازلت ولم أعتبر السلطة حقّي المسلم . لذا ، فلن أستقبل ولو أعطيتموني الدنيا بما فيها ^١ .
ولد أحمد شاه بتاريخ ٢٧ شعبان المعظم ١٣١٤ هـ . ق ، وكانت والدته - ملكة جهان بنت نائب السلطنة كامران ميرزا - معروفة بالعفة والعصمة والنزاهة والقدسيّة ، وقد وصل إلى السلطنة سنة ١٣٢٧ هـ . ق ، أي في سنّ الثانية عشرة من عمره ، بعد خلع محمد علي شاه ، وتوّج في السابع عشر من ربيع الأوّل ١٣٣٤ هـ . ق ، وفي تاريخ ١٣ ربيع الثاني ١٣٤٤ هـ . ق ، الموافق للتاسع من شهر آبان ١٣٤٤ هـ . ق ش أقصي عن سلطنة إيران على الرغم من رغبة الشعب الإيراني وإرادته الحقيقيّة تصحبه دنيا من المفاجر . وأخيراً رحل عن الدنيا سنة ١٣٤٧ هـ . ق ، بعد سلسلة من الأمراض المستديمة ، والتحق بعالم الخلود .

ثم حُملت جنازة ذلك المرحوم حسب وصيّته من فرنسا بالطائرة إلى العتبات المقدّسة ، ودفن في كربلاء ، وقد نكّست جميع سفارات الدول الموجودة في بغداد أعلامها احتراماً عند ورود الجنازة إلى بغداد (عدا سفارة دولة إيران التي ظلّ علمها مرفوعاً غير منكّس) وأجريت من قبل دولة

١- «تاريخ زندگانی سیاسی سلطان أحمد شاه» ص ٢٤٥ و ٢٤٦ .

العراق أيضاً مراسم عسكرية من قبل الحرس احتراماً لموكب الجنازة^١. وهكذا وضع أحمد شاه في باريس خاتمة حياته المفجعة ولفظ أنفاسه هناك ، وتولّى عدّة من أصدقائه الأوفياء بعد إجراء المراسم الدينيّة حسب الشريعة المحمّديّة نقل جنازته إلى العراق طبق وصيّته ودفنوها في تلك التربة المقدّسة^٢.

ويقع قبره خلف ضريح سيّد الشهداء عليه السلام في مقبرة الأسرة القاجاريّة رحمة الله عليه رحمةً واسعة ، جعله الله من الواصلين الفائزين مع إمامه الشهيد الذي لاذ بفناء بيته الكريم .

نعم ، كان هدفنا من بيان تأريخ هذا السلطان المظلوم إيراد شاهد لبيان سيطرة وغلبة دولة الإنجليز على دولة الإسلام ، حيث ضربت عرض الجدار باسم الحرّيّة بجميع شؤون حياتنا وإنسانيتنا ، فهؤلاء الأذعياء المتبجّحون لم يتردّدوا طيلة ثلاثمائة سنة ؛ توسّلوا فيها بأنواع الخداع والحيل ، حتّى باسم إلغاء الرقّ والعبوديّة ومنح الحرّيّة والأخوة والمساواة ؛ عن ارتكاب أقسى درجات الاعتداء والأسر والقتل والتعذيب والسجن ، ولم يتورّعوا - وصولاً لنهب الأموال والثروات - عن أيّة جنائية وخيانة^٣ أمّا القرآن

١- «تاريخ زندگانی سیاسی سلطان أحمد شاه» ص ٢٠ و ٢١.

٢- «تاريخ زندگانی سیاسی سلطان أحمد شاه» ، ص ٢٨٩.

٣- يتّضح جيّداً من كيفيّة سلوك أحمد شاه وتصرفه أنّ هدف رافعي ألوية النهضة الدستوريّة ودعاتها الأصليين لم يكن إيجاد محيط المساواة والعدل ورفع الظلم والاستبداد، ولو صحّ ذلك لوصلوا -مع وجود ملك عادل- إلى الكمال المنشود ، ولسمت إيران إلى قمّة العدل والعلم والعظمة والرقّيّ . لقد وردت النهضة الدستوريّة من صوب إنجلترا ، ولقد هبّت ريح السموم المشؤومة هذه من هناك لتبتلع إيران تحت غطاء الحرّيّة الموهومة وترددها لقمة سائغة لغدائها ، لكنّ هذا النداء برز مبرقعاً بقناع ردع ظلم وجناية الملوك المستبدّين وأعوانهم، وتحت لواء محاربة الاستبداد الدينيّ ، أي من علماء البلاط ومؤيدي

الكريم وتعاليمه الباعثة على الحياة فهي حيّة لا تموت ولا يخمد بريق
ساحتها المقدّسة من الدهور وكرّ العصور .

⇨ الحكومة.

وباعتبار نشأة النهضة الدستورية في ظروف الاستبداد العنيف والتهوّر والانغماس
بالمتع والملذّات من قبل الملوك والأمراء ، فقد حظت بقبول عامّة الناس الضعفاء
والمحرومين والعلماء الأغيار المتديّنين ، وحرّكتهم ضدّ نظام الظلم والاستبداد وللسعي
لإيجاد دار للعدالة وإحقاق الحقوق ، غافلين أنّ اسم الحرّية هذا ليس إلّا ألعوبة ودمى تحرّكها
الأصابع من وراء الستار ، أعدت لتخدير مسلمي إيران البسطاء الطيّبين .

ويمكن لمن يتأمّل في كتاب «تنبيه الملة وتنزيه الأمة» للعالم الجليل آية الله النائيني
قدّس سرّه أن يعرف كيف قام هذا الرجل الحكيم بإخلاص ونصح واستدلال قويّ متين
بوضع أسس الحكومة الدستورية معتبراً أنّ سبيل العلاج والطريق الوحيد لنجاة الشعب
الإيرانيّ المظلوم يكمن في إرساء مجلس شوري وطني وتدوين القانون الأساسي الذي يحدّد
من جنایات الملوك المستبدّين ، ومع أنّ استدلاله كان صحيحاً إلّا أنّه لم يكن ليعلم أنّ
مطلب دعاة الحرّية كَلِمَةٌ حَقٌّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ . فقد أراد أولئك أن يعبروا بهذا الجسر على
أجساد شهداء إيران ويعدموا أمثال الشيخ فضل الله النوريّ على خشبة الإعدام ، ويرسلوا
أمثال أحمد شاه داعي الحرّية المظلوم الغيور المتديّن في مطامير الموت والفناء ، ويأتوا
للحكم برضاخان المعتدي المتجاوز . وقد فهم بعض المستبدّين هذه الحيلة فصاروا
لايستسلمون لها ، وصار بعضهم يُجانب التعقّل في حفظ أساس سلطنتهم مهما كانت جائرة .
لكنّ هاتين المجموعتين مخطئتان ، فكلا الاستبداد والنهضة الدستورية أمرٌ خاطئ ؛
والنهضة الدستورية لو جرى تطبيقها بحذافيرها وفق رؤيا النائينيّ لما كانت إلّا كغسل يدي
أمة سوداء ملوّثة بالنجاسة ، فالحقّ هو في دولة الإسلام ، وثورة الشعب على أساس حكومة
القرآن ، وتشكيل الحكومة الإسلامية على الأساس الصحيح والمعنى الواقعي لولاية الفقيه
والتي لم يتحدّث عنها في ذلك الزمان أحد . فقد كان كبرؤاها وعلماءها الصالحون وأعلامنا قد
أنسوا بتلك السيرة النسبية وقبول الظلم النسبيّ ، وقنعوا من ظاهر السلاطين بتديّنهم
الصوريّ ، وكان ذلك خطأً .

وللّه الحمد وله المنة ، فبعد مرور ما يقرب على القرن على آثار الشؤم والجنایة لاسم
الحرّية المخرّب للبيوت ، فقد خطت الأمة الإسلامية خطوات على طريق الواقعية .

فإن كان أعداؤنا لم يؤمنوا بالقرآن ولم تنفذ تعاليمه إلى أرواحهم وقلوبهم ، فإنّ هناك من يدهش ويغمى عليه لسماح نعمة مُحيية واحدة لهذا الكتاب السماويّ ، ومن هو مستعدّ - في سبيل إعلاء كلمة القرآن - للإيثار والتضحية والموت ، وأنّ يقدم روحه وماله وعرضه وأهله ، ولا يقف في عطائه عند حدّ :

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا *
 وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا * قُلْ ءَامِنُوا
 بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ
 لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا *
 وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا^١

فهذه الآيات عجيبة ، وخاصة الآية الأولى القائلة : «وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ» ، والتي يقول بعدها : «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» ؛ مع أنّ حقّ العبارة أن يقول : وما أرسلنا القرآن إلا مبشراً ونذيراً ، لأنّ الكلام كان عن القرآن لا عن الرسول .

وعليه ، فإنّ هذه الآية تبيّن أنّ رسول الله هو حقيقة القرآن ، وأنّ حقائقة القرآن ممثلة في نزول حقائقة رسول الله في البشارة والإنذار .

وعلى هذا الأساس فقد قال أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين في حرب صفّين التي رفع فيها معاوية بخديعة عمرو بن العاص المصاحف على الرماح : لا تلتفتوا إلى هذا القرآن وارموه بالرماح والسهام ، فأنا القرآن الناطق ، أنا كتابُ الله الناطق .

لكنّ العوام لا يرون إلاّ الظواهر ، ولا تنفذ عقولهم إلى اللب

١- الآيات ١٠٥ إلى ١٠٩ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

والحقائق ، فما يرونه في الظاهر يعدّونه ملاكاً للحق ، لذا لم يُصنغوا إلى أمره عليه السلام وأحاطوا به قائلين : سلّم لحُكم الحكَمين وحكم القرآن ، وإلا جعلناك طعمة سيوفنا العشرة آلاف فقطّعتناك إرباً إرباً . قال : امهلوني ساعة ، فقد أشرف الأشر على الفتح ووصل إلى معسكر معاوية . قالوا : لا مهلة في الأمر أبداً . فالخفّاش ينكر وجود الشمس ! هذه الشمس الموجودة التي تمنح نورها الشرق والغرب ؛ فليس إنكاره إلا حجابهُ هو ، وضعف بصره وعماه . ولم يكن له أن ينكر الشمس ، بل كان عليه أن يعالج عينه .

يقول المامقاني : ولقد أجاد الخليل العروضي النحوي لما سُئل : ما تقول في عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؟
قال : ما أقول في حقّ امرئٍ كتمت منابيه أولياؤه خوفاً وأعداؤه حسداً ؛ ثمّ ظهر من بين الكتمين ما ملأ الخافقين .

وقال المُتنبّي الشاعر المشهور في جواب من اعترض عليه في عدم مدحه أمير المؤمنين عليه السلام على كثرة أشعاره :

وَتَرَكْتُ مَدْحِي لِلْوَصِيِّ تَعَمُّدًا

إِذْ كَانَ نُورًا مُسْتَطِيلًا شَامِلًا

وَإِذَا اسْتَطَالَ الشَّيْءُ قَامَ بِنَفْسِهِ

وَصِفَاتُ ضَوْءِ الشَّمْسِ تَذْهَبُ بِاطِلًا

فوجود الإمام حقيقة النور ، وحقيقة القرآن ، وهو البشير والندير ، وهو المحيي والمميت .

روزي كه شود إذا السماء انفطرت

وأنگه كه شود إذا النجوم انكدرت^١

١- يقول : «في يوم يتحقّق فيه إذا السماء انفطرت ، وحين يُصبح إذا النجوم

من دامن تو بگیرم اندر سُئِلْتُ
 گویم : صَنَمَا بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلْتَ
 عشق تو مرا أَلَسْتُ مِنْكُمْ بِبَعِيدُ
 هجر تو مرا إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدُ
 بر کنج لب ت نوشتہ یُحْيِي وَيُمِيتُ
 مَنْ مَاتَ مِنَ الْعِشْقِ فَقَدْ مَاتَ شَهِيداً^۱

ولقد انهال سيف ابن ملجم المرادي على القرآن ففلقه ، وكانت
 قطعات بدن الحسين عليه السلام أوراق القرآن المتناثرة . وما كان أبلغ
 بيان الشاعر لهذه الحقيقة في بدنه الذي صار من فرط نور تجليات جلال
 الحق سبحانه كالمصحف ذي الأوراق المتناثرة ، طريحاً على أرض كربلاء :

چو رسید زینب مبتلا بر قتلگاه پر از بلا
 رَأَتْ الْحُسَيْنَ مُقَطَّعاً وَعَلَى التُّرَابِ مُرْمَلاً
 ز تجلیات جمال حق شده مصحفانه ورق ورق
 ز وفا نوشتہ بهر ورق کہ أَنَا الشَّهِيدُ بِكَرْبَلَا^۲

﴿ انکدرت ﴾ .

۱- يقول : «سأتلق بذيل ثوبك في سُئِلْتُ ، قائلاً : يا صنمي ومعبودي بأيِّ ذَنْبٍ قُتِلْتَ .

عشقك أراني أَلَسْتُ مِنْكُمْ بِبَعِيدُ ، وهجرانك أراني إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدُ .
 مخطوط على زاوية شفتك يُحْيِي وَيُمِيتُ ، مَنْ مَاتَ مِنَ الْعِشْقِ فَقَدْ مَاتَ شَهِيداً» .
 ۲- يقول :

«حين وصلت زينب الممتحنة إلى أرض المصراع المفعمة بالبلاء ، رأيت الحسين
 مقطّعاً وعلى التراب مرملاً .

ولقد تناثرت أوراق هذا المصحف من تجليات جمال الحق ، كُتِبَ على كلِّ منها من
 الوفاء : أَنَا الشَّهِيدُ بِكَرْبَلَاءَ» .

ز نجوم زخم تنش فزون ز حساب و شماره شده برون
 زده خيمه گرد وجود آن سپه مصيبت و ابتلا
 چو بديد كشته برادرش ز وفا گرفت چو بر درش
 سخني شنيد ز حنجرش فأجابها كه بَلَى بَلَى
 كه مگر نه ای تو برادرم؟ ز نژاد حضرت مادرم
 به فدای پيكر تو سرم؛ لِمَ فِي التُّرَابِ مُجَدَّلًا^١

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَزِدْ وَبَارِكْ عَلَى الْحُسَيْنِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَأَخِيهِ وَعَلَى
 التَّسْعَةِ الطَّاهِرَةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَالْحَقْنَا بِهِمْ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ ، وَأَهْلِكَ وَالْعَنْ
 أَعْدَاءَهُمْ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ؛ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ .

١- يقول: «كانت جراحاته تزيد على النجوم عدداً، وجلّت عن الحصر والعدّ، وقد نشرت خيمتها على وجود بطل المحنة والمصيبة ذلك. وحين رأت أباها قتيلاً ضمّته وفاءً إلى صدرها، فسمعت كلاماً من حنجرته وأجابها أن بلى، بلى. أولست أنت أخي؟ أولست من نسل أمي؟ فديتُ بدنك برأسي، لِمَ فِي التُّرَابِ مُجَدَّلًا؟».

الْبَحْثُ السَّادِسُ

سَيْرُ الْقُرْآنِ فِي آيَاتِ الْأَنْفُسِ

وَنَفْسِيَّة

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَّشَ عُرْمَهُ
جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ
وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ مِنَ الْآنَ إِلَى قِيَامِ يَوْمِ الدِّينِ
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ
الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى
اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ١

قال سماحة أستاذنا الأكرم العلامة آية الله الطباطبائي قدس الله سره
العزیز فی تفسیر هذه الآية : المراد بأحسن الحديث هو القرآن الكريم ،
والحديث هو القول ، كما في قوله تعالى : فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ٢ وقوله :
فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ٣ فهو أحسن القول لا شتماله على محض
الحق الذي لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ٤ وهو كَلَامُهُ

١- الآية ٢٣ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٢- الآية ٣٤ ، من السورة ٥٢ : الطور .

٣- الآية ٥٠ ، من السورة ٧٧ : المرسلات .

٤- اقتباس من الآية ٤١ و ٤٢ ، من السورة ٤١ : فصلت : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا
جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ
حَمِيدٍ .

المَجِيدُ ١.

وقوله كِتَابًا مُتَشَبِهًا ، أي يشبه بعض أجزاءه بعضاً ، وهذا غير التشابه الذي في المتشابه المقابل للمُحْكَم ، فإنه صفة بعض آيات الكتاب وهذا صفة للجميع .

وقوله مَثَانِي جمع مَثْنِيَّة ، بمعنى المعطوف ، لانعطاف بعض آياته على بعض ، ورجوعه إليه بتبيين بعضها ببعض وتفسير بعضها ببعض من غير اختلاف فيها بحيث يدفع بعضه بعضاً أو يناقضه ، كما قال تعالى :

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا

كَثِيرًا ٢.

وقوله : تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، والاقشعرار تقبّض الجلد تقبضاً شديداً لخشية عارضة عن استماع أمر هائل أو رؤيته ، وليس ذلك إلا لأنهم على تبصر من موقف نفوسهم قبال عظمة ربهم ، فإذا سمعوا كلامه توجهوا إلى ساحة العظمة والكبرياء فغشيت قلوبهم الخشية وأخذت جلودهم في الاقشعرار ٣.

ومن الآيات الكريمة لهذا الكتاب الميمين أيضاً :

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ٤.

وقال سماحة الأستاذ قدس الله نفسه في شأن هذه الآية :

المراد من السَّبْعِ المَثَانِي سورة الحمد ، على ما فسّر في عدّة من

١- اقتباس من آيتين قرآنيتين ، هما الآية ١ من السورة ٥٠ : ق : ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ .

والآيتان ٢١ و ٢٢ من السورة ٨٥ : البروج : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

٢- الآية ٨٢ ، من السورة ٤ : النساء .

٣- «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٧ ، ص ٢٦٩ إلى ٢٧١ .

٤- الآية ٨٧ ، من السورة ١٥ : الحجر .

الروايات المأثورة عن النبي وأئمة أهل البيت عليهم السلام ، فلا يُصغى إلى ما ذكره بعضهم : أنها السبع الطوال ، وما ذكره بعض آخر أنها الحواميم السبع (السور السبع التي تبدأ بـ «حم») ، وما قيل : إنها سبع صحف من الصحف النازلة على الأنبياء ؛ فلا دليل على شيء منها من لفظ الكتاب ولا من جهة السنة .

وقد كثر اختلافهم في قوله من المثاني ، من جهة كون من للتبعيض أو للتبيين ، وفي كيفية اشتقاق لفظ المَثَانِي ووجه تسميتها بالمثاني . والذي ينبغي أن يقال - والله أعلم - إن من للتبعيض ، فإنه سبحانه سمى جميع آيات كتابه مثاني ، إذ قال : كِتَابًا مُتَشَبِّهًا مَثَانِي تَشْعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ؛^١ وآيات سورة الحمد من جملتها ، فهي بعض المثاني لا كلها .

والظاهر أن المَثَانِي جمع مَثْنِيَّة ، اسم مفعول من الثني بمعنى اللوي والعطف والإعادة ، قال تعالى : يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ .^٢

وسميت الآيات القرآنية مثاني ، لأن بعضها يوضح حال البعض ويلوي وينعطف عليه ، كما يشعر به قوله : كِتَابًا مُتَشَبِّهًا مَثَانِي ، حيث جمع بين كون الكتاب متشابهاً يشبه بعض آياته بعضاً وبين كون آياته مثاني .

وفي كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صفة القرآن : إِنَّ الْقُرْآنَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا .

وعن علي عليه السلام فيه : يَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ .

١- الآية ٢٣ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٢- الآية ٥ ، من السورة ١١ : هود .

أو أنّ المَثَانِي جمع مَثْنَى بمعنى التكرار والإعادة ، وهو كناية عن بيان بعض الآيات ببعضها الآخر . وفي التعبير بلفظ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ من تعظيم أمر الفاتحة والقرآن ما لا يخفى على المفكرين والمتأملين ؛ أما الفاتحة فلمكان التعبير عنها بالنكرة غير الموصوفة سَبْعًا وفيه من الدلالة على عظمة قدرها وجلالة شأنها ما لا يخفى ، وقد قوبل بها القرآن العظيم وهي بعضه ، وأما القرآن فلتوصيفه من ساحة العظمة والكبرياء بالعظيم .^١

وهذه الآية المباركة : سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي تبيّن بوضوح أنّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هي آية مستقلة عن سورة الحمد ، لأنّ مجموع آيات هذه السورة بضميمة هذه الآية تساوي سبعاً .

وينقل السيوطي - وهو من العامة - في كتاب «الإتقان» روايات كثيرة من طرق العامة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال بأنّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في جميع سور القرآن وفي سورة الحمد جزء من القرآن .

ويروي الفقيه الجليل الحاج آقا رضا الهمداني في «مصباح الفقيه» عن يونس بن عبد الرحمن ، عن محمد بن مسلم قال : سألتُ أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله : وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، فقال : فاتحة الكتاب يثنى فيها القول . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَّ عَلَيَّ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ مِنْهَا «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» الْآيَةَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا : «وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي

١- «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٢، ص ٢٠١ و ٢٠٢.

أَلْقُرْآنَ وَحْدَهُ، وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَرِهِمْ نُفُورًا» ؛ و«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»
دَعَوَىٰ أَهْلَ الْجَنَّةِ حِينَ شَكَرُوا اللَّهَ حُسْنَ الثَّوَابِ . «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» قَالَ
جِبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا قَالَهَا مُسْلِمٌ قَطُّ إِلَّا صَدَّقَهُ اللَّهُ وَأَهْلُ سَمَاوَاتِهِ ؛
«إِيَّاكَ نَعْبُدُ» إِخْلَاصَ الْعِبَادِ ؛ «وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» أَفْضَلَ مَا طَلَبَ بِهِ الْعِبَادُ
حَوَائِجَهُمْ .

«أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» صِرَاطُ
الْأَنْبِيَاءِ ، وَهُمْ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» الْيَهُودُ
«وَلَا الضَّالِّينَ» النَّصَارَى .

وورد في صحيحة محمد بن مسلم ، قال : سألتُ أبا عبد الله الصادق
عليه السلام عن السبع المثاني والقرآن العظيم ، هي الفاتحة ؟ قال : نعم .
قلت : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنَ السَّبْعِ الْمَثَانِي ؟ قال : نعم ، هي
أفضلهن .

ومن بين الروايات الدالة على أن بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ جزء
من سائر السور القرآنية ، صحيحة معاوية بن عمار المروية في «التهذيب» ،
قال : قلتُ لأبي عبد الله الصادق عليه السلام : إذا قمتُ للصلاة ، أقرأ بِسْمِ
اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي فَاتِحَةِ الْقُرْآنِ ؟
قال : نعم .

قلتُ : فإذا قرأتُ فاتحة القرآن ، أقرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَعَ
السُّورَةِ ؟

قال : نعم .

وورد كذلك في كتاب «الكافي» للكليني هذا المضمون بأدنى اختلاف
في العبارة .

وورد عن العياشي في تفسيره رواية عن خالد بن المختار ، قال :

سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ : مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ عَمَدُوا إِلَىٰ أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَزَعَمُوا أَنَّهَا بَدْعَةٌ إِذَا أَظْهَرُوا وَهِيَ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» .

ويروي أيضاً عن يحيى بن عمير الهذليّ ، عن أبي حمزة قال : سمعتُ الإمامَ محمدَ الباقر عليه السلام يقول : حَرَّفُوا أَكْرَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ : «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» .

وقد ادّعى هذا العالم الجليل الإجماع على جزئية البسملة للقرآن ، وقال : بلا خلافٍ بيننا على الظاهر ، بل الإجماع على أنّ البسملة جزء من كلّ سورة من سور القرآن عدا سورة براءة ، بل ادّعى العلامة في «التذكرة» وغيرها الإجماع عليه ، ونسبه في «المنتهى» إلى فقهاء أهل البيت .^١ ويتضح ممّا أوردنا في هذا البحث أنّ لفظ المثاني يُطلق على جميع سور وآيات القرآن وعدم اختصاصه ببعض السور ، كما احتل المرحوم الفيض الكاشاني بأن المراد به السور السبع بعد السور السبع الطُّول الأوّل ، لأنّ ثنى يثنى الذي اشتق منه المثنويّة والمثنائي بمعنى العطف وإرجاع شيء إلى شيء آخر كما في العطف واللوي ، لا مطلق المتابعة الذي بنى عليه الفيض الكاشاني لمجرد مجيء سبع سور بعد السور السبع الطُّول فعدها مثاني .^٢

١- «مصباح الفقيه» ، كتاب الصلاة ، ص ٢٧٦ (ملخصاً).

٢- أورد في هامش صفحة ٦٠١ من «أصول الكافي» الجزء الثاني من الطبعة الحروفية نقلاً عن «الوافي» أنّ السور الطُّول على وزن صُرَد هي السور السبع الأوّل بعد الفاتحة ، على أنّ تعدد الأنفال والتوبة واحدة (باعتبار أنّ كليهما كانت في شأن غزوات رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، لذا تُدعيان بالقرينتين ، وكذلك لعدم فصلهما بالبسملة) أو السابعة سورة يونس . والمثنائي هي السبع التي بعد هذه السبع ، سمّيت بها لأنّها ثنتها ، واحدها مثني ⇨

وعليه ، فلا يمكن قبول ما ورد في بعض الروايات من تفسير لفظ **المثاني** ببعض السور أو تخصيصه بسورة الفاتحة باعتبار تكرارها في الصلاة ، لأنّ مفاد هذه الروايات مرفوض ، وذلك أولاً : لمعارضتها مدلول الكتاب الذي يعتبر **المثاني** جميع الكتاب ، وثانياً : فإنّ المعنى الحقيقي للمثاني إرجاع شيء إلى شيء آخر ، وهو ناظر إلى جميع الآيات التي يبين بعضها ويفسّر البعض الآخر ، في حين أنّ معنى التكرار أو مطلق التبعية يخالف المعنى اللغوي الحقيقي .

فالقرآن يضمّ مائة وأربع عشرة سورة ، منها ٣٧ سورة من عمّ **يَسَاءَ لُون** إلى آخر القرآن تدعى **بالسُّورِ الْقِصَارِ** ، ويبقى ٧٧ سورة أولها سورة فاتحة الكتاب تليها سبع سور طوال هي : سور **البَقْرَة** ، آل **عِمْرَان** ، **النِّسَاء** ، **المَائِدَة** ، **الأَنْعَام** ، **الأَعْرَاف** ، **والْأَنْفَال** و**التَّوْبَة** ، إذا ما اعتبرنا هاتين السورتين سورة واحدة ، وفي الحقيقة فإنّ هاتين السورتين تُعدّان سورتين مستقلّتين ، لذا فإنّ مجموع هذه السور الثمان سيصبح مع سورة الفاتحة تسع سور ، وإذا ما أنقصناها من السور السبع والسبعين تبقى ٦٨ سورة تدعى **بِالْمُفَصَّلَات** .

ويقال للسور الكبيرة الأولى في القرآن **السُّورِ الطُّوَال** ، وكان ينبغي الإتيان بسورة يونس بعد سورة الأعراف ، لكنّ عثمان كان قد قدّم عند جمعه القرآن سورة الأنفال والتوبة على سورة يونس ، فقد كان يعتقد أنّ سورة التوبة ليست سورة مستقلّة بنفسها لعدم احتوائها على البسملة ، وكان يعدّها من متمّمات سورة الأنفال ، لذا فقد كانت هاتان السورتان في نظره

﴿ مثل معاني ومعنى . والمئون هي من بني إسرائيل إلى سبع سور ، لأنّ كلاً منها على نحو مائة آية كما قيل في بعض التفاسير - انتهى كلام صاحب «الوافي» .

سورة واحدة تعدّ من السور الطوال .

وحين اعترض البعض على عثمان بأنّ رسول الله كان قد جعل سورة يونس بعد سورة الأعراف وعدّها من السور الطوال ، لم يكن لديه من جواب إلا أن يقول : لم يكن لي من علم بعمل رسول الله هذا .

ومن بين السور المفصّلات هناك سور سبع آياتها في حدود المائة آية يُقال لها أيضاً السور المئين ، وهي عبارة عن سور الإسراء ، الكهف ، مريم ، طه ، الأنبياء ، الحجّ ، المؤمنون .

وعليه ، ينبغي تفسير مضمون الرواية التي أوردتها الكلينيّ في «الكافي» ، واستشهد بها الشيخ محمّد حسن في كتاب «الجواهر» في باب استحباب قراءة السورة بعد الحمد في النوافل ، وتعديله وفق ما ذكر .

فقد روى الكلينيّ بسنده عن سعد الإسكاف أنّه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

أُعْطِيَتْ السُّورَ الطُّوَالَ مَكَانَ التَّوْرَةِ ، وَالْمِئِينَ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ ،
وَالْمِثَانِي مَكَانَ الزَّبُورِ ، وَفُضِّلَتْ بِالْمُفَصَّلِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ سُورَةً ، وَهُوَ
مُهَيِّمٌ عَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ .^١

ومضافاً إلى الإشكال الموجود في هذه الرواية من جهة المضمون ، وعدّها المثنائي في مقابل السور الطوال والمفصّل والمئين ، فهي مرفوعة من جهة السند أيضاً ومنسوبة إلى رسول الله مع حذف الواسطة .

نعم ، فقد كانت بداية كلامنا في هذه الآية المباركة أنّ القرآن هو

١- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦٠١ ، وقد روى الكلينيّ هذه الرواية عن عليّ بن

إبراهيم ، عن صالح بن سندي ، عن جعفر بن بشير ، عن سعد الإسكاف ، وورد في تتمتها :

وَالتَّوْرَةُ لِمُوسَى ، وَالْإِنْجِيلُ لِعِيسَى ، وَالزَّبُورُ لِدَاوُدَ .

أفضل القول وأن آياته متشابهة وناظرة إلى بعضها ، وأن جلود المتقين تقشعر عند قراءته أو استماع آياته ، وأن القلوب والأبدان تطمئن وتستقر بذكر الله .

وهذه هي المسيرة التي وضع القرآن عالم الأدمية فيها على مدارج ومعارج الروح والنفس ، وكان له بالغ الأثر على أرواح المؤمنين ونفوسهم ، وهذه هي الهداية الإلهية مقابل تخطب المعرضين عن القرآن في وادي الظلمات متشبثين بالأهواء والخيالات والتصورات حتى آخر عمرهم .

والقرآن في الحقيقة كالمحك الذي يميز المهتدي عن الضال في صفتين متميزين : صف المؤمنين والسير في الكمال النفساني ، وصف الكافرين والجمود في زوايا الأهواء النفسانية ، فهو كالبينة القويمة :

لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْتَةٍ ۗ

يستتبع حياة الخلود للمؤمنين المنهمكين بالسجود والبكاء والتسبيح والتقديس وقيام الليل والمسألة والدعاء والرغبة والرغبة إلى الله سبحانه ، وتحليق الروح إلى عالم التوحيد وارتجاف البدن واقشعرار الجلد ووجل القلب من خوف هجر المحبوب الأزلي ، والطمأنينة والسكينة من وجد وصال المعشوق السرمدي والحظو بلقائه .

تأملوا في هذه الآيات في كيفية امتداح وتمجيد القرآن الكريم للذين تربوا في هذه المدرسة . وأي آثار وخصائص يمتدحها فيهم ، وأخيراً الصفات والمزايا النفسية والملكات الروحية التي يُشير إليها في خريجي هذه المدرسة ، والتي هي مثار الإعجاب حقاً :

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا * وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا. ١

هذا هو المنطق القرآني في تربية فرد يكون عبداً لله ، فرد قطع كل نسبة للعبودية مع غير الله وارتبط بالله وحده ، وفاز أخيراً بشهادة التوفيق والنجاح وهي رضوان الحضرة الأحديّة والاستقرار في حرم الأمن والأمان الإلهي في الغرفة العالية الإلهية والسكنى فيها ، ثم يعدد لهذا الفرد في هذه الآيات الشريفة الأربع عشرة خصالاً أربع عشرة هي من ضروراته اللازمة .

أي أنّ القرآن الكريم يقول : إنّ على الراغبين بالخلاص من عبودية النفس الأمّارة ومن ربة الأوهام ، والوصول إلى مقام عزّ الإنسانيّة كي تكون لهم إنسانيّتهم ويكون الله الواحد القدير العليم معبودهم ولتنشأ من

ذلك نسبة عبوديتهم له ؛ عليهم أن يتصفوا ويتحلوا بهذه الصفات الأربع عشرة التي أشرنا إليها .

وحين يُتلى هذا القرآن على أولئك الذين تخلو قلوبهم من الأحقاد والضغائن والعصبيات ، فإنّ دموعهم ستساق تلقائياً من أعينهم ، لأنّ هذا الكلام هو حديث المحبوب الذي يذكرهم بالحبيب ، وله إشارة ودلالة على الوطن الأصليّ والمقرّر الدائمّي ، فيؤمنون به بلا تردّد أو إبطاء :

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .^١

فانظروا ماذا تفعل الآيات الإلهيّة التي هي حديث الشوق إلى الإله القديم الأزليّ بالقلوب الغرثى والأرواح الضمأى ؟ لكأنّها تقطع الإنسان من الأرض إلى حيث يستقرّ في فضاء القدس ونور التجردّ والوطن الأصليّ عند الربّ الودود .

تطرد عنه التفكير بالطعام والنوم ، وتسلب منه الراحة ، فينهض المؤمن فيغتسل أو يتوضأ في ليالي الشتاء الباردة المظلمة ، ثمّ ينهك بتلاوة القرآن ، ثمّ يهوي للسجود ويقوم ، ويحسّ عند قراءته كلّ آية كأنّه يرِدُ جُنينات خاصّة فيرتع فيها ويقطف من فاكهتها الحلوة الهانئة العطرة ، ثمّ يطوف من شجرة لأخرى ذات شكل آخر ، ثمّ يتعدّها إلى غيرها ، فهي جميعاً ذات ثمار لذيذة هانئة تبعث الطمأنينة في القلب والهدوء في النفس البشريّة المليئة بالقلق والاضطراب .

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

١- الآية ٨٣ ، من السورة ٥ : المائدة .

خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ^١.

وهذه حالات وملكات جيّدة تبعث على النشاط والسرور ، وتثير الرعب والخشية ، وهي ناتجة من كون آيات القرآن شفاء ونور ورحمة للمؤمنين ، ينالونها في مراحل سيرهم وسلوكهم النفسيّ ، لكنّها على العكس من ذلك بالنسبة للمتمرّدين والمستكبرين تبعث على الشقاء وظهور الأدران النفسانيّة وبروز الملكات الضالّة والصفات الشيطانيّة .

نعم ، هذا القرآن الذي يُتلى على المؤمن فيسمو بروحه إلى الملكوت الأعلى ويهزّ نفسه بهبوب نسائم اللطف وجذبات المحبوب ، إذا ما تُلي على الكافر والمُنكر هبّ وانتفض كأنّ جبال العالم توشك أن تُهدّ فوق رأسه ، وكأنّهم يريدون الإنهيار بمطارق الحديد الثقيلة على أمّ رأسه ، أو يحطّمونه تحت المقبضة فيهلكونه ؛ وستظهر حالات المنكرين والمعاندين للقرآن مشهودةً جليّة بالتمعّن والتأمّل في الآيات التالية :

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ
أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ دَلِكُمْ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرٌ الْمَصِيرُ^٢.
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ
وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^٣.

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ

١- الآيتان ١٥ و١٦ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

٢- الآيتان ٧١ و٧٢ ، من السورة ٢٢ : الحجّ .

٣- الآية ٣٩ ، من السورة ٦ : الأنعام .

وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ
الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ
فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى
أَبْصَرَهُمْ * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا. ١

فهو يذكر في هذه الآيات نفاق وشك وارتياب ذوي القلوب المريضة
والحالكة ، الذين تتتابهم حالة النزع ويغطي وجوههم غبار اليأس والكآبة
والخمول والخوف من الموت حين تنزل آيات القرآن فتأمر بالجهاد ،
فتغور الأعين في الأحداق ، ويكادون يلفظون أنفاسهم الأخيرة في حالة من
الإغماء والتهالك .

يَحْذَرُ الْمُنْفِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ
اسْتَهْزِئُوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ. ٢

وكان المنافقون يدهشون عند نزول آيات القرآن وإخبارهم عن
المغيبات ويحذرون أن تنزل آيات منه فتفضح أسرارهم وأفكارهم وتبين
نواياهم وخططهم السرية وحيلهم ومكرهم وتخبر عن تواطؤهم وخفياهم
في لقاءاتهم الليلية ، وكانوا لهذا يحذرون القرآن ويتجنبونه خوفاً من كشفه
إياهم .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

١- الآيات ٢٠ إلى ٢٤ ، من السورة ٤٧ : محمد .

وأورد القاضي القضاي في الشرح الفارسي «شهاب الأخبار» في الكلمات القصار
للنبي الخاتم صلى الله عليه وآله ص ٣٣٢ ، رقم ٥٦٩ : مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ .

٢- الآية ٦٤ ، من السورة ٩ : التوبة .

وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَرَأَى مُتَكَبِّرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ.^١

فليس المنافقون والمشركون إلا كالأصم الذي انخرقت طبلة أذنه وتمزقت ، فلا يصله أبداً هذا النداء المحيي والباعث على النشاط والبهجة ، ولن يخترق سماع القرآن أو قراءته مغاليق قلبه أو يستقرّ في روحه ونفسه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ * فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ.^٢

ومن الجليّ أن عدم قبول القرآن هو عدم قبول مراده ومضمونه وليس عدم قبول ظاهره ، فهدف المتمردين والمنافقين كان عدم قبول المحتوى والمضمون لا الظاهر ، ولم يكن يضير الكفار والمشركين والمنافقين الذين دأبوا على الكذب والنفاق قبولهم بظاهر القرآن لو أنّ مسألة قبول حقيقة القرآن لم تكن في الحساب ، وكان يمكن لهؤلاء أن يقبلوا القرآن بسهولة ثمّ يتمردوا عن قبول محتواه ومضمونه ، ولقد كان إنكارهم له وإعراضهم عنه واعتراضهم عليه بلحاظ العمل بحقائقه والالتزام بتعاليمه والميثاق والبيعة لهدفه وغايته .

لذا نرى أنّ هؤلاء الأفراد الذين كانوا يعارضون القرآن بلباس الشرك ، قد لجأوا بعد إسلامهم الشكلي الظاهري - الذي لم يمس الباطن ولم يقترن بالقبول الحقيقي - إلى تغيير صورتهم وشكلهم الخارجي فتلبّسوا

١- الآيتان ٦ و٧ ، من السورة ٣١ : لقمان .

٢- الآيتان ٢٦ و٢٧ ، من السورة ٤١ : فصلت .

لباس الدين وتظاهروا به ، ثم وقفوا في وجه القرآن كما كانوا يفعلون من قبل .

وحقاً أنّ روح الشيطنة والمقاصد الفكرية وأسلوب التفكير عند هؤلاء وأولئك كانت واحدة ، وكانوا يتسترون بغطاء الدين حسب مقتضيات الوقت لتحقيق أهدافهم الدنيئة ، وكان لديهم غطاءان ولباسان تحكهما مصلحتان :

فحين كانت القوة ترجح لصالح الكفر والشرك ، وكانوا يرون سياستهم وحكومتهم ثابتة في ذلك الظرف ، فقد كانوا يتجاهرون بحماية الأصنام ويحملون على عواتقهم أعلام هُبل واللات والعزى ، وكان نداؤهم **أَعْلُ هُبل** ^١ يملأ أرجاء ساحة أحد ؛ أمّا حين عجزوا عن الصمود في ذلك الخط ، وحين انتشرت عظمة الإسلام وقدرته بفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة فملأت كلّ حذب وصوب ، فقد ارتدى هؤلاء لباس الإسلام ثم حملوا سيوفهم ورماحهم تلك على عواتقهم فحاربوا بها حقيقة القرآن المتجلية في مقام الولاية المقدّس حامي صميم القرآن ومبيّن أسرارهِ وموضّح تأويله ومضمونه ومعناه .

كان هؤلاء يتظاهرون بمتابعة القرآن ، لكنهم كانوا يمنعون الناس من تفسير القرآن ، ويفسّرون برأيهم آياته المتشابهات التي لا سبيل لمعرفة ودرك معانيها غير سبيل أولي العلم ، وكانوا يعدّون أنفسهم أولي

١- كان المشركون في غزوة أحد يحملون معهم صنم هُبل الذي كان أعظم الأصنام رأساً ، وكان طويلاً بقدر قامته الرجل ، فجاءوا به إلى المدينة وتحلّقوا حوله في ساحة المعركة يهتفون: **أَعْلُ هُبل** ، **أَعْلُ هُبل** . فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين أن يردّوا عليهم فينادوا: **اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَل** .

الأمْر ، وقد فعلوا بكتاب الله الأفاعيل .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمْنًا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ١ .

يقول سماحة العلامة الأستاذ قدس الله سره : أُمُّ الْكِتَابِ أصل القرآن ومرجعه ، والمحكمات هي الآيات ذات المعنى الظاهر الذي لا يحتاج لفهمه للرجوع إلى آيات آخر ، بل تفي وتبين معناها بنفسها ، في حين أن المتشابهات هي الآيات التي لا يتعين مرادها لفهم السامع بمجرد استماعها ، بل يتردد بين معنئ ومعنى حتى يرجع إلى محكمات الكتاب فتعين هي معناها وتبينها بياناً ، فتصير الآية المتشابهة عند ذلك مُحْكَمَةً بواسطة الآية المحكّمة ، والآية المحكّمة مُحْكَمَةً بنفسها ، وفي النتيجة فإنّ جميع آيات الكتاب محكّمة وليس لدينا فيها آية لا ترجع إلى محكم .

فمثلاً ، قوله تعالى : الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٢ ، يشته المراد منها على السامع أول ما يسمعها ، إذ يمكن أن يكون معنى العرش كهذه العروش المعهودة ، فإذا أرجعناها إلى مثل قوله تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ٣ اتضح أنّ عرش الله متناسب ووجوده الأزليّ اللامتناهي ، والذي ينطبق - شئنا أم أئينا - على عالم الإرادة والمشیئة ، وعلى هيكل الوجود وجميع العالم ٤ .

١- الآية ٧ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٢- الآية ٥ ، من السورة ٢٠ : طه .

٣- الآية ١١ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

٤- «الميزان في تفسير القرآن» ، ج ٣ ، ص ١٨ و ١٩ .

وَأَمَّا فِي وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، فظاهر الكلام رجوع الضمير إلى مَا تَشَبَهَ ، كما هو الظاهر أيضاً في قوله وَأَبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ .

وقد مرّ سابقاً أنّ ذلك لا يستلزم كون التأويل مقصوراً على الآيات المتشابهة ، ومن الممكن أن نرجع الضمير إلى الكتاب ، كالضمير في قوله مَا تَشَبَهَ مِنْهُ .

ويستفاد من ظاهر الحصر في عبارة وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ كونه العلم بالتأويل مقصوراً عليه سبحانه . وأمّا قوله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ فظاهر الكلام أنّ الواو للاستئناف لا العطف (ولو أننا اعتبرنا الواو عاطفة ووقفنا على فِي الْعِلْمِ وقلنا: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ، فلن يكون هناك من إشكال ، لا من جهة الإعراب والتركيب اللغوي ، ولا من جهة المحتوى والمعنى) ؛ بمعنى كونها طرفاً للترديد الذي يدلّ عليه قوله في صدر الآية : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ؛ فعلى هذا سيكون معنى هذه العبارة : أنّ الناس في الأخذ بكتاب الله قسمان : فمنهم من يتبع ما تشابه منه (المتشابهات) ، ومنهم من يقول إذا تشابه عليه شيء منها : ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وإنما اختلفوا لاختلافهم من جهة زَيْغِ الْقَلْبِ (الانحراف الفكري) ، وِرْسُوخِ الْعِلْمِ (العلم الراسخ الأصيل والصحيح) .

مضافاً إلى أننا لو اعتبرنا الواو عاطفة لاستلزم ذلك إشكالاً مهماً ، وهو أننا نكون قد خرجنا عن دأب القرآن ، ذلك لأنّ الواو لو كانت عاطفة وكان المراد بالعطف تشريك الراسخين في العلم بالتأويل كان منهم رسول الله وهو أفضلهم .

وكيف يتصوّر أن ينزل القرآن على قلبه وهو لا يدري ما أُريدَ به ؟ وسنكون قد خرجنا عن دأب القرآن ، لأنّ دأبه إذا ذكر الأمة أو وصف أمر

جماعة وفيهم رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم أن يفرد به بالذكر أولاً ويميزه بالشخص تشریفاً له وتعظيماً لأمره ثم يذكرهم جميعاً، كقوله تعالى :

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ. ١
 وكآية : ثُمَّ أُنزِلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ. ٢
 وآية : لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ. ٣
 وقوله تعالى : هَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا. ٤
 وقوله تعالى : يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ. ٥
 وهناك آيات أخرى غير هذه الآيات وردت في القرآن الكريم على هذا النهج .

فلو كان المراد بقوله : وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ أنهم عالمون بالتأويل - ورسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم منهم قطعاً - كان حق الكلام أن يُقال : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ .
 هذا وإن أمكن أن يقال إن قوله في صدر الآية هُوَ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ يدل على كون النبي عالماً بالكتاب ، فلا حاجة إلى ذكره ثانياً .
 فالظاهر من كل ما قيل أنّ العلم بالتأويل مقصور في الآية عليه تعالى ، ولا ينافي ذلك ورود الاستثناء عليه في هذه الآية وجعل أفراد معينين من العالمين بالتأويل بشكل مسلم ، كما هو الأمر في الآيات الدالة

١- الآية ٢٨٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢- الآية ٢٦ ، من السورة ٩ : التوبة .

٣- الآية ٨٨ ، من السورة ٩ : التوبة .

٤- الآية ٦٨ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٥- الآية ٨ ، من السورة ٦٦ : التحريم .

على انحصار علم الغيب عليه تعالى مع ورود الاستثناء عليه ، كما في قوله تعالى :

عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ^١.

ولا منافاة لذلك أن يكون المستثنى من جملة لا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ نفس الراسخين في العلم ، إذ لا منافاة بين أن تدلّ هذه الآية على شأن من شؤون الراسخين في العلم ، وهو الوقوف عند الشبهة والإيمان والتسليم في مقابل الزائعين قلباً ، وبين أن تدلّ آيات أخر على أنّهم أو بعضاً منهم عالمون بحقيقة القرآن وتأويل آياته على ما سيحييء بيانه^٢.

نعم ، لقد كان هدفنا من الاستشهاد بهذه الآية المباركة أن مخالفة حقيقة القرآن أمر لا ينحصر بالمشركين والمخالفين ، فقد نزلت هذه الآية في شأن المسلمين فقسمتهم صنفين ، أولهما مؤمن ملتزم يسلم بالحق ، وثانيهما متمرد يسعى للفتنة ويتعقب المسارات المنحرفة الملتوية ويقبع كامناً في الزوايا ، مبتعداً على الدوام عن الصراط المستقيم والطريق القويم ، فهؤلاء منحرفون في خط سيرهم النفسي ، وهم موجودون في كلّ زمان ومكان ، شأنهم ودأبهم التصيد في الماء العكر ، يميلون مع الريح حيثما مالت وينعقون مع كلّ ناعق ، ويمدّون رؤوسهم في كلّ مخللة ، ويمرّون على كلّ معلق ، ويعيشون كالعلق على امتصاص دماء الآخرين وإزهاق أرواحهم ، ويديمون حياتهم عبوراً على أجساد المظلومين ودماء المحرومين .

١- الآيتان ٢٦ و ٢٧ ، من السورة ٧٢: الجنّ .

٢- «الميزان في تفسير القرآن» ج ٣ ، ص ٢٦ و ٢٧ .

قال في «تفسير الصافي» بعد تفسير معنى المحكم والمتشابه :
ورد في كتاب «الكافي» والعياشي عن الإمام عليه السلام في تأويل
القرآن قوله : إِنَّ الْمُحْكَمَاتِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأئِمَّةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ،
وَالْمُتَشَابِهَاتِ فَلَانٌ وَفُلَانٌ .

وتدلّ هذه الرواية على أنّ الإمام عليه السلام هو الوجود الخارجي
والتكويني للقرآن ، وأنّ الخليفتين بغير حق الغاصبين لأمر الولاية هما
الوجود الخارجي والتحقيقي للشيطنة والانحراف والنزوع إلى الباطل .

وورد أيضاً في «الكافي» والعياشي عن الإمام الصادق عليه السلام
قوله : نَحْنُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ .

وروى عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام قوله :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلَ الرَّاسِخِينَ فِي
الْعِلْمِ ، قَدْ عَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَمِيعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ التَّأْوِيلِ
وَالْتَنْزِيلِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُنزِلَ شَيْئاً لَمْ يُعَلِّمَهُ تَأْوِيلَهُ ، وَأَوْصِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ
يَعْلَمُونَهُ كُلَّهُ .

وورد في «الكافي» عن الإمام الباقر عليه السلام : «وَالرَّاسِخُونَ فِي
الْعِلْمِ» مَنْ لَا يَخْتَلِفُ فِي عِلْمِهِ .^١

وورد في كتاب «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين عليه السلام - ضمن
حديث - أنّه قال :

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِخَلْقِهِ وَعِلْمِهِ بِمَا يُحْدِثُهُ
الْمُبْدِلُونَ مِنْ تَغْيِيرِ كَلَامِهِ ، قَسَمَ كَلَامَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ :

١- انظر : «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ٢٤٧ ، طبعة الأوفسيت ، إسلاميّة ؛ و«تفسير

مجمع البيان» ج ١ ، ص ٤٠١ ، طبعة صيدا.

قِسْمًا مِنْهُ يَعْرِفُهُ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ ؛ وَقِسْمًا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ صَفَا ذَهْنُهُ
وَلَطْفَ حِسِّهِ وَصَحَّ تَمَيُّزُهُ مِمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ؛ وَقِسْمًا لَا يَعْرِفُهُ
إِلَّا اللَّهُ وَأَنْبِيَآؤُهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ .

وَأِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِئَلَّا يَدَّعِي أَهْلُ الْبَاطِلِ مِنَ الْمُسْتَوْلِينَ عَلَى مِيرَاثِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ مَا لَمْ يَجْعَلْهُ لَهُمْ
وَلِيُقَوِّدَهُمُ الْاضْطِرَارُ إِلَى الْإِيْتِمَارِ بِمَنْ وُلَّاهُ أَمْرَهُمْ فَاسْتَكْبَرُوا عَنْ طَاعَتِهِ
تَعَزُّزًا وَافْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاعْتِرَارًا بِكَثْرَةِ مَنْ ظَاهَرَهُمْ وَعَاوَنَهُمْ
وَإِنَّمَا جَلَّ اللَّهُ جَلَّ اسْمُهُ وَرَسُولُهُ^١ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

أَنَا قَاتِلُهُمْ عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَنْتَ يَا عَلِيُّ تُقَاتِلُهُمْ عَلَى التَّأْوِيلِ^٢ .

وعليه ، فقد كانت حروب أمير المؤمنين عليه السلام امتداداً وتبعاً
لغزوات الرسول الأكرم ، ولقد كان مشركو الجاهلية يقاتلون بدن النبي
وهيكل القرآن ، فصار أصحاب الجمل وصفين والنهروان يقاتلون حقيقة
النبي وواقعية القرآن المتمثلة في النفس المقدسة لمقام الولاية ، والولي
الرفيع لعلم القرآن ، والعارف بالتنزيل والتأويل ، وصدر الراسخين في
العلم . وعليه ، فقد كانت هذه الحروب امتداداً لتلك الغزوات ، لا تفاوت
بينها أبداً .

١- «تفسير الصافي» للمحدِّث العظيم المَلَا محسن الفيض الكاشاني، ج ١، ص ٢٤٧ .
٢- ذكر هذه الروايات العلامة المجلسي في «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٤٥٥ و ٤٥٦ ،
طبعة الكمباني ، وذكر كذلك في صفحة ٤٥٧ قضايا في هذا الشأن . وروى في كتاب «ينابيع
المودة» للشيخ سليمان القندوزي الحنفي ، ص ٢٣٣ ، طبعة إسلامبول ، عن صاحب كتاب
«الفردوس» عن وهب بن صفي البصري أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : أَنَا
أَقَاتِلُ عَلَى تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ ، وَعَلِيُّ يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ .

وقد وردت في كتب الشيعة روايات جمّة تقول بأنّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم أخبر كراراً بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام مأمور من قبل الله تعالى بالجهاد مع ثلاث طوائف :

الناكثين (الناقضين للبيعة) وهم عائشة وطلحة والزبير وأعوانهم : ابنيّ أخت عائشة : محمّد بن طلحة وعبد الله بن الزبير ، ومروان بن الحكم والعمثانيّين وغيرهم ، وذلك في حرب الجمل .

القاسطين (الظالمين والمعتدين) وهم معاوية بن أبي سفيان وأعوانه عمرو بن العاص وغيره ، في معركة صفّين .

المارقين (الخوارج عن الدين) الذين مرقوا من الدين كما يمرق السهم من القوس ، وهم أصحاب النهروان من الخوارج .

لكننا نقل هنا مطالباً من الثقة الثبت : ابن أبي الحديد المعتزليّ الشافعيّ ، وهو من العامّة ، حيث يقول :

فأمّا الطائفة النّاكثة فهم أصحاب الجمل ، وأمّا الطائفة القاسطة فأصحاب صفّين ، سمّاهم رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم القاسطين ، وأمّا الطائفة المارقة فقيادة حرب النهروان .

وأشرنا نحن بقولنا : سمّاهم رسول الله بالقاسطين ، إلى قوله عليه السلام :

سَتَقَاتِلُ بَعْدِي النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ .

وهذا الخبر من دلائل نبوته صلوات الله عليه ، لأنّه إخبارٌ صريح بالغيب لا يحتمل التمويه والتدليس كما تحتمله الأخبار المُجملة .

وصدّق قول رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : المارقين (الخارجين عن الدين) قول أمير المؤمنين عليه السلام أولاً بشأن الخوارج :

يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ ١.

وصدّق قوله صلى الله عليه [وآله] وسلّم (الناكثين) كونهم نكثوا البيعة بادئ بدء ، وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يتلو عندما بايعه طلحة والزبير هذه الآية :

فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٢.

وأما أصحاب صفين فإنهم عند أصحابنا المعتزلة مخلّدون في النار لفسقهم ؛ فصحّ فيهم قوله تعالى : وَأَمَّا أَلْقَسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ٣ .
وأما عن قتال أمير المؤمنين عليه السلام هؤلاء القوم في هذه الحروب بعنوان تأويل القرآن ، فهناك روايات رواها ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» عن إبراهيم بن ديزيل الهمداني في كتاب «صفين» ، عن يحيى بن سلمان مسنداً عن أبي سعيد الخدري رحمه الله أنّه قال :

كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَانْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِهِ فَالْقَاهَا إِلَىٰ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُضْلِحُهَا . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يُقَاتِلُ عَلَىٰ تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَىٰ تَنْزِيلِهِ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ !؟

قَالَ : لَا !

١- «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ١ ، ص ٢٠١ ، طبعة دار الكتب العربيّة ، تحقيق محمّد أبي الفضل إبراهيم .

٢- الآية ١٠ ، من السورة ٤٨ : الفتح : إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

٣- «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ١ ، ص ٢٠١ ؛ والآية هي الآية ١٥ ، من السورة ٧٢ : الجنّ .

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : أَنَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ !؟
 قَالَ : لَا ! وَلَكِنَّهُ ذَاكُمْ ، خَاصِصُ النَّعْلِ ؛ وَيَدُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 يُضْلِحُهَا .

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : فَاتَّيْتُ عَلِيًّا فَبَشَّرْتُهُ بِذَلِكَ ؛ فَلَمْ يَحْفَلْ^١ بِهِ كَأَنَّهُ شَيْءٌ
 قَدْ كَانَ عَلِمَهُ مِنْ قَبْلُ^٢ .

وكذلك روى ابن أبي الحديد عن ابن ديزيل في الكتاب المذكور ،
 عن يحيى بن سليمان ، عن ابن فضيل ، عن إبراهيم بن الهجري ، عن أبي
 صادق قال :

قدم علينا أبو أيوب الأنصاري العراقي ، فأهدت له قبيلة الأزد جُزْرًا^٣
 فبعثوها معي ، فدخلت إليه فسلمت عليه وقلت له :

يَا أَبَا أَيُّوبَ ! قَدْ كَرَّمَكَ اللَّهُ بِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ
 وَنَزُولِهِ عَلَيْكَ ؛ فَمَا لِي أَرَاكَ تَسْتَقْبِلُ النَّاسَ تُفَاتِلُهُمْ ، هُوَ لَاءِ مَرَّةً وَهُوَ لَاءِ
 مَرَّةً !؟

قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَهَدَ إِلَيْنَا أَنْ نُقَاتِلَ مَعَ
 النَّاكِثِينَ . فَقَدْ قَاتَلْنَاهُمْ . وَعَهَدَ إِلَيْنَا مَعَ الْقَاسِطِينَ فَهَذَا وَجْهَنَا إِلَيْهِمْ . يَعْنِي
 مُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابَهُ . وَعَهَدَ إِلَيْنَا أَنْ نُقَاتِلَ مَعَ الْمَارِقِينَ وَلَمْ أَرَهُمْ بَعْدُ^٤ .

يقول ابن أبي الحديد : روى كثير من المحدثين عن أمير المؤمنين
 علي بن أبي طالب عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم

١- الحفل : المبالاة ، حفلت كذا أي باليت به .

٢- نقلنا حديث ابن أبي الحديد هذا من بحار المجلسي ، ج ٨ ، ص ٤٥٧ .

٣- الجزر : ما أعد للذبح كالشاة والناقة .

٤- «بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٤٥٧ ، طبعة الكمباني .

قال له :

إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ عَلَيْكَ جِهَادَ الْمُفْتُونِينَ كَمَا كَتَبَ عَلَيَّ جِهَادَ
الْمُشْرِكِينَ . قَالَ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي كَتَبَ عَلَيَّ فِيهَا
الْجِهَادَ ؟!

قَالَ : قَوْمٌ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَهُمْ مُخَالِفُونَ
لِلسُّنَّةِ .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَعَلَّامٌ أَقَاتِلُهُمْ وَهُمْ يَشْهَدُونَ كَمَا أَشْهَدُ ؟!
قَالَ : عَلَى الْإِحْدَاثِ فِي الدِّينِ وَمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ !
فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنَّكَ كُنْتَ وَعَدْتَنِي الشَّهَادَةَ فَاسْأَلِ اللَّهَ أَنْ
يُعْجِلَهَا لِي بَيْنَ يَدَيْكَ !

قَالَ : فَمَنْ يُقَاتِلُ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ ؟ أَمَا إِنِّي قَدْ
وَعَدْتُكَ بِالشَّهَادَةِ وَتُسْتَشْهَدُ ! يُضْرَبُ هَذِهِ فَتُخْضَبُ هَذِهِ . فَكَيْفَ صَبْرُكَ
إِذْنُ ؟!

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! لَيْسَ ذَا بِمَوْطِنٍ صَبْرٍ . هَذَا مَوْطِنٌ شُكْرٍ !
قَالَ : أَجَلٌ ، أَصَبْتُ ، فَأَعِدَّ لِلْخُصُومَةِ فَإِنَّكَ مُخَاصِمٌ .
فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! لَوْ بَيَّنْتَ لِي قَلِيلًا .
فَقَالَ : إِنَّ أُمَّتِي سَتُفْتَنُ مِنْ بَعْدِي فَتَنَاولُ الْقُرْآنَ وَتَعْمَلُ بِالرَّأْيِ
وَتَسْتَحِلُّ الْخَمْرَ بِالْبَيْدِ وَالسُّحْتِ بِالْهَدْيَةِ وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ ، وَتَحْرُفُ الْكِتَابَ
عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَتَغْلِبُ كَلِمَةَ الضَّلَالِ .

فَكُنْ حَلَسَ بَيْنَكَ حَتَّى تُقَلِّدَهَا ، فَإِذَا قُلِدَتْهَا جَاشَتْ عَلَيْكَ الصُّدُورُ ،
وَقَلَبَتْ لَكَ الْأُمُورَ ، تُقَاتِلُ حِينئِذٍ عَلَيَّ تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَيَّ تَنْزِيلِهِ
فَلَيْسَتْ حَالُهُمُ الثَّانِيَةَ بِدُونِ حَالِهِمُ الْأُولَى .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! بَأَيِّ الْمَنَازِلِ أَنْزِلُ هَؤُلَاءِ الْمُفْتُونِينَ مِنْ

بَعْدَكَ؟! أَيْمَنْزَلَةٍ فِتْنَةٍ أَمْ بِمَنْزَلَةٍ رِدَّةٍ؟!
 فَقَالَ: بِمَنْزَلَةٍ فِتْنَةٍ يَعْمَهُونَ فِيهَا إِلَى أَنْ يُدْرِكَهُمُ الْعَدْلُ.
 فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيْدُرِكُهُمُ الْعَدْلُ مِنَّا أَمْ مِنْ غَيْرِنَا؟!
 فَقَالَ: بَلْ مِنَّا، بِنَا فَتَحَ اللَّهُ وَبِنَا يَخْتِمُ، وَبِنَا أَلَفَ اللَّهُ بَيْنَ الْقُلُوبِ بَعْدَ
 الشُّرْكِ وَبِنَا يُؤَلِّفُ بَيْنَ الْقُلُوبِ بَعْدَ الْفِتْنَةِ.
 فَقُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا وَهَبَ لَنَا مِنْ فَضْلِهِ.^١

إنّ الانحراف عن تأويل القرآن يُبعد الإنسان عن الحقيقة بقدر ما
 يبعده عنها الانحراف عن أصل القرآن، على أنّ فائدة القرآن تتلخّص في
 فهمه والعمل بمضمونه، فإن قال أحد: لقد قبلت القرآن لكنني لا أقبل
 تأويله، بل سأعمل وفق فهمي وإدراكي واستحساني، أي أنني لن أرجع
 المتشابهات إلى المحكمات، فهم كمثل من يقول: إنني لم أقبل القرآن
 أصلاً.

ولقد كانت مصيبة ومحنة أمير المؤمنين عليه السلام مع هذه الفئة من
 الناس، فقد ادّعى معاوية الماكر عابد الدنيا أنّه طالب بدم عثمان، وتمسك
 بآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ.^٢
 وآية: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ؛^٣ واتّهم أمير المؤمنين عليه السلام
 بقتل عثمان، وقام علماء الشام ممّن يعيش على فتات موائده بخداع
 وتحريض العوامّ والجهلة والبسطاء على قتال أمير المؤمنين عليه السلام
 وقلته، وعلى إقرار حكومة معاوية وإمارته تبعاً للآية الشريفة: وَمَنْ قُتِلَ

١- «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٤٥٧.

٢- الآية ١٧٨، من السورة ٢: البقرة.

٣- الآية ١٧٩، من السورة ٢: البقرة.

مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا.^١

فهذه الآيات من القرآن الكريم ، لكنّ مفهومها ومعناها لا يتضمّن حقّانيّة معاوية ، فقد كان لعثمان وليّاً وولداً يجب عليهم المطالبة بدمه ، فما شأن معاوية وذاك ؟ هذا أوّلاً .

وأما ثانياً ، فلم يكن أمير المؤمنين عليه السلام قد قاتل عثمان ، بل كان يمانع في قتله ، فما المعنى من التمسك والتشبّث بهذه الآية ؟!
وثالثاً : لقد بايعت جميع الطبقات بالخلافة لأمير المؤمنين عليه السلام ، فهو الحاكم المطاع للمسلمين ، ومن واجبه - عند فرض مظلوميّة عثمان وطلب ورثته القصاص من القتلة - أن يشكّل محكمة تفصل في الخصومة ، ولا شأن في هذا الأمر لمعاوية الذي ليس إلا واحداً من الرعيّة .

لكنّ معاوية وأعوانه تغاضوا عن كلّ هذه الخصوصيّات ، ووضعوا الآية القرآنيّة في غير موردها وموضوعها لإثارة الغوغاء والهرج سعيّاً للاستفادة من جوّ الفتنة والفساد ، وتوصلاً من خلاله إلى ارتقاء أريكة الحكم أيّاماً معدودة .

فهذه كلّها تمثّل الانحراف والزيغ : فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ آتِبِغَاءَ الْفِتْنَةِ
وَأَتِبِغَاءَ تَأْوِيلِهِ.^٢

يقول السيّد الرضي جامع «نهج البلاغة» : لما بلغه عليه السلام اتّهام بني أميّة له بالمشاركة في دم عثمان :

أَوْلَمْ يَنْهَ أُمَيَّةَ عِلْمُهَا بِي عَنْ قَرْفِي ؟ أَمَا وَزَعَ الْجُهَّالَ سَابِقَتِي عَنْ

١- الآية ٣٣ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢- الآية ٧ ، من السورة ٣ : آل عمران .

تَهْمَتِي؟ وَلَمَّا وَعَظَهُمُ اللَّهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي.^١

ومن أقواله عليه السلام بشأن تصرف معاوية في تأويل القرآن ، رسالة أرسلها له وقد أظهر فيها سعي معاوية للرئاسة بتأويل القرآن ، وقد أورد هذه الرسالة أيضاً السيد الرضي في «نهج البلاغة» :

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلُقْنَا، وَلَا بِالسَّعْيِ فِيهَا أَمْرًا. وَإِنَّمَا وَضَعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَى بِهَا.

وَقَدْ ابْتَلَانِي اللَّهُ بِكَ وَابْتَلَاكَ بِي! فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ؛ فَعَدَوْتَ عَلَيَّ طَلَبَ الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ، فَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَلَا لِسَانِي؛ وَعَصَبْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي.

وَأَلْبَ عَالِمُكُمْ^٢ جَاهِلُكُمْ، وَقَائِمُكُمْ^٣ قَاعِدُكُمْ. فَاتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ؛ وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ؛ وَاصْرِفْ إِلَى الْآخِرَةِ وَجْهَكَ. فَهِيَ طَرِيقُنَا وَطَرِيقُكَ.

وَاحْذَرُ أَنْ يُصِيبَكَ اللَّهُ مِنْهُ بِعَاجِلٍ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الْأَصْلَ وَتَقْطَعُ الدَّابِرَ. فَإِنِّي أَوْلَى لَكَ بِاللَّهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ: لِئِنْ جَمَعْتَنِي وَإِيَّاكَ جَوَامِعَ الْأَقْدَارِ، لَا أَزَالُ بِبَاحَتِكَ «حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ».^٤

وكم كان أمير المؤمنين عليه السلام يتأوه متألماً في خطبه زمن

١- يشير عليه السلام إلى الآية ١٢، من السورة ٤٩، الحجرات: وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ.

٢- يعني به أبا هريرة.

٣- يعني به عمرو بن العاص.

٤- «نهج البلاغة» الرسالة ٥٥؛ وفي «نهج البلاغة» طبعة مصر وتعليق الشيخ محمد

عبده: ج ٢، ص ١١٢.

خلافته وقبلة من كون القرآن صار مهجوراً ، ويتأسف من عدم الاستفادة من هذا الكنز الثمين :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَالاً ؛ وَيَمُوتُونَ ضَلَالاً ؛ لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ . وَلَا سِلْعَةٌ أَنْفَقَ بَيْعاً وَلَا أَعْلَى ثَمناً مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَلَا عِنْدَهُمْ أَنْكُرٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ ؛ وَلَا أَعْرَفٌ مِنَ الْمُنْكَرِ .^١

وكم كان يتأوه ويشكو من اختلاف الفقهاء مع أن مرجع جميع الفتاوى واحد ، وهو كتاب الله ، فلا محمل لاختلافهم هذا إلا الجهل بمواضع التأويل ، وعدم عرضهم الآيات على بعضها ، وعدم استعانتهم لرفع الإبهام في آيات القرآن بالقرآن نفسه :

وَالِهَيْبُ وَاحِدٌ وَنَبِيَّهُمْ وَاحِدٌ . أَفَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْاِخْتِلَافِ فَاطَاعُوهُ ؟ أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ ؟ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ دِيناً نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ ؟ أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ ، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى ؟ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ دِيناً تَاماً فَقَصَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ ؟ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : « مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » فِيهِ تَبَيَانٌ كُلُّ شَيْءٍ . وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً ، وَأَنَّهُ لَا اِخْتِلَافَ فِيهِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اِخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ ، لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ وَلَا تَنْقُضِي غَرَائِبُهُ ؛ وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ .^٢

١- «نهج البلاغة» الخطبة ١٧ ؛ وفي طبعة مصر وتعليق الشيخ محمد عبده : ج ١ ،

٢- «نهج البلاغة» الخطبة ١٨ ؛ وفي طبعه مصر بتعليق الشيخ محمد عبده : ج ١ ، ⇐

ويقول في موضع آخر في تعريف القرآن الكريم وتكريمه
وتعظيمه :

وَكِتَابُ اللَّهِ يَبِينُ أَظْهَرَكُمْ نَاطِقٌ لَا يَعْيَى لِسَانُهُ، وَبَيْتٌ لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ،
وَعِزٌّ لَا تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ... إلى أن يقول :

كِتَابُ اللَّهِ تُبْصِرُونَ بِهِ ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ
بِبَعْضٍ ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ . لَا يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ ؛ وَلَا يُخَالِفُ
بِصَاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ .

قَدْ اصْطَلَحْتُمْ عَلَى الْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ ، وَنَبَتِ الْمَرْعَى عَلَى دِمْنِكُمْ .
وَتَصَافِيئُكُمْ عَلَى حُبِّ الْأَمْوَالِ ، وَتَعَادِيئُكُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ . لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكُمْ
الْخَيْبُ ، وَتَاهَ بِكُمْ الْغُرُورُ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ .^١

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يذكر القرآن في خطبه كراراً ،
ويبين عظمته وكرامته ، ويكشف عن أصالته وإتقانه ، ويتأسف لتقصير
الناس وتفاعسهم عن الرجوع إلى هذه التحفة الإلهية والمائدة السماوية ،
وتقصيرهم عن الاستمسك الجاد بالكتاب ، ويتأوه ويئن من حكام الجور
المتلاعبين بحقيقة القرآن .

تأملوا في الخطبة التالية كيفية بحثه في عظمة القرآن والنبى الأكرم ،
وكيف بين أن طريق العلاج الوحيد ينحصر في متابعة رسول الله والعمل
بالقرآن ، وكم كان قلقاً من عدم العمل بالقرآن :

فَبَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ

ص ٥٥ .

١- «نهج البلاغة» الخطبة ١٣١ ، وفي طبعة مصر بتعليق الشيخ محمد عبده : ج ١ ،

ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَّهُ
وَأَحْكَمَهُ لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهَلُوهُ ، وَلِيَقْرُوا بِهِ إِذْ جَحَدُوهُ ، وَلِيُثْبِتُوهُ إِذْ
أَنْكَرُوهُ .

فَتَجَلَّى سُبْحَانَهُ لَهُمْ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ
قُدْرَتِهِ ، وَخَوْفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ . وَكَيْفَ مَحَقَّ بِالْمَثَلَاتِ وَاحْتَصَدَّ مِنَ احْتَصَدَّ
بِالنِّعَمَاتِ .

وَإِنَّهُ سَيِّئَاتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنْ الْحَقِّ ؛
وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكِذْبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَلَيْسَ عِنْدَ
أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تَلَيْ حَقٌّ تِلَاوَتِهِ ؛ وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ
إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ؛ وَلَا فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَلَا أَعْرَفُ
مِنَ الْمُنْكَرِ .

فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلْتُهُ ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظْتُهُ .

فَالْكِتَابُ يَوْمئِذٍ وَأَهْلُهُ مَنْفِيَانِ طَرِيدَانِ ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ فِي
طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَا يُؤْوِيهِمَا مُوْوٍ .

فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَلَيْسَا فِيهِمْ ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ ،
لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لَا تُوَافِقُ الْهُدَى وَإِنْ اجْتَمَعَا . فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ ؛
وَافْتَرَقُوا عَنِ الْجَمَاعَةِ كَأَنَّهُمْ أُنْمَةٌ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ .

فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ إِلَّا اسْمُهُ ؛ وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ . وَمِنْ قَبْلِ مَا
مَثَلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلِّ مَثَلَةٍ ؛ وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللَّهِ فِرْيَةً ؛ وَجَعَلُوا فِي
الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ .

وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَعْيِبِ آجَالِهِمْ ، حَتَّى نَزَلَ
بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْدِرَةُ ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ
وَالنُّقْمَةُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّهُ مِنْ اسْتَنْصَحَ اللَّهَ وَفَّقَ وَمَنْ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدًى
لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ . فَإِنَّ جَارَ اللَّهِ آمِنٌ ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ . وَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمَنْ
عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ . فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمْتَهُ أَنْ
يَتَوَاضَعُوا لَهُ وَسَلَامَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ .

فَلَا تَنْفَرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ وَالْبَارِي مِنْ ذِي
السُّمِّ !

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ ؛ وَلَنْ
تَأْخُذُوا بِمِثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ . وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى
تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ .

فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ وَمَوْتُ الْجَهْلِ . هُمْ
الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمَهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ ؛ وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ
بَاطِنِهِمْ ؛^١ لَا يَخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ . فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ
وَصَامِتٌ نَاطِقٌ .^٢

وقد أورد أمير المؤمنين عليه السلام عند رجوعه من معركة صفين^٣

١- لأن ظاهرهم في هيئة الخاشعين والخاضعين ، وباطنهم مصفى بالصفاء الإلهي
ومطهر بالقدس والطهارة الملكوتية والجبروتية واللاهوتية . وقيل : الظاهر عنوان الباطن .

٢- «نهج البلاغة» الخطبة ١٤٥ ؛ وفي طبعة مصر بتعليق الشيخ محمد عبده : ج ١ ،
ص ٢٦٥ إلى ٢٦٧ ؛ وفي شرح الملاف فتح الله الكاشاني : ص ٢٥٠ إلى ٢٥٣ ، وباعتبار اختلاف
ترتيب خطبه مع سائر الشروح فقد ذكر هذه الخطبة برقم ١٧٥ .

يقول : في «ينابيع المودة» الباب ٧٧ ، ص ٤٤٦ ، طبعة إسلامبول : يقول أمير المؤمنين
في خطبة في «نهج البلاغة» : «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ ... إلى
قوله عليه السلام : فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ وَمَوْتُ الْجَهْلِ .

٣- يقول الشيخ محمد عبده في تعليقه على «نهج البلاغة» الخطبة ٢ ، في بيان هذه
الكلمة : صَفَيْنَ كَسَجِّينَ محلّة عدّها الجغرافيون من بلاد الجزيرة (ما بين الفرات ودجلة) ،

خطبةً في عظمة كتاب الله ووجوب التمسك بآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيقول فيها بعد حمد الله والثناء عليه بلا حدّ والشهادة بالتوحيد المحض :

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ ، وَالْعِلْمِ الْمَأْثُورِ وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ .

إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ ، وَاحْتِجَاجًا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَتَحْذِيرًا بِالْآيَاتِ ، وَتَخْوِيفًا بِالْمَثَلَاتِ .

وَالنَّاسُ فِي فِتْنٍ أَنْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ ، وَتَرَعَزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ ، وَتَشَّتْ الْأَمْرُ ، وَضَاقَ الْمَخْرَجُ وَعَمِيَ الْمَصْدَرُ .
فَالْهُدَى حَامِلٌ وَالْعَمَى شَامِلٌ ، عَصِي الرَّحْمَنُ وَنَصِرَ الشَّيْطَانُ ، وَخُذِلَ الْإِيمَانُ . فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ ، وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ ، وَعَفَتْ شُرُكُهُ .

أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ ، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ وَقَامَ لَوَاؤُهُ ، فِي فِتْنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا ، وَوَطَّنَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا ، وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا .

فَهُمْ تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِيرَانٍ .
نَوْمُهُمْ سُهُودٌ وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ . بِأَرْضِ عَالِمِهَا مُلْجَمٌ وَجَاهِلِهَا مُكْرَمٌ .
«وَمِنْهَا يَعْنِي آلَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ» :

« والمؤرخون من العرب عدّوها من أرض سوريا ، وهي اليوم في واديّة حلب الشهباء ، وهذه الولاية كانت من أعمال سوريا .

يقول في أقرب الموارد : الشهباء لقب مدينة حلب ، لُقبت به لبياض صخورها .

مَوْضِعُ سِرِّهِ ، وَلَجَأُ أَمْرِهِ ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ ، وَمَوْثُلُ حِكْمِهِ ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ ، وَجِبَالُ دِينِهِ . بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ ، وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ - الخطة ١.

لقد استبان ممّا ذكرنا أنّ القرآن الكريم كتابٌ لرشد النفوس وتكميلها ، فهو يقوم بذلك حين لا تُصرف آياته فتُحمل على معنىٍ ومحملٍ آخر ، بل يؤخذ منها المراد الذي عني فيها ، وبغير ذلك فإنّ الأمر سيعطي عكس النتيجة المتوخّاة :

وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ٢.

ولقد كان رسول الله يقرأ القرآن فيكون معه كالعاشق الولهان ، تستقرّ الآيات في أعماق روحه فيصعد به الوجد والسرور ، أو يغرق في الحزن والألم ، لكنّ كلاً من هذه المعاني القرآنيّة اتخذت صورةً فعليّةً خارجيّة محسوسة تتجسّم أمام ناظرَيْه . ولقد كان تذكر القرآن ، وذكر القرآن وقراءته واستماعه أحلى لروحه من كلّ لذة وأبعث على المسرّة والبهجة ٣.

١- «نهج البلاغة» الخطبة الثانية؛ وفي طبعة مصر وتعليق الشيخ محمد عبده: ص ٢٧

إلى ٣٠.

٢- الآية ٨٢ ، من السورة ١٧ : الإسراء : وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا .

٣- أورد آية الله السيّد عبد الحسين شرف الدين في كتاب «أبو هريرة» ص ٩٣ ، الطبعة الثالثة ، النجف ، قال : وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ عَنْ خُلُقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَالَتْ : هَلْ قَرَأَتِ الْقُرْآنَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : خُلُقُهُ الْقُرْآنُ .

ويقول السيّد شرف الدين بعد ذلك : قُلْتُ : يَا لَهَا كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى بِلَاعَتِهَا وَمَعْرِفَتِهَا بِكُنْهِ أَخْلَاقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَلَا عُرْوَ فَقَدْ رَأَتْهُ وَالْقُرْآنَ نَصَبَ عَيْنَيْهِ ، يَهْتَدِي بِهِدْيِهِ ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ ، مُتَعَبِّدًا بِأُورَامِهِ وَزَوَاجِرِهِ ، مُتَأَدِّبًا بِأَدَابِهِ ، مَطْبُوعَةً عَلَى حِكْمَتِهِ ،

وقد ذكر سماحة العلامة الأستاذ قدس الله سره في باب سننه صلى الله عليه وآله وسلم :

١٨٠- ومن آدابه صلى الله عليه وآله وسلم في قراءة القرآن ما في مجالس الشيخ الطوسي رحمه الله بإسناده عن أبي الدنيا، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَا يَحْجِزُهُ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ إِلَّا الْجَنَابَةُ.

١٨١- وروي في «مجمع البيان» عن أم سلمة قالت : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً.^١

﴿ يَسْبِعُ أَثْرَهُ وَيَقْتَفِي سُورَهُ. ﴾

١- أورد ابن كثير الدمشقي في كتاب «البداية والنهاية» ج ٧، ص ١٦٢، ضمن ترجمة عبد الله بن مسعود، أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً : أَقْرَأُ عَلَيَّ .

فقلت : أَقْرَأُ عَلَيْكَ ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ ؟!

قال : إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي .

فتحت سورة النساء ، فلما بلغت : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ، رأيت عيناه تفيضان من الدمع ، فقال لي : حَسْبُكَ !

ونقل الغزالي هذا الخبر في «إحياء العلوم» ج ٢، ص ٢٦١، وأضاف عليه :

وفي رواية أنه قرأ هذه الآية أو قرئت عليه : إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ، فأغمي عليه .

وفي رواية أنه بكى حين قرأ هذه الآية : إِنَّ تَعَذِّبُهُمْ فَانَّهُمْ عِبَادُكَ .

وكان من عادته إذا وصل إلى آية فيها رحمة دعا واستبشر ، وهو استبشارٌ ووجد أثنى الله تعالى على أصحابه ، فقال : وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل .

١٨٢- وفي «تفسير أبي الفتوح» كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَا يَرْقُدُ حَتَّى يَقْرَأَ الْمُسَبِّحَاتِ ، وَيَقُولُ : فِي هَذِهِ السُّورِ آيَةٌ هِيَ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ . قَالُوا : وَمَا الْمُسَبِّحَاتُ ؟!

قَالَ : سُورَةُ الْحَدِيدِ وَالْحَشْرِ وَالصَّفِّ وَالْجُمُعَةِ وَالتَّغَابُنِ .

أقول : وروى هذا المعنى في «مجمع البيان» عن العَرَبِاصِ بْنِ سَارِيَةَ .^١
١٨٣- وروى في كتاب «درر اللثالي» لابن أبي جمهور الأحسائي ، عن جابر قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ تَبَارَكَ وَالْمَ التَّنْزِيلِ .^٢

١٨٤- وورد في «مجمع البيان» : روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام ، قال :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ : «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» ؛ وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى» مِيكَائِيلُ .

أقول : وروى صدر هذا الحديث في «البحار» عن تفسير «الدر المنثور» ، وهناك أخبار وروايات أخرى في ما كان يقوله صلى الله عليه وآله وسلم عند تلاوة القرآن أو عند تلاوة سور أو آيات مخصوصة ، من أرادها فعليه بمطانتها .

وكان له صلى الله عليه وآله وسلم خطب وبيانات يُرَغَّبُ فِيهَا وَيَحْت

١- روى الكليني في «أصول الكافي» باب فضل القرآن ، ج ٢ ، ص ٦٢٠ ، بسنده المتصل عن جابر قال : سمعت الإمام الباقر عليه السلام يقول : مَنْ قَرَأَ الْمُسَبِّحَاتِ كُلَّهَا قَبْلَ أَنْ يَنَامَ ، لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُدْرِكَ الْقَائِمَ ؛ وَإِنْ مَاتَ كَانَ فِي جَوْارِ مُحَمَّدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

أقول : المراد بالمسبِّحات السور الخمس التي تبدأ بسبِّح أو يسبِّح .

٢- سورة تبارك : السورة ٦٧ ، وسورة ألم تنزيل هي السورة ٣٢ من القرآن الكريم .

على التمسك بالقرآن والتدبر فيه والاهتداء بهديه والاستنارة بنوره .
وكان صلّى الله عليه وآله وسلّم أولى الناس بما يندب إليه من
الكمال وأسبق الناس وأسرعهم إلى كلّ خير ، وهو القائل - في الرواية
المشهورة - : شَيَّبَنِي سُورَةُ هُودٍ .^١

١- يُشير عليه السلام بقوله هذا إلى قوله تعالى في هذه السورة: فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ .
وقد وردت هذه الآية في موضعين من القرآن ، الأول في سورة هود ، الآية ١١٢ :
فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ؛ والثاني في سورة الشورى ، الآية ١٥ : فَلِذَلِكَ
فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ .

لذا ورد في بعض الروايات : شَيَّبَنِي سُورَةُ هُودٍ وَأَخَوَاتُهَا .

يقول الشيخ أبو الفتوح الرازي في تفسيره ، طبعة مظفرى ، ج ٣ ، ص ١٠١ : قال ابن
عبّاس : لم تنزل على رسول الله عليه السلام آية أشد من هذه الآية ، لذا قال له أصحابه :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَسْرَعَ إِلَيْكَ الشَّيْبُ ! قال : شَيَّبَنِي سُورَةُ هُودٍ . وفي رواية : وَأَخَوَاتُهَا - انتهى .

ورود في تفسير «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ١٩٩ ، طبعة صيدا ، بهذه العبارة :
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا نَزَّلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ آيَةً كَانَتْ أَشَدَّ عَلَيْهِ
وَلَا أَشَقَى مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ .

وَلِذَلِكَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ - حِينَ قَالُوا لَهُ : أَسْرَعَ إِلَيْكَ الشَّيْبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ !- : شَيَّبَنِي
سُورَةُ هُودٍ وَالْوَاقِعَةُ .

وذكرها في «تفسير الصافي» ج ٢ ، ص ٨١٥ ، بهذه العبارة : وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : مَا نَزَّلَتْ
آيَةً كَانَتْ أَشَقَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : شَيَّبَنِي
هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَأَخَوَاتُهَا .

وقال الشيخ علي اليزدي في هامشه ، ذيل الصفحة : وتُقل عن البعض أنه قال : رأيت
رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في المنام فقلت له : يا رسول الله ! روي عنك قولك :
شَيَّبَنِي هُودٌ ؟

قال : نعم ، فسألت : ما الذي شَيَّبَكَ فيها ، أكان قصص الأنبياء وهلاك أمهم ؟

قال : لا ، وَلَكِنْ قَوْلُهُ : «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ» .

(لا يخفى أنّ الحاجّ الشيخ علي اليزدي - وهو مصحّح ومتبني الطبعة الأولى -

وقد روي عن ابن مسعود، قال: أمرني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَتْلُو عَلَيْهِ شَيْئاً مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُورَةِ يُونُسَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى: **وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلِبُهُمُ الْحَقِّ** - الآية، رأيتُهُ وَإِذَا الدَّمْعُ تَدَوَّرَ فِي عَيْنَيْهِ الْكَرِيمَتَيْنِ.^٢

وعلى هذا الأساس روى الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

حَمَلَةُ الْقُرْآنِ عُرْفَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ وَالْمُجْتَهِدُونَ قَوَادُ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ وَالرُّسُلُ سَادَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ.^٣

وروى الكليني أيضاً عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن قاسم بن محمد، عن سليمان بن داود المنقري، عن حفص قال: سمعتُ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يقول لرجل: أتحبُّ البقاء في الدنيا؟ فقال: نعم. فقال: ولم؟ قال: لقراءة قل هو الله أحد. فسكت عنه. فقال لحفص بعد ساعة:

«الحجريّة لـ«تفسير الصافي» سنة ١٣٣٤، التي أعدت هذه الطبعة على أساسها. قد ذكر في خاتمة الكتاب أنه قد علق على بعض مطالب الكتاب، إلا أنه لم يُشخّص تلك الموارد. ويبدو أنّ الموارد المعلمة برقم (١١٠) - وهذا المورد منها - هي تعليقاته.

ويروي في خصال الصدوق، ج ١، ص ١٩٩، باب الأربعة، بسنده المتصل عن أبي بكر أنه قال لرسول الله: **يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَسْرِعَ إِلَيْكَ الشَّيْبُ!** قَالَ: **شَيْبَتِي سُورَةُ هُودٍ وَالْوَأَقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتِ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ.**

١- مقطع من الآية ٣٠، من السورة ١٠: يونس: **هُنَالِكَ تَبْلُغُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْأَلَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلِبُهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ.** وهذه الرواية منقولة بالمعنى.

٢- «الميزان في تفسير القرآن» ج ٦، ص ٣٥٦ و ٣٥٧.

٣- «أصول الكافي» ج ٢، ص ٦٠٦.

يَا حَفْصُ ! مَنْ مَاتَ مِنْ أَوْلِيَانِنَا وَشِيعَتِنَا وَلَمْ يُحْسِنِ الْقُرْآنَ عُلِّمَ فِي قَبْرِهِ لِيَرْفَعَ اللَّهُ بِهِ مِنْ دَرَجَتِهِ ؛ فَإِنَّ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ عَلَى قَدْرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، يُقَالُ لَهُ : أَقْرَأُ وَارْقَ ، فَيَقْرَأُ ثُمَّ يَرْقَى .

قال حفص : فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشَدَّ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَلَا أَرْجَأَ النَّاسِ مِنْهُ . وَكَانَتْ قِرَاءَتُهُ حُزْنًا . فَإِذَا قَرَأَ فَكَأَنَّهُ يُخَاطَبُ إِنْسَانًا .^١

وروى الكليني أيضاً بسنده المتصل ، عن الزهري قال : قال علي بن الحسين عليهما السلام :

لَوْ مَاتَ مَنْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَمَّا اسْتَوْحَشْتُ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنَ مَعِي . وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا قَرَأَ «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» يُكْرَرُهَا حَتَّى كَادَ أَنْ يَمُوتَ .^٢

وأورد الكليني أيضاً بسنده المتصل عن الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام ، أن النوفلي ذكر الصوت عنده ، فقال عليه السلام :

إِنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ كَانَ يَقْرَأُ فَرَبِّمَا مَرَّ بِهِ الْمَارُّ فَصَعِقَ مِنْ حُسْنِ صَوْتِهِ . وَإِنَّ الْإِمَامَ لَوْ أَظْهَرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا لَمَا احْتَمَلَهُ النَّاسُ مِنْ حُسْنِهِ .

قُلْتُ : وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يُصَلِّي بِالنَّاسِ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ ؟

فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يَحْمَلُ النَّاسَ مِنْ خَلْفِهِ مَـا يُـطِيقُونَ .

١- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦١٥ .

٢ و٣- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦١٦ .

وروى الكليني أيضاً بسنده المتصل عن الإمام الصادق عليه السلام ،
 قَالَ : كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَحْسَنَ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ
 وَكَانَ السَّقَاوُونَ يَمْرُونَ فَيَقْفُونَ بِبَابِهِ يَسْمَعُونَ قِرَاءَتَهُ ؛ وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ أَحْسَنَ النَّاسِ صَوْتًا .^١

لقد كانت تلاوة الإمام زين العابدين عليه السلام للقرآن ، وشرح
 حالاته ، وحال الإغماء والتحير والفناء التي كانت تحصل عنده وقت تلاوته
 القرآن لأمرٌ عجيبٌ حقاً ؛ تُرى بأيّ نظر ورؤية كان يتلوه ؟ وأيّة جهة من
 جهاته كان يواجه ويُقابل ؟ من شاء الاطلاع الكامل على ذلك فليقرأ وليتدبر
 وليتأمل دعاء الإمام عند ختم القرآن ، الوارد في «الصحيفة السجادية»
 ليدرك الأبعاد الواسعة والجهات الكثيرة التي كانت تستلفت نظره المقدّس
 من كلّ جانب عند قراءته القرآن .^٢

ونكتفي هنا بإيراد عدّة فقرات من هذا الدعاء الكريم المبارك ونُحيل
 القراء الكرام إلى متن الصحيفة المقدّسة ليستفيدوا من دعاء ختم القرآن
 ومن سائر أدعيتها الرشيقة آناء ليلهم وأطراف نهارهم :

١- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦١٦ .

٢- ينقل الشيخ المفيد في «الاختصاص» ص ١٤١ ، دعاءً عن الإمام الصادق عليه
 السلام كان يتلوه بعد قراءة القرآن : اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ قَرَأْتُ مَا قَضَيْتَ لِي مِنْ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ
 عَلَيَّ نَبِيِّكَ الصَّادِقِ ، فَفَلَكَ الْحَمْدُ رَبَّنَا . اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِمَّنْ أَحَلَّ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ وَأَمَّنَ
 بِمُحْكَمِهِ وَمُتَسَابِهِهِ ، وَاجْعَلْهُ لِي أَنْسَافِي قَبْرِي وَأَنْسَافِي حَشْرِي وَأَنْسَافِي نَشْرِي ، وَاجْعَلْنِي
 مِمَّنْ تُرَفِّقُهُ بِكُلِّ آيَةٍ قَرَأْتُهَا لِي دَرَجَةً فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيَّ
 مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ... إلى آخر الدعاء الذي يزيد على ما نقلنا منه بمرتين ونصف ويحوي
 مضامين ومفاهيم عالية .

وقد أورد العلامة المحدّث الفيض الكاشاني هذا المقدار الذي نقلناه هنا في «المحجّة

البيضاء» ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْتَنِي عَلَى خَتْمِ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ نُورًا ؛ وَجَعَلْتَهُ
 مُهَيِّمًا عَلَى كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلْتَهُ ؛ وَفَضَّلْتَهُ عَلَى كُلِّ حَدِيثٍ قَصَصْتَهُ ؛ وَفَرَقَانًا
 فَرَقْتَ بِهِ بَيْنَ حَلَالِكَ وَحَرَامِكَ ؛ وَقُرْآنًا أَعْرَبْتَ بِهِ عَنْ شَرَائِعِ أَحْكَامِكَ ،
 وَكِتَابًا فَصَّلْتَهُ لِعِبَادِكَ تَفْصِيلًا ، وَوَحْيًا أَنْزَلْتَهُ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى
 عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنْزِيلًا ؛ وَجَعَلْتَهُ نُورًا نَهْتَدِي مِنْ ظُلْمِ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ بِاتِّبَاعِهِ ،
 وَشِفَاءً لِمَنْ أَنْصَتَ بِهِمْ التَّصْدِيقِ إِلَى اسْتِمَاعِهِ ، وَمِيزَانَ قِسْطٍ لَا يَحِيفُ
 عَنِ الْحَقِّ لِسَانُهُ ، وَنُورَ هُدًى لَا يَطْفَأُ عَنِ الشَّاهِدِينَ بِرُهَانِهِ ، وَعَلِمَ نَجَاةٍ
 لَا يَضِلُّ مَنْ أَمَّ قَصْدَ سُنَّتِهِ ؛ وَلَا تَنَالُ أَيْدِي الْهَلَكَاتِ مَنْ تَعَلَّقَ بِعُرْوَةِ
 عِصْمَتِهِ .

اللَّهُمَّ فَإِذَا أَفَدْتَنَا الْمَعُونَةَ عَلَى تِلَاوَتِهِ ؛ وَسَهَّلْتَ جَوَاسِي الْأَسْتِنَا
 بِحُسْنِ عِبَارَتِهِ فَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَرَعَاهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ ، وَيَدِينُ لَكَ بِاعْتِقَادِ التَّسْلِيمِ
 لِمُحْكَمِ آيَاتِهِ ؛ وَيَفْزَعُ إِلَى الْإِفْرَارِ بِمُتَشَابِهِهِ وَمُوضِحَاتِ بَيِّنَاتِهِ .
 حتى يقول :

اللَّهُمَّ وَكَمَا نَصَبْتَ بِهِ مُحَمَّدًا عِلْمًا لِلدَّلَالَةِ عَلَيْكَ ، وَأَنْهَجْتَ بِآلِهِ
 سُبُلَ الرِّضَا إِلَيْكَ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ، وَاجْعَلِ الْقُرْآنَ وَسِيلَةً لَنَا
 إِلَى أَشْرَفِ مَنَازِلِ الْكِرَامَةِ ؛ وَسَلِّمًا نَعْرُجُ فِيهِ إِلَى مَحَلِّ السَّلَامَةِ ؛ وَسَبَبًا
 نُجْزِي بِهِ النَّجَاةَ فِي عَرَصَةِ الْقِيَامَةِ ، وَذَرِيعَةً نَقْدُمُ بِهَا عَلَى نَعِيمِ دَارِ
 الْمُقَامَةِ !

ثم يصل إلى القول :

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ، وَأَدِمِ بِالْقُرْآنِ صِلَاحَ ظَاهِرِنَا ، وَاحْجُبْ
 بِهِ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ عَنْ صِحَّةِ ضَمَائِرِنَا ، وَاغْسِلْ بِهِ دَرْنَ قُلُوبِنَا وَعَلَائِقَ
 أَوْزَارِنَا ، وَاجْمَعْ بِهِ مُتَشَرِّ أُمُورِنَا ، وَأُرُوِّ بِهِ فِي مَوْقِفِ الْعَرَضِ عَلَيْكَ ظَمًا

هَوَاجِرْنَا ، وَاكْسَنَا بِهِ حُلَلَ الْإِيمَانِ يَوْمَ الْفَرَعِ الْأَكْبَرِ فِي نُشُورِنَا .^١

١- الدعاء الثاني والأربعون من «الصحيفة الكاملة السجّادية». واعلم أنّ هذه الصحيفة تدعى بالكاملة باعتبارها مقابل صحيفة أخرى عند الزيدية تقارب نصف هذه الصحيفة. أمّا سند هذه «الصحيفة الكاملة» فهو في أعلى درجات الإتقان ، لأنّ كلاً من العلماء الأعلام والأجلاء الكرام السبعة قد رواها عن بهاء الشرف . وبيان ذلك أنّ هذا الحقير التقى يوماً بأستاذه في فنّ الرجال والحديث : سماحة العلامة الحاجّ الشيخ آغا بزرگ الطهرانيّ قدس الله سرّه خلال سنوات دراستي في النجف الأشرف ، فتطرّق الحديث إلى «الصحيفة السجّادية»، فجاء سماحته بنسخته الخطيّة من الصحيفة وأراني ما كتب بإنشائه خلف صفحتها الأولى كي أنسخه، فنسخت منه في صفحة منفصلة ألحقتها قبل الصفحة الأولى للنسخة الخطيّة لصحيفتي .

وإجمال ذلك المطلوب أن الصحيفة قد رواها عن بهاء الشرف الذي ورد اسمه في بدايتها جماعة ذكر منهم الشيخ نجم الدين جعفر بن نجيب الدين محمد بن جعفر بن هبة الله ابن نما الحلبيّ في إجازته المسطورة في إجازة صاحب «المعالم» وتاريخ بعض إجازاته يرجع لسنة ٦٣٧ هـ. ق كما جاء في كتاب إجازات «البحار» ص ١٠٨ ، وأولئك الجماعة هم : جعفر ابن عليّ المشهديّ -أبو البقاء هبة الله بن نما- الشيخ المقري جعفر بن أبي الفضل بن شعرة -الشريف أبو القاسم بن الزكيّ العلويّ ، الشريف أبو الفتح بن الجعفرية- الشيخ سالم بن قبارويه- الشيخ عربي بن مسافر -وجميعهم من الأجلاء والمشاهير- انتهى ملخصاً .
نعم ، إنّ هذه الصحيفة مضافاً إلى التعبير عنها بالكاملة فإنّها تُدعى أيضاً بـ«أخت القرآن» و«إنجيل أهل البيت» و«زبور آل محمد» .

وقد قام الشيخ الحرّ العامليّ ، المتوفى سنة ١١٠٤ هـ. ق بجمع ما ورد من أدعية الإمام السجّاد عليه السلام غير الواردة في «الصحيفة» وسماها بـ«الصحيفة السجّادية الثانية». وقام الفاضل المتبحّر الميرزا عبد الله أفندي ، صاحب «رياض العلماء» من تلامذة المجلسيّ بجمع مستدركات الصحيفتين فصارت «الصحيفة السجّادية الثالثة». وجمع الشيخ العلامة الحاجّ الميرزا حسين النوريّ ، المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ. ق أدعية الإمام التي لم ترد في الصحيفة الأولى والثانية والثالثة ، فدعيت بـ«الصحيفة السجّادية الرابعة» ، ثمّ قام بعده العلامة السيّد محسن الأمين صاحب «الأعيان» بجمع المستدركات جميعها في صحيفة سجّادية خامسة ، وكذلك قام الشيخ محمد صالح المازندرانيّ الحائريّ المولود سنة ١٢٩٧ هـ. ق بكتابة

نعم ، لقد كانت آيات القرآن تستقرّ في أعماق نفس الإمام السجّاد عليه السلام فتسوق فكره وذكّره وعنايته من عالم الدنيا والغرور مباشرةً إلى عالم التوحيد والعرفان والبقاء . ولقد كان القرآن هو الذي ينزّهه ويطهّر الأئمة وأولياء الله ويوصلهم إثر المجاهدة وصقل النفس إلى أعلى المدارج المتصوّرة ، لا أن يكون الله قد خلق وجودهم ملائكيّاً لا حاجة معه للمجاهدة والإرادة ، أو أن يكونوا قد قدموا في هذا الدنيا متفرّجين ومعلّمين

﴿ صحيفة سجّادية سادسة وردت في فهرست تصانيفه .

وينبغي العلم أنّه قد جرى تأليف صحيفتين علويّتين ، أولاهما باسم «الصحيفة العلوية والتحفة المرضية» ألّفها الشيخ عبد الله بن صالح بن جمعة البحرانيّ ، المتوفّى سنة ١١٣٥ هـ. ق ، وهو ابن أخ الشيخ عبد علي بن جمعة العروسيّ الحوزيّ صاحب «تفسير نور الثقلين» . والثانية باسم «الصحيفة العلوية الثانية» جمعها المحدث الكبير الحاجّ الميرزا حسين النوريّ ، وهناك كتاب «الصحيفة الحسينية» الذي ألّفه السيّد الميرزا محمّد حسين الشهرستانيّ المتوفّى سنة ١٣١٥ هـ . ق .

أمّا الأدعية الواردة عن الإمام الحجّة عجلّ الله تعالى فرجه فقد ألّف فيها أولاً «الصحيفة الهادية والتحفة المهدية» تأليف الشيخ إبراهيم بن محسن الكاشانيّ . وثانياً «الصحيفة القائمة» أو (المهدوية) للعلامة الكبير الشهيد المظلوم المصلوب الحاجّ الشيخ فضل الله النوريّ ، ابن أخت المحدث النوريّ . وثالثاً «الصحيفة المهدوية في أدعية المهديّ» وتشمل إنشاءات الإمام فقط ، لا ما نقله عن آبائه الكرام ، وهي للعلامة المحدث الكبير الميرزا محمّد بن رجب عليّ الطهرانيّ ، المتوفّى سنة ١٣٧١ هـ . ق ، وكان هذا الرجل الكبير من أتقياء وأعظم عصره ، وكان يتمتع من التصدّي للإفتاء ، وتحمل في هذا المجال المصائب أيام حياته ، له تصانيف عديدة أهمّها كتاب كبير باسم «مستدرك بحار العلامة المجلسي» ، وهو خال هذا الحقير لأبيه ، وكان ربيب العلامة الحاجّ الميرزا محمّد حسن الشيرازيّ صاحب فتوى تحريم التباكو ، ومن أعظم تلامذته . قضى عمره في سامراء في التحصيل والتدريس والتعليم وتدوين الكتب وإحياء الفقه الجعفريّ ، توفّي هناك في التسعين من عمره ودُفن في الرواق المطهّر .

فقط .

فهذا القول خلاف للعقل ، وخلاف للضرورة ، وخلاف للشواهد القطعية للكتاب والسنة ، وهو قول المتقاعسين الذين يقولون : ما لنا وللأئمة ؟ فأولئك كانوا ملكوتيين ، لا ميل لهم إلى الشهوات ، ولا رغبة لهم لسماع الغناء والموسيقى ، كما أنّ جمال الوجوه الفاتنة كفلقة قمر لا يبدو لديهم إلا كالغول البشع .

والقائلين : إنّ مسألة الأئمة منفصلة أساساً عن البشر ، فمهما جاهد البشر وتحمل الأذى والمحنة فلن يصل لمقام عرفان الله ، لأنّ المقام السامي للمعرفة مختصّ بهم ومقصودٌ عليهم .

كَلَّا ، لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۗ^١

إنّ عبادات رسول الله والأئمة الطاهرين وجهادهم ومصابرتهم وتحملهم ، وآلامهم ومحنتهم ، ونومهم ويقظتهم ، وعافيتهم وسقمهم ، وجوعهم وشبعهم تشير بجلاء في جميع الأمور إلى كونهم بشراً مجبولين من هذا الماء والطين ، كلّ ما في الأمر أنّهم وصلوا إلى هذا المقام بتبعيتهم لأوامر الله وجهادهم الشيطان والنفس الأمّارة ، وتحملهم آلاف المصاعب والمتاعب ، وطاعتهم في سبيل الله وبهدف نيل رضا حضرته القدسية ، وهو سبيلٌ وطريقٌ مفتوح للجميع ، وليس طريق العرفان بمغلق في وجه أحد ، وبإمكان كلّ أحد أن ينال مقام التوحيد ويصبح عبد الله ووليّه ، ويرد في حرم أمنه وأمانه .

وبالطبع فإنّ منصب الإمامة منصب خاصّ منحصر بالأئمة عليهم

١- الآية ١١٠ ، من السورة ١٨ : الكهف .

السلام ، ولا علاقة لهذا الأمر بكمال وتوحيد سائر الأفراد ، فجميع سكّان العالم يمكنهم طيّ هذا الدرب في ظلّ تربية وولاية وإمامة الأئمة عليهم السلام لنيل أعلى درجة في كمال الإنسانيّة .

إنّ المواعظ الإلهيّة في كتاب الله المقدّس تحرّك النفس الهيلولانيّة المستعدّة للإنسان ، وتهب الفعلية لجميع الاستعدادات والمواهب خلال السير في طريق التربية والتعليم ، فهي تعالج الأسقام الكامنة والمتراكمة في النفوس ، وتضع مرهم الشفاء على الجراحات المستعصية على العلاج فتمنحها الشفاء والالتيام ، وتعمّم وتوسّع رحمة الظاهر ورحمة الباطن .

وعلى المؤمنين أن يتمسّكوا بمثل هذا الكتاب ويسعدوا ويسرّوا بتعليم القرآن ، أي بفضل الله ورحمته .

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ^١ .
 ويعجز العقل عن وصف ما وصل إليه المسلمون إثر تعليم القرآن ، فأولئك الأقوام المتعطّشة للدماء ، المفتقدة للحميّة والعاطفة والإنصاف ، وأولئك الذين كانوا يئدون بناتهم أحياءً ، صاروا وقد ألفت المودّة والألفة بين قلوبهم إثر اتّباعهم القرآن الكريم بشكل يصعب تصوّره .

وهناك رواية عن حذيفة ، عن هشام قال : أخذتُ إناءً في معركة بدر لأسقي أحد إخوتي في الله ، وكان قد سقط في جانب من الميدان تشخب الدماء منه ، فلمّا دنوتُ منه ، قال : ناول هذا الماء ذلك الرجل الساقط هناك ، فهو أشدّ ظمأً منّي ، فأخذتهُ إليه ، فقال : إنّ أخي فلان الساقط على الأرض في ذلك الجانب من الميدان أشدّ منّي ظمأً ، فخذ الماء إليه . فأخذت الماء

١- الآية ٥٨ ، من السورة ١٠ : يونس ، وقال قبل هذه الآية : يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمِمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .

إليه فوجدته قد فارق الحياة ، فعدت مسرعاً إلى الثاني فوجدته قد فارق الحياة ، فعجلت إلى الأول بالماء فرأيته قد فارق الحياة أيضاً .

كان قرح الماء القراح في يده ، لكنّ شهداء طريق الحقّ الثلاثة ماتوا مؤثرين ، يهدّهم العطش والجراح . ولقد كان هؤلاء جميعاً على أعتاب التوحيد والعرفان الإلهي والتعليم القرآني فَبَدَلِكَ فَلَيفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ، فلقد اختمرت قلوبهم وضماثرهم وأرواحهم ، بهذه الآية فنتج عنها جميعاً عجبيناً واحداً خاصاً .

فقارنوا هذه الرواية مع ما فعله الجنود الفرنسيون الذين قاتلوا في جيش نابليون لهزيمة الروس في روسيا ، فقد جاء في التأريخ أنّ جنوده حين واجههم في روسيا برد الشتاء القارس الذي لا يُطاق ، كانوا يعمدون إلى بطون المجروحين الساقطين على الأرض فيشقونها ويدخلون أيديهم فيها ليدفنونها !!

هذه هي حرب الكافر وهدفه ، وتلك هي حرب المسلم التابع للقرآن وهدفه .

ينقل في «سفينه البحار» قصّة الفُضيل بن عياض^١ وكيف أنّ آية

١- عياض (بكسر العين) ، وقد ذكر الشيخ العطار في «تذكرة الأولياء» ص ٧٨ إلى ٨٧ ترجمة الفضيل وشرح حاله ، يقول في جملته: ذهب هارون الرشيد ووزيره الفضل البرمكي لرؤيته ، فإذا هو يتلو هذه الآية : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . الآية ٢١ ، من السورة : ٤٥ : الجاثية ، فقال هارون : إن جئت أطلب الموعدة ففي هذه كفاية . ثم قرعوا الباب ، فقال : من هذا ؟

قال الفضل : أجب أمير المؤمنين .

قال : ما لي ولأمير المؤمنين ؟ وما يبغى مني أمير المؤمنين ؟

⇐

قرآنيّة واحدة استقرّت في أعماق وجوده فأثّرت في روحه ومحت برنامج سنين طويلة من القتل والنهب والإغارة ، فتاب وصار في صفّ أولياء الله والمقرّبين في فناء حضرته ، وله حالات ومقامات وكرامات صارت سبب عبرة أهل زمانه ، وقد جعله كشف الحجب الظلمانيّة ثمّ النورانيّة في زمرة العرفاء الساميين الأجلّاء .

يقول: كان في أول أمره يقطع الطريق بين أبيورّد وسرخس ، وكانت القوافل تعاني منه الأمرين ؛ عشق جاريةً فيبينما كان يرتقي الجدران إليها سمع تالياً يتلو :

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ۗ

فقال والدموع تنحدر ما مآقيه : آن ، آن ، آن والله .

◀ قال : أو ليست طاعة أولي الأمر واجبة ؟

قال : لا ترغّبني بذلك .

قال : أتفتح طوعاً أم بأمر .

قال : لا حاجة للأمر ، إن شئتم الدخول كرهاً فأنتم وشأنكم .

فدخل هارون وجاء قرب الفضيل فنفخ الشمعة لنألا يرى وجهه ، فمدّ هارون

يده إليه ومدّ فضيل يده إليه ، فقال : مَا أَلَيْنَ هَذَا الْكَفُّ لَوْ نَجَا مِنَ النَّارِ !

قال هذا وقام للصلاة ، فتغيّر وجه هارون وبكى ، وقال : زدني ! ... حتّى يصل إلى

القول: فبكى هارون بكاءً شديداً حتّى كاد أن يُغمى عليه ، فقال الفضل الوزير : كُفّ فقد قتلت

أمير المؤمنين !

قال : صَهْ يا هامان ! أنت وصحبك تقتلونني ، ثمّ تقول لي : قتلتّه ، أفهذا هو القتل !؟

فزاد بكاء هارون لهذا الكلام ، ثمّ التفت إلى الفضل ، وقال :

ولقد دعاك هامان ليضعني مكان فرعون .

١- صدر الآية ١٦ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

فرجع وآوى الى خربة ، فإذا فيها رفقة ، فقال بعضهم : نرتحل . وقال بعضهم : حتى نصبح فإنّ فضيلاً على الطريق يقطع علينا ، فأخبرهم الفضيل بتوبته وآمنهم وقال : اذهبوا في أمان الله لا بأس عليكم ^١ .
ثمّ التحق الفضيل من هناك بصحبة الإمام الصادق عليه السلام وصار من أصحابه وخواصّه المحدثين عنه ، يذكره جميع الكبار بالوثاقة والعدالة ويعدّون رواياته معتبرة .

يقول المحدث النوريّ في «مستدرك الوسائل» في شرح حال كتاب «مصباح الشريعة» :

وبالجملة فلا أستبعد أن يكون كتاب «مصباح الشريعة» هو النسخة التي رواها الفضيل ، فهو على مذاقه ومسلكه ، والذي اعتقده أنّه جمعه من ملتقطات كلام الإمام الصادق عليه السلام في مجالس وعظه ونصيحته . ولو فرض فيه شيء يخالف مضمونه بعض ما في غيره وتعذر تأويله فهو منه على حسب مذهبه لا من فريته وكذبه ، فإنّه ينافي وثاقته - انتهى ^٢ .

نعم ، لقد ذهب الفضيل من محضر الإمام الصادق عليه السلام إلى مكة وتوفي فيها سنة ١٨٧ هـ . ق ، يوم عاشوراء . قيل : كان للفضيل ولد اسمه عليّ وكان أفضل من أبيه في الزهد والعبادة ، إلّا أنّه لم يتمتّع بحياته كثيراً ، وكان سبب موته أنّه كان يوماً في المسجد الحرام واقفاً قرب ماء زمزم فسمع قارياً يقرأ :

١- «سفينه البحار» المحدث القميّ ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ .

٢- بحث المحدث النوريّ في خاتمة «المستدرك» ج ٣ ، ص ٣٢٨ بشأن «مصباح الشريعة» فقال : وقد قطع السيّد ابن طاووس والكفعميّ والشهيد الثاني بكونه للإمام الصادق عليه السلام ، مع أنّ بعض العلماء شكّوا في سنده . ثمّ بيّن المحدث النوريّ رأيه أخيراً - في ص ٣٣٣ - بالعبارات التي أوردناها .

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ ١
وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ؛ ٢ فصعق ومات. ٣

ونظير تأثير الآية القرآنية في الفضيل ، تأثير كلام الإمام الحق والولي الرفيع لعالم الإمكان في بشر الحافي .

فقد كان بشر الحافي أول أمره يتعاطى الخمر ومشغولاً بصحبة الغواني واستماع الأغاني والطرب والمجون ، حتى اتفق يوماً - كما يذكر العلامة الحلبي في كتاب «منهاج الكرامة» - أن كان الإمام الكاظم : موسى بن جعفر عليهما السلام يجتاز على داره ببغداد فسمع الملاهي وأصوات الغناء والرقص والناي تعلق من داره ، وخرجت أثناء ذلك جارية بالقمامة تريد إلقاءها خارج الدار ، فسألها الإمام :

يَا جَارِيَّةُ ! صَاحِبُ هَذَا الدَّارِ حُرٌّ أَمْ عَبْدٌ ؟!
فَقَالَتْ : بَلْ حُرٌّ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : صَدَقْتَ لَوْ كَانَ عَبْدًا ، خَافَ مِنْ مَوْلَاهُ .

فدخلت الجارية الدار ، وكان مولاهما على مائدة السكر ، فقال لها : ما أبطأك ؟

فقالت : حدّثني رجل بكذا وكذا .

فخرج بشر مُسرعاً حافياً حتى لحق بمولانا الإمام الكاظم عليه السلام ، فاعتذر منه وبكى وتاب على يده . ٤

١- جاء في «أقرب الموارد» أن القَطْرَان (بفتح القاف وكسرهما) ، والقَطْرَان (بفتح القاف وكسر الطاء) مادة سائلة ذهبية تستخرج من شجرة الأبهل والأرز.

٢- الآيتان ٤٩ و ٥٠ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

٣- «سفينه البحار» ج ٢ ، ص ٣٦٩ .

٤- «منهاج الكرامة» ص ١٩ ، الطبعة الحجرية . وذكر في «روضات الجنّات» ⇨

ونظيرُ تأثير القرآن في الفضيل ، وكلام الإمام الكاظم عليه السلام في بشر ، الموعدةُ البليغة والرشيقة لمولى الموالى الإمام عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام في صفات الشيعة والمؤمنين والمتقين ، تلك الموعدة التي خرّ همّام على إثرها على الأرض صعقاً بلا حياة .

فقد ورد في «نهج البلاغة» أنّه روي أنّ أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يُقال له همّام ، وكان رجلاً عابداً ، فقال له : يا أمير المؤمنين !

ص ١٣٢ و ١٣٣ ، الطبعة الحجرية ، أحوال بشر بالتفصيل ، وذكر لتوبته طريقاً آخر . ونقل عنه صاحب «الكشكول» : مَنْ ضَبَطَ بَطْنَهُ ضَبَطَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ كُلَّهَا .
وينقل ابن خلكان المؤرّخ المشهور : عُقُوبَةُ الْعَالَمِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يُعْمَى بِصِرِّ قَلْبِهِ .
وينقله أيضاً : مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا فَلَيْتَهُبًا لِلدُّلِّ .

ومن طرائف كلماته : حَسْبُكَ أَنْ قَوْمًا مَوْتَى تَحْيَا الْقُلُوبُ بِذِكْرِهِمْ ، وَأَنَّ قَوْمًا أَحْيَاءَ تَقْسُو الْقُلُوبُ بِرُؤْيَتِهِمْ . و : اجْعَلِ الْآخِرَةَ رَأْسَ مَالِكَ ، فَمَا أَتَاكَ مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ رَيْحٌ .

ومن أحفاد بشر الحافي الشيخ أبو نصر عبد الكريم محمّد الهارونيّ الديباجي المعروف بسبط بشر الحافي ، وجاء في «رياض العلماء» أنّه كان من علماء الإمامية .

توفي بشر في بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٦ هـ . ق ، وعمره ٧٦ سنة . وقد ذكر الشيخ العطار أحوال بشر في «تذكرة الأولياء» ص ١٠٥ إلى ١١٢ ، ويقول في جملتها : لم يتعل بشر من شدة غلبة مشاهدة الحقّ تعالى فسمّي بالحافي ، قيل له : لم لا تتعل ! أجاب : كنت حافياً يوم اصطلحنا ، فأنا أستحيي أن أضع في قدمي نعلًا .

ونقلوا أنّه لم يشرب قطّ من بئر حفره السلاطين ؛ قال أحد الكبار المعروفين : كنت عند بشر ، وكان البرد قارصاً شديداً ، فوجدته عارياً يرتجف ؛ قلتُ : يا أبا نصر ! الناس في هذا الوقت يُكثرون الثياب وأنت تخلعها !؟

قال : ذكرتُ البائسين ولا مال عندي فأواسيهم ، فأحببت مواساتهم بدني .
وقد أورد المحدث القمّي أحوال بشر الحافي في كتاب «الكنى والألقاب» أيضاً ، ج ٢ ، ص ١٥٠ إلى ١٥٢ ، وفي كتاب «هدية الأحاب» ص ١٢٣ ؛ وذكره المدرّس في «ريحانة الأدب» ج ٢ ، ص ١٦ إلى ١٨ .

صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم . فتناقل عليه السلام عن جوابه ، ثم قال :

يَا هَمَّامُ ! اتَّقِ اللَّهَ وَأَحْسِنْ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ !

فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه . فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ، ثم شرع بالخطبة ، فذكر ابتداء خلق الإنسان وغنى الباري عن طاعة الخلق وأمنه من معصيتهم ، ثم بدأ بشرح وتفصيل صفات المتقين وأحوالهم ، حتى يصل إلى قوله :

أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُونَهُ تَرْتِيلاً . يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَشِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ .

فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ ، رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا ؛ وَظَنُّوا أَنَّهَا نَضَبَ أَعْيُنِهِمْ . وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أُصُولِ أَدَانِهِمْ .

فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ ، مُقْتَرِشُونَ لِجَبَاهِهِمْ وَأَكْفِهِمْ وَرُكَبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ .

أَمَّا النَّهَارُ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءَ ، أَبْرَارُ أَتْقِيَاءَ . قَدْ بَرَّاهُمُ الْخَوْفُ بَرِي الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرَضَى ، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ ؛ وَيَقُولُ : قَدْ حَوْلُوا وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ .

ويستمر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة المفصلة حتى يصعق همام صعقة كانت نفسه فيها .^١

١- «نهج البلاغة» الخطبة ١٩١ ؛ وفي طبعة مصر وتعليق الشيخ محمد عبده : ص ٣٩٥

إلى ٤٠٠ . وقال ابن أبي الحديد في شرحه على «النهج» ج ١٠ ، ص ١٣٤ ، طبعة دار

﴿ الكتاب العربي: وهَمَامُ المذكور في هذه الخطبة هو هَمَامُ بن شُرَيْح بن يزيد بن مرة بن عمرو بن جابر، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام ومواليه. وقال المَلَأَ فتح الله في شرحه، ص ٣٢٣: وقيل إنَّه هَمَامُ بن شُرَيْح؛ لكنَّ مُحَمَّدَ بن طلحة الشافعي يذكر في كتابه القِيم «مطالب السؤل» ص ٥٤، هذه الخطبة ويعدها في حضور هَمَامُ بن عبادة بن خيثم، وهو ابن أخ الربيع بن خيثم، ثم يذكر صعقة هَمَامُ وموته: يقول نوف البكالي: عرضت لي حاجة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فاستتبعْتُ إليه جُنْدُب بن زهير والربيع بن خيثم وابن أخيه هَمَامُ بن عبادة بن خيثم، وكان من أصحاب البرانس المتعبدين، فلقيناه حين خرج يؤمُّ المسجد، فأفضى ونحن معه إلى قوم متدينين قد أفاضوا في الأحدوثات تفكَّهًا وهم يلهمي بعضهم بعضًا، فأسرعوا إليه قيامًا وسلَّموا عليه فردَّ التحية، ثم قال: مَنْ القوم؟ فقالوا: ناسٌ من شيعتك يا أمير المؤمنين. فقال لهم خيرًا، ثم قال: يا هؤلاء! ما لي لأرى فيكم سِمةَ شيعتنا وحلية أحبَّتنا؟ فأمسك القوم حياءً، فأقبل عليه جندب والربيع فقالا له: ما سِمةَ شيعتكم يا أمير المؤمنين؟ فسكت. فقال هَمَامُ، وكان عابدًا مجتهدًا: أسألك بالذي أكرمكم أهل البيت وخصَّكم لَمَّا أنبأتنا بصفة. فقال: شِيعَتُنَا هُمُ الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ، الْعَامِلُونَ بِأَمْرِ اللَّهِ... ثمَّ أورد خطبة مفصلة يقول في آخرها: **أَوْلَيْكَ شِيعَتُنَا وَأَحَبُّنَا وَمِنَّا وَمَعَنَا؛ أَهَاءَ وَشَوْقًا إِلَيْهِمْ!** فصاح هَمَامُ صيحةً ووقع مغشيًا عليه فحرَّكوه فإذا هو فارق الدنيا رحمه الله، فغسَّلَ وصَلَّى عليه أمير المؤمنين ونحن معه - انتهى كلام صاحب «مطالب السؤل».

وقد نقل في «روضات الجنات» ص ٢٨٣ و ٢٨٤، الطبعة الحجرية، في شرحه لأحوال الربيع بن خيثم عن «مطالب السؤل» عين ما أوردناه، ثم قال: وقد نقل هذه الرواية عن طرق الشيعة في أبواب «أصول الكافي» بسند متصل عن الإمام الصادق عليه السلام. وقال: ولقد كتب مولانا العارف محمد تقي بن المجلسي الإصفهاني رسالةً في شرح هذه الخطبة يفوق مدحها الوصف، وهي غير الشروح التي كتبها الآخرون من شارحي «أصول الكافي».

أقول: يغلب على ظنِّ هذا الحقير أنَّ الأعلام والكبار الأجلاء قد تصوَّروا أنَّ هذه الخطبة هي غير خطبة هَمَامُ الواردة في «نهج البلاغة»، لذا لم يشيروا إليها، ربَّما لأنَّ خطبة «النهج» كانت في صفة المتقين وهذه الخطبة في صفة الشيعة والمؤمنين، ولأنَّ عبارات «النهج» من جهة الأسلوب - لا المفاد والمراد - كانت مغايرة لخطبة «مطالب السؤل» ﴿

ونظير هذا العشق والهيجان الباطنيّ الذي هزّ وجوده في لحظة واحدة فأوصله إلى الموطن الأصليّ ، العشق والهيجان الذي كان في بشر الحافي آنف الذكر .

يقول العلامة السيّد محمّد باقر الخونساريّ صاحب «روضات الجنّات» في كتابه : رأيتُ بخطّ شيخنا الشهيد الثاني نقلاً عن كتاب «المدهش» لأبي الفرج بن الجوزيّ أنّه قال : لمّا مرض بشر الحافي رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه اجتمع إليه إخوانه وقالوا له : عزمنا أن نحمل ماءك إلى الطيب .

فقال رحمه الله : **أَنَا بَعِينِ الطَّيِّبِ يَفْعَلُ بِي مَا يُرِيدُ .**

قالوا : إن فلاناً النصرانيّ طيب جيد حاذق ولا بدّ أن نحمل إليه ماءك .

فقال لهم : **دَعُونِي فَإِنَّ الطَّيِّبَ أَمْرَضَنِي .**

فقالوا : لا بدّ من ذلك .

فقال لأخته : إذا كان في الغد ادفعي إليهم الماء !

فلمّا أصبحوا أتوها فدفعته إليهم فمضوا به إلى الطيب النصرانيّ ،

فنظر إليه ، وقال لهم : حرّ كوه فحرّ كوه ، ثمّ قال لهم : ضعوه فوضعوه ، ثمّ

قال لهم : حرّ كوه فحرّ كوه ثانيةً ، ثمّ قال لهم : ضعوه فوضعوه ، ثمّ فعل الثالثة

« والكافي » هذه ، وهناك إضافات ملحوظة فيها بحيث يصبح عدّها خطبةً واحدة أمرًا بعيداً. لكن ما يُستنتج من مجموع القرائن والشواهد أنّها ليست إلا خطبة واحدة ، فقد كان بعضها عبارات الإمام البليغة والبعض الآخر منقولة بالمعنى ، كما أنّ همّام ليس إلا شخصاً واحداً بهذه الخصوصيات والمواصفات التي ذكّرت ، وهو همّام بن عباد بن خيثم ، لا همّام ابن شريح بن يزيد . وكانت هذه الصعقة والموت في جذبات البارقة الإلهية راجعة له . رحمة الله عليه ورضوانه وأفضل تحيّاته ، ونسأل الله تعالى أن يلحقنا بهم وأن يجعلنا من شيعة أمير المؤمنين المخلصين الصادقين بمحمّد وآله الطاهرين .

مثل ذلك .

فقال له أحد القوم : ما هكذا أخبرنا عنك .

قال : وما الذي أخبرتم به عني ؟

قالوا : أخبرنا عنك بحسن النظر وسرعة الإدراك وجودة المعاناة ،
ونراك تردّد النظر وذلك يدلّ على قلة المعرفة .

فقال لهم : والله لقد علمتُ حاله من أوّل نظرة ، ولكنّي رددت النظر
تعجباً . وبعد ، فإن يك هذا ماء نصرانيّ فهو ماء راهب قد قتت الخوفُ
كبده ، وإن يك ماء مسلم فهو ماء بشر الحافي وليس له عندي دواء فعَلّوه
فإنّه ميّت .

فقالوا له : هو والله بشر الحافي .

فلما سمع الطبيب النصرانيّ ذلك أخذ مقرضاً وقطع زنّاره ، وقال :
أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

قال : فأسرعنا نحو بشر نبشّره ، فلما بصر بنا قال رحمه الله : أسلم

الطبيب ؟

قلنا : نعم ، فمن أخبرك بذلك ؟ قال : لمّا خرجتم من عندي أخذتني
سِنّة من النوم وإذا قائل يقول لي : يا بشر ! ببركة مائك أسلم الطبيب
النصرانيّ . ثم لم يلبث بعد ذلك إلا ساعةً وقُبُض رضي الله عنه .^١

ونُقل عن ابن خلكان أنّ البعض قال لبشر عند احتضاره : كَأَنَّكَ يَا أَبَا

نَصْرٍ تُحِبُّ الْحَيَاةَ !؟

قال بشر : الْقُدُومُ عَلَى اللَّهِ شَدِيدٌ .

يقول صاحب «الجنّات» : وهذا الكلام شبيهه بكلام سيّدنا أبي محمّدٍ

١- «روضات الجنّات» ص ١٣٢ و ١٣٣ .

الحَسَنَ الْمُجْتَبَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ احْتِضَارِهِ ، فَقَدْ بَكَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ لَهُ :
 أَوْ مِثْلَكَ يَبْكِي مَعَ مَا لَكَ مِنَ الْقَرَابَةِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْخُرُوجِ مِنْ مَالِكَ مَرَّتَيْنِ وَحِجِّ بَيْتِ اللَّهِ
 عَشْرِينَ مَرَّةً مَا شَيْئاً ؟!

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَبْكِي لِخِصْلَتَيْنِ : لِهَوْلِ الْمُطَّلَعِ وَفِرَاقِ الْأَحِبَّةِ .
 وفي رواية : أَقْدِمُ عَلَى سَيِّدٍ لَمْ أَرَهُ .^١

يقول الشيخ فريد الدين العطار في شأن بشر :

حين حانت وفاته كان في اضطراب عظيم وحالٍ عجيب .
 فقليل له : أَوْ تَحَبَّ الْحَيَاةُ ؟

قال : لا ، ولكن المثل بحضرة ملك الملوك عسير .^٢

عجباً لهذا القرآن الذي ينبغي أن يربّي أمثال الفضيل وبشر وهمام ،
 كيف يغفل عنه الناس ؟! فالقرآن لم يختصّ بأولئك ، بل إنّ دعوته عامّة
 شاملة ، ولقد طبق نداء يَأْتِيهَا النَّاسُ لهذا الكتاب الملكوتيّ شرق العالم
 وغربه ، داعياً الجميع إلى هذه المائدة السماوية ، كما أنّه يقود جميع البشر
 إلى مقام الإنسانيّة :

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا .^٣

أي أنّ أولئك الذين لم يُختم على قلوبهم بختم الشقاء والعناد
 والسواد ، عليهم أن يستفيدوا من كتاب الله وأن يتدبّروا آياته ؛ على أنّ
 القادر على طيّ الطريق إلى الله هو المطلّع على برنامج الحركة والسير ،

١- «روضات الجنّات» ص ١٣٣ .

٢- «تذكرة الأولياء» ص ١١١ .

٣- الآية ٢٤ ، من السورة ٤٧ : محمّد .

فالقرآن كتاب سير وسلوك ، ودليلٌ يهدي إلى أعلى درجات الاستعداد والقابلية الإنسانيّة ، فكيف يمكن السير لمن يفتقد المعرفة بالقرآن ، ويجهل طريق السير ومعدّاته ، ولا يعلم موانعه وصوارفه وآفاته ؟ وعلى هذا الأساس ، فقد كان نزول القرآن للهداية والعمل ، وهذا الأمر يتوقّف على التدبّر والتفكّر .

يقول الله سبحانه في مواضع أربعة من سورة قرآنيّة واحدة :

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ١

ولقد ورد القرآن بلسان فصيح خالٍ من الإبهام والغموض ليفهمه الجميع ويستفيدون منه ، وبالرغم من احتواء القرآن على معاني عميقة تختصّ بأصحاب البصائر ، فإنّ معانيه ومفاهيمه والمعاني الظاهريّة لآياته كانت عامّة تبعث على الاعتبار والسرور والخوف والخشية والتقوى والإخلاص ، وتثير المعرفة العامّة للناس ، فيمكن لكلّ أحد أن يستفيد منها وينهل بمقدار سعته واستعداده :

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٢

وبهذا اللحاظ فقد ورد الأمر في القرآن الكريم بتلاوته مرتلاً :

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ * قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا *

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ٣

يروى الكليني بإسناده ، عن عبد الله بن سليمان قال : سألت الإمام

الصادق عليه السلام عن معنى قول الله عزّ وجلّ : وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا .

١- الآيات ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، من السورة ٥٤ : القمر .

٢- الآية ٤١ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٣- الآيات ١ إلى ٥ ، من السورة ٧٣ : المزمل .

قَالَ : قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : بَيْنَهُ تَبَيَانًا ، وَلَا تَهْدَهُ ١
هَذَا الشُّعْرُ ؛ وَلَا تَنْثُرُهُ نَثْرَ الرَّمْلِ ، وَلَكِنْ أَفْزَعُوا قُلُوبَكُمْ الْقَاسِيَةَ ؛ وَلَا يَكُنْ
هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ ! ٢

فهذا النوع من القراءة يسلب الاهتمام بنفس الآيات ويصرفه نحو إتمام السورة ، فعليكم أن تقرأوا الآيات بالشكل الذي تعنون فيه بكل آية وتتوقفون عندها وتستفيدون منها استفادة كاملة ، ثم تنتقلون إلى الآية التالية ، ولا يصار هذا بصرف اهتمامكم إلى إنهاء قراءة السورة .

وقد أورد الشيخ الطبرسي عن أبي بصير ، عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية بهذه الكيفية :

قَالَ : هُوَ أَنْ تَمَكَّثَ فِيهِ وَتُحَسِّنَ بِهِ صَوْتَكَ .

وروي عن الإمام أيضاً قوله : إِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ فَاسْأَلِ
اللَّهَ الْجَنَّةَ ، وَإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ . ٣
وورد في «الديوان المنسوب للإمام أمير المؤمنين عليه السلام»

ضمن وصيته للإمام الحسين عليه السلام ، يقول : ٤

أَبْنِيَّ إِنَّ الذُّكْرَ فِيهِ مَوَاعِظٌ

فَمَنْ الَّذِي بِعِظَاتِهِ يَتَأَدَّبُ ؟

١- هَذَا يَهْدُ هَذَا : سرده وأسرع فيه .

٢- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦١٤ .

٣- تفسير «مجمع البيان» ج ٥ ، ص ٣٧٨ ، طبعة صيدا .

٤- وردت هذه الأبيات في «ديوان أمير المؤمنين عليه السلام» ص ٦ و٧ ، الطبعة

الحجرية ، وباعتبار تصديرها بهذا البيت :

أَحْسَيْنُ إِنِّي وَاعِظٌ وَمُؤَدَّبٌ فَافْهَمْ فَإِنَّ الْعَاقِلَ الْمُتَأَدِّبُ

فقد عدناها من وصيته للإمام الحسين عليه السلام .

اقْرَأْ كِتَابَ اللَّهِ جُهْدَكَ وَاتْلُهُ
 فِيمَنْ يَقُومُ بِهِ هُنَاكَ وَيَنْصِبُ
 بِتَفَكُّرٍ وَتَخَشُّعٍ وَتَقَرُّبٍ
 إِنَّ الْمُقَرَّبَ عِنْدَهُ الْمُتَقَرَّبُ
 وَاعْبُدْ إِلَهَكَ ذَا الْمَعَارِجِ مُخْلِصاً
 وَأَنْصِتْ إِلَى الْأَمْثَالِ فِيمَا تُضْرَبُ
 وَإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ مَخْشِيَةٍ
 تَصِفُ الْعَذَابَ فَقِفْ وَدَمْعَكَ تَسْكُبُ
 يَا مَنْ يُعَذَّبُ مَنْ يَشَاءُ بِعَدْلِهِ
 لَا تَجْعَلْنِي فِي الَّذِينَ تُعَذَّبُ
 إِنِّي أَبُوءُ بِعَثْرَتِي وَخَطِيئَتِي
 هَرَباً وَهَلْ إِلَّا إِلَيْكَ الْمَهْرَبُ
 وَإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ فِي ذِكْرِهَا
 وَصَفِ الْوَسِيلَةَ وَالنَّعِيمَ الْمُعْجَبُ
 فَاسْأَلْ إِلَهَكَ بِالْإِنَابَةِ مُخْلِصاً
 دَارَ الْخُلُودِ سُؤَالَ مَنْ يَتَقَرَّبُ
 وَاجْهَدْ لَعَلَّكَ أَنْ تَحِلَّ بِأَرْضِهَا
 وَتَنَالَ رَوْحَ مَسَاكِينٍ لَا تَخْرُبُ
 وَتَنَالَ عَيْشاً لَا انْقِطَاعَ لَوْفَتِهِ
 وَتَنَالَ مُلْكَ كَرَامَةٍ لَا يُسْلَبُ

وبهذا اللحاظ والملاك فقد وجب الاستماع والإنصات ورعاية
 السكوت حين يُقرأ القرآن كي تجد آيات القرآن طريقها إلى قلب
 مستمعه ، فبغير الإنصات ستبقى آياته غير مفهومة ، ولا أثر بدون فهم

وإدراك .

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .^١
قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلّم لابن مسعود :

١- الآية ٢٠٤ ، من السورة ٧: الأعراف .

وكان لأستاذنا العلامة آية الله الطباطبائي اهتمامٌ خاصٌّ بالقرآن وحفظه واحترامه ، وكان يكرّر القول : نحن الشيعة لا نؤدّي حقَّ القرآن كما ينبغي . لقد قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلّم : «إني تاركٌ فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» . فالعامة تركوا العترة ونحن تركنا القرآن ، ولأنّ هذين الأثنين لا ينفصلان عن بعضهما فقد حُرِّمنا جميعاً من القرآن ومن العترة ، لذا صار إسلامنا صورياً خالياً من المحتوى .

وقد نقل نظير هذه العبارة ؛ وبالطبع ليس بهذه الجامعيّة والشمول ؛ عن المرحوم آية الله الشيخ عبد الكريم الحائريّ اليزديّ ، فيحكي المرحوم آية الله الحاجّ السيّد أحمد الزنجانيّ في كتاب «الكلام يجزّ الكلام» ج ٢ ، ص ٢٣١ ، عنه قوله : لقد ترك رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلّم بيننا الثقلين : كتاب الله والعترة الطاهرة ، لكننا وقفنا متفرّجين وأضعناهما كليهما ، نحن أضعنا كتاب الله ، وأولئك أضعوا العترة الطاهرة .

ويقول أيضاً : كان المرحوم الشيخ زياد يصرّ على حفظ الاحترام الظاهريّ للقرآن بشكل كامل كما يفعل أهل السنّة عند قراءته ، فلا يجلبون الشاي أو الغليون لأحد ، وكان يقول : سيكون لائقاً ومناسباً لو طبّق هذا الأسلوب في مجالس قراءة الفاتحة عند الشيعة ، لكنّ مجالس الشيعة جارية على خلاف ذلك وسيكون ترك ذلك غايةً في الصعوبة ، وكان هذا ما جعل قول ذلك المرحوم غير عمليّ .

أقول : إن إيقاف الضرر لن يخلو - في آية مرحلة كانت - من النفع والجدوى ، ولقد كان إيقاف ذلك العمل الذميم سهلاً لذلك المرجع الكبير كما هو سهّل في يومنا هذا ، ففي مسجد القائم بطهران حيث كنّا هناك صار تقديم الشاي والقهوة والسجائر ممنوعاً بشكل كامل ، ولقد اقترحنا ذلك ووافق الناس عليه ولم يتراجعوا عنه إلى النهاية ، وقد عمدنا أحياناً إلى منع التدخين بشكل دائم ، وأعلنا في الإعلانات الملصقة على جدران المسجد منعه بالنسبة لغير المدمنين القدماء .

أَقْرَأْ! فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَقْرَأُ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟! فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي. فَكَانَ يَقْرَأُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَيْنَاهُ تَفِيضَانِ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَنْ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.^١

وفي الرواية أن رجلاً كان يتعلم القرآن من النبي، فلما انتهى إلى قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.^٢

قال: يكفيني هذه! وانصرف، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: انصرفت الرجل وهو فقيه.^٣

وورد في الأخبار نهيه الشديد عن الغافلين عن القرآن وعن اللاهين بالقرآن، يحدث في «الكافي» بإسناده عن عبد الله بن سنان، عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ بِاللَّحَانِ الْعَرَبِ وَأَصْوَاتِهَا: وَإِيَّاكُمْ وَلُحُونِ أَهْلِ الْفِسْقِ وَأَهْلِ الْكِبَائِرِ. فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ مِنْ بَعْدِي أَقْوَامٌ يَرْجِعُونَ الْقُرْآنَ تَرْجِيعَ الْغِنَاءِ وَالنُّوحِ وَالرُّهْبَانِيَّةِ، لَا يَجُوزُ تَرَاقِيَهُمْ؛ قُلُوبُهُمْ مَقْلُوبَةٌ وَقُلُوبٌ مَنْ يُعْجِبُهُ شَأْنُهُمْ.^٤

وفي مقابل هؤلاء الأفراد، فإن هناك من يقرأ القرآن بتأمل ودقة،

١- «المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء» ج ٢، ص ٢٣٢، عن طريق العامة.

٢- الآيتان ٧ و٨، من السورة ٩٩: الزلزلة.

٣- «سفينة البحار» ج ٢، ص ٤١٤.

٤- «أصول الكافي» ج ٢، ص ٦١٤.

وفي هدوء وتفكير، بالشكل الذي ينبض معه في قلوبهم، وترسم آثار الحزن والوله على سيماهم، ويستقرّ القرآن في كياناتهم وأرواحهم.

فَالِهَكُمْ إِلَهُ وَحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ.^١

ويروي في «الكافي» بسنده المتصل عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، قال: قُرَاءَةُ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاتَّخَذَهُ بِضَاعَةً وَاسْتَدْرَأَ بِهِ الْمُلُوكَ، وَاسْتَطَالَ بِهِ عَلَى النَّاسِ. وَرَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَحَفِظَ حُرُوفَهُ وَضَيَّعَ حُدُودَهُ، وَأَقَامَهُ إِقَامَةَ الْقِدْحِ.^٢ فَلَا كَثْرَ اللَّهُ هَوْلًا مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ. وَرَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَوَضَعَ دَوَاءَ الْقُرْآنِ عَلَى دَاءِ قَلْبِهِ؛ فَأَسْهَرَ بِهِ لَيْلَهُ وَأَظْمَأَ بِهِ نَهَارَهُ، وَقَامَ بِهِ فِي مَسَاجِدِهِ وَتَجَافَى بِهِ عَن فِرَاشِهِ.

فَبِأَوْلَيْكَ يَدْفَعُ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْبَلَاءَ وَيَأْوِلُكَ يُدِيلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَيَأْوِلُكَ يُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعَيْثَ مِنَ السَّمَاءِ. فَوَاللَّهِ لَهُوْلَاءِ فِي قُرْآنِ الْقُرْآنِ أَعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الْأَحْمَرِ.^٣

١- الآيتان ٣٤ و ٣٥، من السورة ٢٢: الحجّ.

٢- يقول في «مرآة العقول»: «إِقَامَةُ الْقِدْحِ» كَأَنَّهُ تَأْكِيدٌ لِلْفَقْرَةِ الْأُولَى، أَعْنِي حِفْظَ الْحُرُوفِ.

٣- «أصول الكافي» ج ٢، ص ٦٢٧.

ويروي الشيخ الصدوق في «من لا يحضره الفقيه» والفيض الكاشاني في «الوافي» ج ١٤ ص ٦٥، باب مواضع أمير المؤمنين عليه السلام، في وصيته لابنه محمد ابن الحنفية، أَنَّهُ قَالَ لَهُ:

وَعَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ (وفي نسخة: بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ) وَالْعَمَلِ بِهِ وَلُزُومِ فَرَائِضِهِ وَشَرَائِعِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَالتَّهَجُّدِ بِهِ، وَتِلَاوَتِهِ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ! فَإِنَّهُ عَهْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى خَلْقِهِ، فَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُنْظَرَ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَهْدَهُ وَلَوْ خَمْسِينَ آيَةً. ☞

وقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلّم : مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنْ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ^١.

وقد وردت روايات كثيرة في شأن قراءة القرآن في البيوت بصوت عالٍ أو منخفض .

فقد روى في «الكافي» بإسناده المتصل عن ليث بن أبي سليم ، مرفوعاً إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلّم ، قال :

نُورُوا بُيُوتَكُمْ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ؛ وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُوراً كَمَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى : صَلُّوا فِي الْكِنَائِسِ وَالْبَيْعِ وَعَطَّلُوا بُيُوتَهُمْ . فَإِنَّ الْبَيْتَ إِذَا كَثُرَ فِيهِ تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ كَثُرَ خَيْرُهُ وَاتَّسَعَ أَهْلُهُ وَأَضَاءَ لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تَضِيءُ نُجُومُ السَّمَاءِ لِأَهْلِ الدُّنْيَا^٢.

ويروي في «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال :
 إِنَّ الْبَيْتَ إِنْ كَانَ فِيهِ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ يَتْلُو الْقُرْآنَ يَتَرَاءَاهُ أَهْلُ السَّمَاءِ
 كَمَا يَتَرَاءَى أَهْلُ الدُّنْيَا الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ فِي السَّمَاءِ^٣.

﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ عَلَى عَدَدِ آيَاتِ الْقُرْآنِ . فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لِقَارِي الْقُرْآنِ :
 أَقْرَأَ وَارْقُ ! فَلَا يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالصُّدِّيقِينَ أَرْفَعُ دَرَجَةً مِنْهُ .

والمراد بالكبريت الأحمر الإكسير ، وهو الشيء الذي يبذل النحاس بالمس إلى الذهب ، وهو غير الكيمياء ، فالكيمياء تركيبات في شرائط خاصة يكون ناتجها الذهب .

١- «المحجة البيضاء» ج ٢ ، ص ٢١٩ .

وجاء في «شهاب الأخبار» ص ٣٢٦ ، رقم ٥٤٦ : أَقْرَأِ الْقُرْآنَ مَا نَهَاكَ ، فَإِذَا لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرُؤُهُ .

٢- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦١٠ ؛ وأورده القاضي القضاي في «شهاب الأخبار» الشرح الفارسي بـ«الكلمات القصار لخاتم الأنبياء صَلَّى الله عليه وآله» ص ٣٣٢ ، رقم ٥٦٩ .

٣- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦١٠ .

ويقول المرحوم آية الله الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء رحمة الله عليه في ﴿

ويروي في «الكافي» أيضاً عن ابن قَدَاح عن الإمام الصادق عليه السلام أن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قال :

الْبَيْتُ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ وَيُذَكَّرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ تَكْثُرُ بَرَكَتُهُ وَتَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ وَيُضِيءُ لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تُضِيءُ الْكَوَاكِبُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ .

وَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي لَا يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ ، وَلَا يُذَكَّرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ تَقَلُّ بَرَكَتُهُ وَتَهْجُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ .^١

وبالطبع فإن على قارئ القرآن - ليستفيد من معناه ومراده بالقدر الكافي - أن يترتّب في قراءته ، فلا يمرّ عليه مروراً سطحياً ، فقد أورد في «الكافي» بإسناده عن محمّد بن عبد الله قال : سألت الإمام الصادق عليه السلام :

أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةٍ !؟

☞ كتاب «الفردوس الأعلى» ص ٢٦٩ و ٢٧٠ ، الطبعة الثانية: عن العياشي عن خالد بن نسيج ، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة دُفِعَ إلى الإنسان كتابه ثم قيل له : اقرأ . قلتُ : فيعرف ما فيه ؟ فقال : إن الله يذكركه ، فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم ولا شيء فعله إلا ذكره كأنه فعله تلك الساعة ، قالوا يا ويلنا ما لهذا الكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا .

ومن ناحية تجسّم الأعمال يأتي القرآن يوم القيامة شافعاً مُشَفَّعاً أو شاكياً إلى ربّه ممّن هَجَرَهُ أو لم يحفظه . وَمَنْ قَرَأَ سُورَةَ لَا أَقْسِمُ وَكَانَ يَعْمَلُ بِهَا بَعَثَهَا اللَّهُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ تُبَشِّرُهُ وَتَضْحَكُ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَجُوزَ الصَّرَاطَ .

وبعض السور تصير في صورة جميلة تؤنسه في قبره . ومن هذا ما ورد : إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يُحْشَرُونَ كَالذَّرِّ يَطْوَهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ وَإِنَّ ضُرْسَ أَحَدِهِمْ كَجَبَلٍ أَحَدٍ ، إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا .

١- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦١٧ .

قَالَ: لَا يُعْجِبُنِي أَنْ تَقْرَأَهُ فِي أَقَلِّ مِنْ شَهْرٍ! ^١

ويروي في «الكافي» أيضاً، عن علي بن حمزة قال: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام، فقال له أبو بصير: جعلت فداك! أقرأ القرآن في شهر رمضان في ليلة؟

فقال: لا. قال: ففي ليلتين؟ قال: لا.

قال: ففي ثلاث؟ قال: ها- وأشار بيده- (أي لا بأس بذلك).

ثم قال لأبي بصير: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! إِنَّ لِرَمَضَانَ حَقًّا وَحُرْمَةً لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنَ الشُّهُورِ، وَكَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ أَحَدَهُمُ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ أَوْ أَقَلِّ.

إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يُقْرَأُ هَذْرَمَةً وَلَكِنْ يُرْتَلُّ تَرْتِيلاً: فَإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ فَقِفْ عِنْدَهَا وَسَلِّ اللَّهُ الْجَنَّةَ؛ وَإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ فَقِفْ عِنْدَهَا وَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ. ^٢

وفي «الكافي» أيضاً رواية عن حريز، عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

الْقُرْآنُ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ فَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَنْظُرَ فِي عَهْدِهِ؛ وَأَنْ يَقْرَأَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسِينَ آيَةً. ^٣

ومن آداب قراءة القرآن تلاوته بصوت حسن، سواء في الصلاة أم في غيرها، فالأجدر بالإنسان حين يتلو القرآن - أي وقت شاء - أن يهتم بتلاوته فيقرأه بلحن حسن، لا أن يقرأه قراءة عادية رتيبة، سواء قرأه في حال حزن وتأثر أو في حال فرح وسرور، فالصوت الحسن مطلوب

١- «أصول الكافي» ج ٢، ص ٦١٧.

٢ و٣- «أصول الكافي» ج ٢، ص ٦٠٩.

ومندوب في الحالين .^١

يروى في «الكافي» عن عبد الله بن سنان ، عن الإمام الصادق عليه السلام ، أن الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال :
لِكُلِّ شَيْءٍ حَلِيَّةٌ ؛ وَحَلِيَّةُ الْقُرْآنِ الصَّوْتُ الْحَسَنُ .^٢

وروي في «الكافي» أيضاً ، عن عليّ بن إسماعيل الميثمي ، عن رجل ، أن الإمام الصادق عليه السلام قال : مَا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا إِلَّا بِحُسْنِ الصَّوْتِ .^٣

ومن جملة آداب قراءة القرآن الاستعاذة بالله من شرّ الشيطان الرجيم :

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .^٤

ومن البين أن معاني القرآن في عظمتها لو وردت على النفس الأتارة الشيطانية حال تلوثها لفقدت صفاءها ورونقها ، ولتنزلت معانيها وهبطت بواسطة تصرف الشيطان في النفس الأتارة ، وعلاج ذلك أن يدخل الإنسان

١- بالرغم من امتداح قراءة القرآن بصوت حزين، لكنّ الأفضل أن يقترن ذلك بصوت حسن؛ يروي العلامة المحدّث الكاشاني في «المحجّة البيضاء» ج ٢ ، ص ٢٢٦ ، عن طريق العامّة، نقلاً عن «إحياء العلوم» قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَتَحَازَنُوا .

وعن طريق الخاصّة عن كتاب «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام قال: إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِالْحُزْنِ فَاقْرَأُوهُ بِالْحُزْنِ . وورد في «الكافي» أيضاً عن الصادق عليه السلام رواية أنّه قال: إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ : إِذَا وَقَفْتَ بَيْنَ يَدَيْ فِقِفْ مَوْقِفَ الدَّلِيلِ الْفَقِيرِ ، وَإِذَا قَرَأْتَ التَّوْرَةَ فَاسْمِعْنِيهَا بِصَوْتِ حَزِينٍ .

٢- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦١٥ .

٣- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦١٦ .

٤- الآية ٩٨ ، من السورة ١٦ : النحل .

في حمى ومصوتية وعصمة الله تعالى ليبقى في حرز حريز من الشيطان وتصرفه .

وليست الاستعاذة بالله مجرد قول أعوذُ بالله ، بل إيكال القلب والروح إلى الله سبحانه ونسيان غيره وقت التلاوة ، وتصفية الذهن وتطهيره ممّا عداه ، وأحد طرق تصفية النفس ، نفي الخواطر الذي يحصل بالتأمل والتفكر في القرآن مع المجاهدة .

وقد أورد الحسنُ بن عليّ بن شعبة الحَرَانيّ في «تُحَفِ الْعُقُولِ» حديثاً عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا فِهَ فِيهَا ؛ وَلَا فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدُبُّ فِيهَا .^١

كما أنّ قراءة القرآن في الصلاة تزيد في ثوابه ، وكانوا في زمن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يقرؤون القرآن في صلواتهم ، وكانوا يقرؤون بعد سورة الحمد من أيّ موضع في القرآن ، فلم يعين لذلك سورة خاصّة ، كما ليس واجباً قراءة سورة كاملة ، فالاكْتفاء بقراءة عدّة آيات ، أو تقسيم قراءة سورة معيّنة على الركعتين ، أو على عدّة ركعات إن كانت السورة طويلة ، كلّ ذلك أمر مستحسن مندوب .

وما أجمل أن يقرأ الإنسان في صلاته الآيات المختلفة ، ويقسم جميع القرآن على صلواته بشكل متناوب ! وبالطبع فإنّ سورة الحمد ينبغي قراءتها في ابتداء كلّ ركعة ، لأنّ سورة الحمد تمثّل مخاطبة الربّ تعالى وبيان صفات جلاله وجماله ؛ وحين يشرع المرء في صلاته ، أو ينهض من سجوده فيشرع في القراءة ، فعليه أن يقرأ الحمد ، إذ : لَا صَلَاةَ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ .^٢

١- «تحف العقول» ص ٢٠٤ ؛ رواه مُرسلاً .

٢- «مستدرک الوسائل» ج ١ ، ص ٢٧٤ .

وبعد مخاطبة الربِّ الكاملة ، أي مناشدته بالإنعام بنعمة الولاية ، والبُعد عن صراط المغضوب عليهم والضالِّين ، ينبغي للمصلِّي قراءة القرآن ، أي قراءة كلام الله وعهده ، فيمكن القراءة من أي موضع في القرآن .

يروى في «الكافي» بإسناده عن عبد الله بن سليمان ، عن الإمام محمَّد الباقر عليه السلام قال :

مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ قَائِمًا فِي صَلَاتِهِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ مِائَةَ حَسَنَةٍ ؛
وَمَنْ قَرَأَهُ فِي صَلَاتِهِ جَالِسًا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ خَمْسِينَ حَسَنَةً ؛ وَمَنْ
قَرَأَهُ فِي غَيْرِ صَلَاتِهِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ .^١

ونقل حجة الإسلام الغزالي هذه الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام إلى خمسين آية ، ونقل له تتمَّة :

وَمَنْ قَرَأَ فِي غَيْرِ صَلَاةٍ وَهُوَ عَلَى وُضُوءٍ فَخَمْسٌ وَعِشْرُونَ حَسَنَةً ؛
وَمَنْ قَرَأَ عَلَى غَيْرِ وُضُوءٍ فَعَشْرُ حَسَنَاتٍ ؛ وَمَا كَانَ مِنَ الْقِيَامِ بِاللَّيْلِ فَهُوَ
أَفْضَلُ ؛ لِأَنَّهُ أَفْرَغَ لِلْقَلْبِ .^٢

١- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦١١ .

٢- حسب نقل «المحجّة البيضاء» للفيض الكاشاني ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

وأورد القاضي القضاة في الشرح الفارسي «شهاب الأخبار للكلمات القصار لخاتم الأنبياء» ص ٩١ و ٩٢ ، رقم ٢١٦ (ترجمنا الأحاديث التي لم نعتز على أصلها العربي) : «القرآنُ غِنَى لَأَفْقَرُ بَعْدَهُ ، وَلَا غِنَى دُونَهُ . ويقول الإمام محمَّد الباقر عليه السلام : «من قرأ القرآن قائماً في صلواته كتب الله له بكل حرف مائة حسنة ، فإن استمع القرآن صارت له دعوة مستجابة وقضى الله له حاجته» . وقال النبي المصطفى عليه السلام : «خيركم من تعلّم القرآن وعلمه» . و«أشرف أمتي قراء القرآن وأصحاب الليل ، فإن البيت إذا قرئ فيه القرآن صار مأوى الملائكة وكثر خيره وبركته وأمتع أهله ، وإن البيت إذا لم يقرأ فيه القرآن صار مأوى الشيطان وقل خيره وزاد شره وكان سكّانه في نقصان» . وإن قارئ القرآن يرى يوم القيامة - وهو -

وقد وصف العليّ الأعلى في القرآن الكريم أشخاصاً ينهمكون في الليل بتلاوة القرآن وذكر الله حال القيام والقعود وعلى جنوبهم ، فامتدحهم لكنه قدّم القيام على القعود ، والقعود على الاضطجاع على الجنب :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا

« أوحج ما يكون - صورةً حسنةً لا أجملَ منها فتقول: أما عرفنتي؟ فيقول: لا، فتقول: أنا القرآن الذي كنت تداوم قراءته وادّ خارّه، فتأخذ بيده وتدخله الجذّة». «ويُحسن إلى والديه فيعجبان ويقولان: ربّنا أنسى لنا هذا الشرف ولم تبلغه أعمالنا؟ فيأتي النداء: هذا جزاء تعليمكما ولدكما القرآن». «إنّ القلوب الصدئة لا تُجلى إلا بالقرآن، فالقرآن جبل الله الذي يتمسك به العبد، وعصمة لمن اعتصم به، والقرآن هو الشفاعة التي ينجو بها العبد من الجهل، والنور الذي يرى به العبد دين الحقّ، والنجاة التي يُفلح بها العبد، وأصحاب القرآن هم أصحاب الله خاصّة، وإنّ أصحاب القرآن في أعلى درجة من الأدميّين خلا النبيّين والأنبياء، مَنْ أَحَبَّهُمْ فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ». «لا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم فإنّ لهم من الله لمكاناً». «إنّ حافظ القرآن إذا عمل به جعله الله يوم القيامة مع الملائكة السفرة والملائكة البررة».

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «من قرأ القرآن في المصحف مُتَعَبٌ ببصره وخَفَّفَ بوالديه ولم يتسلط عليه الشيطان».

وقال المصطفى عليه السلام: «من قرأ عشر آياتٍ في ليلة لم يُكُتَب من الغافلين، ومن قرأ خمسين آية كُتِب من الذاكرين، ومن قرأ مائة آية كُتِب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية كُتِب من الخاشعين، ومن قرأ ثلاثمائة آية كُتِب من الفائزين، ومن قرأ خمسمائة آية كُتِب من المجتهدين، ومن قرأ ألف آية كُتِب له في اللوح قنطار، والقنطار خمسون ألف مثقال، والمثقال خمس وعشرون قيراطاً، أصغرها قدر جبل أحد، وأكبرها ما بين السماء والأرض».

بِرَبِّكُمْ فَمَا مَنَّا رَبَّنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا
وَعَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
الْمِيعَادَ .^١

وقد ورد في التفاسير أنّ هذه الآيات نزلت في صحراء الهجرة من مكة إلى المدينة في شأن أمير المؤمنين عليه السلام وبرفقته الفواطم الثلاث : الأولى فاطمة بنت رسول الله ، ولم يكن قد تزوج بها بعد ، وكان لها ثمان سنين . والثانية : فاطمة بنت أسد ، أم أمير المؤمنين . والثالثة : فاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ، يرافقهم أيضاً أيمن - ابن أم أيمن - وأبو ليث الواقدي ، وهما من المستضعفين .

ولهذه القصة شرح عجيب وتفصيل يستحق السماع حقاً ، لكننا نورده هنا مختصراً :

فقد أورد آية الله السيّد محسن الأمين في «أعيان الشيعة» : وحين غادر رسول الله غار ثور سائراً إلى يثرب ، كتب إلى عليّ عليه السلام مع أبي واقد الليثيّ يأمره بالمسير إليه ، وكان أمير المؤمنين عليه صلوات المصلّين قد أدّى أمانات رسول الله وفعل ما أوصاه به ، فلما أتاه كتاب رسول الله ابتاع ركائب وتهيأ للخروج وأمر من معه من ضعفاء المؤمنين أن يتسلّلوا ليلاً إلى ذي طوى .

وخرج عليّ بالفواطم الثلاث ، وزاد بعض المؤرّخين فيهنّ فاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب ، وتبعهم أيمن ابن أم أيمن مولى رسول الله وأبو واقد الليثيّ ، فجعل أبو واقد يسوق الرواحل سوقاً حثيثاً ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام له :

١- الآيات ١٩٠ إلى ١٩٤ ، من السورة ٣ : آل عمران .

ارْفُقِ بِالنِّسْوَةِ يَا أَبَا وَاقِدٍ ، إِنَّهِنَّ مِنَ الضَّعَائِفِ .

فجعل عليّ يسوق بهنّ سوقاً رفيقاً وهو يقول :

لَيْسَ إِلَّا اللَّهُ فَارْفَعْ هَمَّكَ يَكْفِيكَ رَبُّ النَّاسِ مَا أَهَمَّكَ

ولمّا وصلت هذه القافلة الصغيرة ضحجان أدركه الطلب ، وهم ثمانية

فرسان ملثمون معهم مولى لَحْرَبِ بْنِ أُمَيَّةٍ اسمه جَنَاح .

فقال أمير المؤمنين عليه السلام لأيمن وأبي واقد : أنيخا الإبل

واعقلاها ، وتقدّم فأنزل النسوة ، ودنا القوم فاستقبلهم أمير المؤمنين عليه

السلام منتضياً سيفه ، فقال الفرسان : ظننت أنك يا غدار ناجٍ بالنسوة ؟

ارْجِعْ لَأَبَا لَكَ .

قال عليّ عليه السلام : فإن لم أفعل ؟

قالوا : لترجعنّ راغماً أو لترجعنّ بأكثرك شعراً وأهون بك من هالك ،

ودنوا من المطايا ليثوروها ، فحال عليّ عليه السلام بينهم وبينها ، فأهوى

له جناح بسيفه فراغ عن ضربته وضرب جناحاً على عاتقه فقدّه نصفين

حتى وصل السيف إلى كتف فرسه (وذلك أنّ عليّاً كان راجلاً وجناح

فارساً ، والفارس لا يمكنه ضرب الراجل بالسيف حتى ينحني ليصل سيفه

إلى الراجل ، فلمّا انحنى جناح لم يُمهله عليّ حتى يعتدل ، بل عاجله بأسرع

من لمح البصر وهو منحني بضربة على عاتقه ، ولو لم ينحن جناح لما وصل

سيف عليّ إلى عاتقه) .

نعم ، لقد قدّ عليّ عليه السلام جناحاً نصفين وشدّ على أصحابه وهو

على قدميه شدة ضيغم وهو يقول :

خَلُّوا سَبِيلَ الْجَاهِدِ الْمُجَاهِدِ أَلَيْتُ لَا أَعْبُدُ غَيْرَ الْوَاحِدِ

فتفرّق القوم عنه ، وقالوا : احبس نفسك عتاً يا ابن أبي طالب .

قال : إِنِّي مُنْطَلِقٌ إِلَى أَخِي وَابْنِ عَمِّي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَالِهِ وَسَلَّمَ ؛ فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ أَفْرِي لَحْمَهُ وَأَرِيْقَ دَمَهُ فَلْيَدْنُ مِنِّي !
ثم أقبل عليّ على أيمن وأبي واقد وقال لهما : أطلقا مطاياكما ؛ ثم
سار ظافراً قاهراً حتى نزل ضجنان فلبث بها يومه وليلته ، ولحق به نفرٌ من
المستضعفين من المؤمنين فيهم أم أيمن مولاة رسول الله .
وبات عليه السلام ليلته تلك هو والفواطم في حالٍ عجيب ، طوراً
يصلون وطوراً يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم حتى طلع الفجر ،
فصلّى بهم صلاة الفجر ، ثم سار لا يفتر عن ذكر الله هو ومن معه حتى
قدموا المدينة .

وقد نزل الوحي قبل قدومهم بما كان من شأنهم وأحوالهم في
صلاتهم ، وذكّره الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم وتأملهم في خلق
السموات والأرض ، ونظرهم إلى نجوم السماء وتلؤلؤها وإيماضها ، في
قوله تعالى : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... حتى يصل إلى قوله
تعالى : الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا ، وينتهي إلى الآيات الخمس
السابقة ، فيستجيب الله لهم ، ويبيّن أجر وثواب قيام الليل والتأمل وقراءة
القرآن في الأحوال المختلفة ، والتفكير في عالم الخلقة وارتباط هذه
الموجودات الحسيّة الماديّة بعالم التجرد والمعنى بهذه العبارات :

فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ
بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي
وَقَاتَلُوا وَقَاتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ .^١

وكان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يتلو هذه الآية : وَمِنَ النَّاسِ مَن

١- الآية ١٩٥ ، من السورة ٣ : آل عمران .

يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ.^١

وجاء في «السيرة الحلبية» عن كتاب «الإمتاع» للمقريزي: لما قدم عليّ عليه السلام من مكة، كان يسير الليل ويكمن بالنهار حتى تفتّرت قدماه، فاعتنقه النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم وبكى رحمةً لما بقدميه من الورم، وتفل في يديه وأمرهما على قدميه، فلم يشكهما بعد ذلك.^٢ وأورد ابن الأثير الجزريّ في تأريخه:

وأما عليّ عليه السلام فإنه لما فرغ من الذي أمره به رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مكة، هاجر إلى المدينة، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى قدم المدينة وقد تفتّرت قدماه، فقال النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، وكان قد نزل بقبا: ادعوا لي عليّاً.

قيل: لَا يَقْدِرُ أَنْ يَمْشِيَ.

فَاتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وآله] وَسَلَّم وَاعْتَنَقَهُ وَبَكَى رَحْمَةً لِمَا بَقَدَمَيْهِ مِنَ الْوَرَمِ وَتَفَلَ فِي يَدَيْهِ وَأَمَرَهُمَا عَلَى قَدَمَيْهِ؛ فَلَمْ يَشْكِهِمَا بَعْدَ حَتَّى قُتِلَ.^٣

وينبغي العلم أنّ الرواحل التي اشتراها أمير المؤمنين عليه السلام كانت لركوب النساء، أمّا هو فكان يسير على قدميه، وكانت فاطمة بنت أسد من النساء - كما نقلوا - تؤثر راحلتها أحياناً لبعض الضعفاء ممّن رافقهم فتسير على قدميها حتى وصلت المدينة وقد تورّمت قدمها المباركة

١- الآية ٢٠٧، من السورة ٢: البقرة.

٢- «أعيان الشيعة» ج ٢، ص ٦٣ و٦٤. وقد نقل المفسّر الشيعيّ الجليل عبد علي بن جمعة العروسيّ الحويزيّ في تفسير «نور الثقلين» ج ١، ص ٣٥١ عن أمالي الشيخ الطوسيّ أحوالهم في صحراء الهجرة.

٣- «الكامل في التاريخ» ج ٢، ص ١٠٦، طبعة بيروت، سنة ١٣٨٥ هـ.ق.

وتقرّحت .

وكان رسول الله يعطف عليها ويدعوها بأُمِّي ، وكان لفاطمة بنت أسد مقامٌ شامخٌ في الإسلام .

أورد الشيخ الطبرسي أن الثعلبي روى في تفسيره بإسناده عن محمد ابن الحنفية ، عن علي بن أبي طالب عليه السلام ، أن رسول الله كان إذا قام من الليل استاك ثم نظر إلى السماء ، ثم يقول : **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ .**

وقد اشتهرت الرواية عن رسول الله أنه قال : **وَيْلٌ لِمَنْ لَا كَهَا بَيْنَ فَكَيْهِ وَلَمْ يَتَأَمَّلْ مَا فِيهَا .^١**

فقد قصد بذلك أن القراءة ليست هدفاً في حد ذاتها ، كما في الصوت الذي يخرج من الحنجرة ويتبدل تحت الأسنان والفك إلى حروف وكلمات ، بل إن الهدف والغاية من القراءة هو التدبر والتأمل في هذه الخلقة العجيبة المحيرة .

وقد ورد عن أئمة أهل البيت من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين الأمر بقراءة هذه الآيات الخمس عند القيام لصلاة الليل ، وعند الاضطجاع على الجنب بعدها ، وبعد ركعتي نافلة الفجر .

وروى محمد بن علي بن محبوب ، عن العباس بن معروف ، عن عبد الله بن المغيرة ، عن معاوية بن وهب قال : سمعتُ الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام يذكر حالات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : **إِنَّ النَّبِيَّ كَانَ يُؤْتَى بِطَهْرٍ فَيُخَمَّرُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَيُوضَعُ مَسَواكُهُ تَحْتَ**

١- تفسير «مجمع البيان» ج ١ ، ص ٥٥٤ ، طبعة صيدا ؛ و«تفسير نور الثقلين» ج ١ ، ص ٣٥٠ عن «المجمع» عن الثعلبي .

فراشه ، ثم ينام ما شاء الله ، فإذا استيقظ جلس ثم قلب بصره إلى السماء وتلا الآيات من آل عمران **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - الآيات** ؛ ثم يستنّ ويتطهّر ، ثم يقوم إلى المسجد فيركع أربع ركعات على قدر قراءته ، ركوعه يركع حتى يُقال : متى يرفع رأسه ؟ ويسجد حتى يُقال : متى يرفع رأسه ؟ ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله ، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران ويقلب بصره في السماء ، ثم يستنّ ويتطهّر ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصلي ركعتين ، ثم يخرج إلى الصلاة ^١.

ويرد الأمر في القرآن الكريم للنبيّ لينشغل بتلاوة القرآن في صلاته قدرًا من الليل يقرب من نصفه :

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ

١- «مجمع البيان» ج ١ ، ص ٥٥٤ و ٥٥٥ ؛ و«تفسير نور الثقلين» ح ١ ، ص ٣٥٠ ، عن «تهذيب الأحكام» للشيخ الطوسي .

ويروي المجلسي في «بحار الأنوار» ج ٩٢ ، ص ١٩٨ ، الطبعة الحروفية ، طهران ، عن «الأمامي» للشيخ الطوسي بسنده عن عمر الخطّاب ، أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو موقودٌ - أَوْ قَالَ مَحْمُومٌ - فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا أَشَدَّ وَعَكَاكَ ، أَوْ حُمَاكَ ؟! فَقَالَ : مَا مَنَعَنِي ذَلِكَ أَنْ قَرَأْتُ اللَّيْلَةَ ثَلَاثِينَ سُورَةَ فِيهِنَّ السَّبْعُ الطُّوْلُ . فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَأَنْتَ تَجْتَهِدُ هَذَا الاجْتِهَادَ ؟! فَقَالَ : يَا عُمَرُ ! أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟! («الأمامي» للطوسي ، ج ٢ ، ص ١٨).

والسور السبع الكبيرة التي يُقال لها السبع الطُّول هي : البقرة ، آل عمران ، المائدة ، النساء ، الأنعام ، الأعراف ، يونس . وكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد وضع سورة يونس مثل سورة الأنفال ، لكنّ عثمان تصوّر أنّ سورة التوبة - لخلوها من البسمة - ليست مستقلة ، بل هي تتمّة لسورة الأنفال ، وباعتبار أنّ مجموع هاتين السورتين أطول من سورة يونس ، فقد عدّ عثمان مجموع السورتين سورة واحدة ، ووضعها إحدى السور السبع الطُّول قبل سورة يونس ، وحين قيل له إنّ رسول الله وضع سورة يونس قبل الأنفال ؛ قال : لم يكن لي علم بعمل رسول الله هذا .

مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ
فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ وَءَاخِرُونَ
يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا
وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١

والمقصود بعبارة فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وفَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ، قراءة القرآن في الصلاة ، فالله سبحانه يأمر بوجوب قراءة الإنسان القدر الممكن من القرآن في صلاة الليل ، بقريته قوله : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلثِي اللَّيْلِ ، لأن القيام في هذه الآية الكريمة المباركة هو القيام للصلاة ، وباعتبار وجوب قراءة القرآن في الصلاة ، فقد عبّر عن الصلاة بقراءة القرآن .

ونظير هذه الآية قوله تعالى :

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ٢

فالمراد هنا بتعبير وَقُرْآنَ الْفَجْرِ - حسب تفسير المفسرين - هو صلاة الصبح ، فقد عبّر عنها بقرآن الفجر بلحاظ أن قوام الصلاة بقراءة القرآن . فهذه الصلاة التي هي قرآن الفجر تُقام وقت طلوع الفجر حين تعرج ملائكة الليل وتهبط ملائكة النهار فتبادل أماكنها ، فتكون مشهودة لها تين الطائفتين من الملائكة .

١- الآية ٢٠ ، من السورة ٧٣ : المزمّل .

٢- الآية ٧٨ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

ولم يكن المؤمنون في صدر الإسلام، وفي الأزمنة التي تلتها، يقرؤون في صلواتهم السور القصار فقط، بل كانوا يقرؤون - تبعاً لأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم - في صلواتهم الواجبة سوراً أطول، ففي صلاة الظهر والعصر كانوا يقرؤون السور القصيرة كالفارعة والزلزلة وأمثالهما، ويتلون في صلاة المغرب أمثال سور الشمس والأعلى، وفي صلاة العشاء سور النبأ والنازعات والمرسلات وأمثالها، وفي صلاة الصبح أمثال سور المزمل والمدثر والحاقة والطور ون والقلم،^١ ويُسْتَحَبُّ للإنسان قراءة سورة قل هو الله أحد مرة واحدة على الأقل كل يوم وعدم تركها بالمرّة.

أمّا في الصلوات المستحبّة، وخاصة في صلاة الليل، فيقرأ من السور الطول كسورة النساء والمائدة وأمثالهما، ويمكن بالطبع تقسيم سورة معينة وقراءتها في عدّة صلوات بعد سورة الحمد، أو قراءة مقدار من آيات سورة معينة ولو بغير إتمامها.

ومن المستحسن كثيراً قراءة سورة يس والصفّات وص ومرّيم والكهف والإسراء، وإبراهيم وأمثالها، ولو بتجزئتها في صلاة الليل، فما

١- روى الشيخ الطوسي في كتاب «تهذيب الأحكام» ج ٢، ص ٩٥، طبعة النجف، بسنده المتّصل عن محمّد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: القراءة في الصلاة فيها شيء مؤقّت؟ قال: لا، إلا الجمعة تقرأ بالجمعة والمنافقين.

قلت له: فأبي السور تقرأ في الصلوات؟ قال: أمّا الظهر والعشاء الآخرة تقرأ فيهما سواء، والعصر والمغرب سواء، وأمّا الغداة فأطول. وأمّا الظهر والعشاء الآخرة فسبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها ونحوهما، وأمّا العصر والمغرب فإذا جاء نصر الله وألهاكم التكاثر ونحوهما، وأمّا الغداة فعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية ولا أقسم بيوم القيامة، وهل أتى على الإنسان حين من الدهر.

يهدف إليه الشرع هو زيادة قراءة القرآن في الصلوات ، بل إنّ القوام الأساسي للصلاة في القراءة من أي موضع في القرآن ، كما أنّ أساس التوصية بقراءة القرآن هي قراءته في الصلاة .

وعليه ، فلا ينبغي للإنسان الاكتفاء بسورة خاصة كسورة التوحيد أو القدر أو النصر في جميع الصلوات ، فهو ما يسبب تضييع القرآن ومهجوريته .

إنّ المقدار الذي يتحمّله كلّ مسلم من القرآن يتمثل في المقدار الذي يستظهره منه ، لا المقدار الذي يمكنه مراجعته في المصحف وقراءته منه ؛ وحين يكتفي المسلمون بقراءة سورة قل هو الله أحد ، وسورة إنّنا أنزلناه في ليلة القدر في صلاتهم ، ويحفظون هذا المقدار فقط لا أكثر ، فإنهم سيحملون من القدر بقدر تلك السورة فقط ويحرمون من الاستفادة من باقي القرآن .

إنّ من يعجز عن حفظ القرآن واستظهاره ، أو يفتقد الفرصة لذلك ، أو من يمتلك الفرصة والقدرة لكنّه لم يحفظ منه حتى الآن ، يمكنه أن يقرأ من المصحف من أي موضع شاء . وتعدّ قراءة القرآن في الصلاة اليومية الواجبة من المصحف أمراً مشروعاً ، وقد وردت روايات بجوازها ، وهي أفضل وأولى من الاكتفاء بسورة التوحيد في جميع الصلوات .

إنّ سورة التوحيد تعدّ أرقى سورة في القرآن الكريم من جهة المعنى والمراد ، وحسب قول بعض أصحاب القلوب (العرفاء) فإنّها تكشف الستار عن هويّة الباري في الأصل والنسب والمحلّ وسائر صفاته الأخرى .

فهذه الهويّة وسجلّ الأحوال هي كالاتي : أنّ الله - وهو ذات غيب الغيوب - أحد يتّصف في ذاته بالوحدانيّة والتوحد ، وصمد غير أجوف ، فهو عزيزٌ وحكيمٌ ذو استقلالٍ وإرادة ، وليس ذليلاً وقائماً بغيره ولا حادثاً

كما هي صفات الأجوف غير الصمد .

لم يلد ، بل إنّ هذه الموجودات والممكنات التي وجدت بإرادته ، لا انفصال لها عن حقيقته ، وإلاّ لكان هذا الانفصال عنه هو الولادة منه ؛ ولم يولد ، فهذه المظاهر التي هي جميعاً أسماؤه وصفاته وتجلياته قائمة بذاته هو لا انفصال لها ولا بينونة ، ولولا ذلك لكانت تلك الأصالة مستقلة عن المبدأ الأصل ، ولتحققت الولادة والتولد .

فذاته واحد ، أحد ، قيوم ، عليم ، وحيّ وقدير مع صفاته وشؤونه ، فهي جميعاً متوحّدة أصيلة قديمة ، لا انفكك وافتراق بينها أبداً ، لا الذات عن الصفات ، ولا الصفات عن الذات .

ولا شريك له ، ولا زوجة له ، ولا صاحبة له وولد ، بل هو قائم بذاته فقط .

فهذه هي الهوية والثيقة الشخصية وورقة التعريف وأمثالها . ولكن ، ومع أهميّة هذه السورة ، يجب أن لا نترك سائر سور القرآن ونهجرها ، لأنّ ذلك سيؤدّي إلى تضييع القرآن ومحوه .

وفي كتاب «من لا يحضره الفقيه» رواية عن الفضل بن شاذان - ضمن بيان العلل - عن الإمام الرضا عليه السلام قال :

إِنَّمَا أَمْرُ النَّاسِ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ لِئَلَّا يَكُونَ الْقُرْآنُ مَهْجُورًا مُضَيَّعًا ؛ وَلِيَكُونَ مَحْفُوظًا مَدْرُوسًا . فَلَا يَضْمَحِلُّ وَلَا يُجْهَلُ . وَإِنَّمَا بُدِيَ بِالْحَمْدِ دُونَ سَائِرِ السُّورِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْكَلَامِ جُمِعَ فِيهِ مِنْ جَوَامِعِ الْخَيْرِ وَالْحِكْمَةِ مَا جُمِعَ فِي سُورَةِ الْحَمْدِ . ثُمَّ شَرَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَمْدِ إِلَى آخِرِهَا .^١

١- «من لا يحضره الفقيه» للشيخ الصدوق ، ج ١ ، ص ٢٠٣ ، طبعة النجف .

لقد كان المؤمنون مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقرؤون السور الطُّول في صلاة الليل ، و يقرؤون في النوافل السور والآيات الطويلة الكثيرة ، أمّا في الصلوات الواجبة التي يصلونها جماعةً مع رسول الله ، فقد كان النبيّ يقرأ الآيات الكثيرة بعد الحمد ، أو يقسم سورةً ما إلى نصفين مثلاً ، فيقرأ كلّ نصف في ركعة ، كأمثال سور ق والفتح والحديد والحشر .

وكان لهذا النوع من تلاوة القرآن ، الذي يمثّل كيميّة ارتباط العبد برّبّه وخالقه بهذه الكلمات الإلهيّة والعبارات السبحانيّة ؛ وخاصّةً للناطقين بالعربيّة أو لمتعلّميها ؛ عالمٌ من الأنس واللذّة والوحدة والتكلم مع الله سبحانه ، فيغرقون في البهجة والسرور في فضاء من التجردّ والفناء عن النفس والبقاء بالله تعالى ، كصلاة عبّاد بن بشر الذي عهد إليه مع عمّار بن ياسر حراسة الشُّعب ليلاً ، فانهمك عبّاد في الصلاة ، وكانت سهام العدو تصيب بدنه فيكاد يموت ، لكنّه لم يقطع السورة التي كان مشغولاً بقراءتها في الصلاة .

فقد نقل الواقديّ في «المغازي» أنّه بلغ المسلمين في المدينة أنّ الأعراب من طائفة أنمار وثعلبة قد جمعوا لهم المجموع واستعدّوا لغزو المدينة ، ومن العجيب أنّ المسلمين لم يكونوا يعلمون بذلك .

وحين بلغ الخبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، خرج في أربعمئة من أصحابه للدفاع ، حتّى سلك على المضيق^١ ، ثمّ أفضى إلى وادي الشُّقرة فأقام به يوماً ، وبثّ السرايا فرجعوا إليه مع الليل وخبروه أنّ الأعراب قد فزّوا وذهبوا إلى رؤوس الجبال وهم مطلّون على النبيّ

١- جاء في «وفاء الوفاء» ج ٢ ، ص ٢٣٩ : أنّ المضيق قرية كبيرة قريبة من الفرع .

صلى الله عليه [وآله] وسلم . ولأنّ المشركين كانوا قريباً منهم يخاف المسلمون أن يُغيروا عليهم ، فقد صلى رسول الله بالمسلمين صلاة الخوف ، فكانت أول صلاة للخوف هي في هذه الغزوة التي دُعيت بـغَزْوَةِ ذَاتِ الرُّقَاعِ ، أُقيمت حسب نزول جبرئيل وآيات القرآن ، وقد أقامها رسول الله بالمسلمين جماعة .

وكان المشركون الذين فرّوا إلى رؤوس الجبال قد خلفوا في محالّهم نسوةً وقعن في أيدي المسلمين ، وكان في السبي جارية وضيئة ، فلمّا انصرف رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم راجعاً إلى المدينة حلف زوجها ليطلبنّ محمّداً ولا يرجع إلى قومه حتّى يصيب محمّداً أو يهريق فيهم دمًا ، أو تتخلّص صاحبتة .

فبينما رسول الله في مسيره عشيةً ذات ريح ، فنزل في شعبٍ استقبله فقال : مَنْ رَجُلٌ يَكْلُونَا اللَّيْلَةَ ؟!

فقام رجلان : عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَعُبَادُ بْنُ بَشْرٍ ، فقالا : نحن يا رسول الله نكلؤك . وجعلت الريح لا تسكن .

وجلس الرجلان على فم الشعب ، فقال أحدهما لصاحبه : أيّ الليل أحبّ إليك ، أن أكفيك فتكفيني آخره ؟ قال : إكفيني أوّله .

فنام عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وهو من المهاجرين ، وقام عُبَادُ بْنُ بَشْرٍ الأنصاريّ يصلي ، وأقبل عدوّ الله يطلب غرّة وقد سكنت الريح ، فلمّا رأى سواد عبّاد علم أنّه ربيّة القوم ، فأراد رميه بسهم حتّى إذا انفتح طريق الشعب حمل على المسلمين النائمين داخله في ظلام الليل ، ففوّق له سهماً فأصابه . فانتزع بشر السهم ورمى به . ثمّ رماه بآخر فأصابه ، فانتزعه ورمى به . ثمّ رماه بالثالث فأصابه ، فلمّا غلب عليه الدم ركع وسجد ، ثمّ قال لصاحبه عمّار : اجلس فقد جاء العدو .

فنهض عمار ، فلما رأى الأعرابيَّ أنَّ عماراً قد قام علم أنَّهم قد نذروا به ، فقال عمار : أيُّ أخي ! ما منعك أن توقظني في أول سهم رمى به ؟!

أجاب عباد : كُنْتُ فِي سُورَةِ أَقْرُؤُهَا وَهِيَ سُورَةُ الْكَهْفِ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أَفْرَعُ مِنْهَا . وَلَوْلَا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ أَضِيعَ ثَغْرًا أَمْرَنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وآله] وَسَلَّم مَا انْصَرَفْتُ وَلَوْ أَتَيْ عَلَى نَفْسِي .

ويقال إنَّ الرجل الأنصاريَّ كان عِمَارَةَ بن حَزْم . قال ابن واقد : وأثبتهما عندنا عمار بن ياسر .^١

هكذا كان أنس المسلمين بالقرآن ، فقد كانوا في خلوتهم مع الله ، وبتلاوة كتاب الله ، يغرقون في عوالم المعاني فيرضون أن يهبوا أرواحهم ولا ينصرفون عن لذة المكالمة .

ولقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يمتلك حواريين كهؤلاء ، يعيشونه في المجالسة والمؤانسة والذكر والفكر ، وكان يثنّ لفقدهم وموتهم ويذرف الدموع سخاناً والآهات حرى ، نِعَمَ الْإِمَامُ وَنِعَمَ الْمَأْمُومُ .

ولقد خطب عليه السلام في آخر أسبوع من عمره الشريف خطبةً كانت آخر خطبه ، قال فيها :

أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ ؟ أَيْنَ عَمَارٌ ؟
 وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيْهَانِ ؟ وَأَيْنَ نَظْرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ
 تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ ؟ وَأُبْرِدَ^٢ بَرُّوْسِهِمْ إِلَى الْفَجْرَةِ ؟!

١- كتاب «المغازي» للواقدي ، ج ١ ، ص ٣٩٧ . وأورده أيضاً ابن الأثير الجزري في كتاب «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ١٧٥ ، والمحدث القمي في «مستهل الأمال» ج ١ ، ص ٥٤ ؛ وفي «سفينة البحار» ج ٢ ، ص ٢٧٥ ، السطر الأخير مجملاً .

٢- أُبْرِدَ إِلَيْهِ الْبَرِيدَ : أَرْسَلَهُ .

ثُمَّ ضَرَبَ عَلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةَ ، فَأَطَالَ الْبُكَاءَ ؛ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
 أَوْهٍ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ؛ وَتَدَبَّرُوا الْفَرَضَ
 فَأَقَامُوهُ ، أَحْيَوْا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ . دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ
 فَاتَّبَعُوهُ .

(ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ) : الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ . أَلَا وَإِنِّي مُعَسِّكِرٌ
 فِي يَوْمِي هَذَا فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَّاحَ إِلَى اللَّهِ فَلْيُخْرِجْ .
 قَالَ نَوْفٌ : وَعَقَدَ لِلْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ ، وَلِقَيْسِ بْنِ
 سَعْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ ، وَلِأَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ فِي عَشْرَةِ
 آلَافٍ ، وَلِغَيْرِهِمْ عَلَى أَعْدَادٍ أُخَرَ ، وَهُوَ يُرِيدُ الرَّجْعَةَ إِلَى صِفِّينَ .
 فَمَا دَارَتْ الْجُمُعَةُ حَتَّى ضَرَبَهُ الْمَلْعُونُ ابْنُ مُلْجَمٍ لَعْنَهُ اللَّهُ .
 فَتَرَاجَعَتِ الْعَسَاكِرُ فَكُنَّا كَالْأَغْنَامِ فَقَدَّتْ رَاعِيَهَا تَخْتَطِفُهَا الذَّنَابُ مِنْ كُلِّ
 مَكَانٍ^١ .

وكان عمّار بن ياسر من أجلة كبار صحابة رسول الله وأمير المؤمنين
 عليهما الصلاة والسلام ، ومن كبار الفقهاء والزهاد وأهل البصيرة والولاية ،
 امتلك ضميراً مضاءً ، وقلباً منيراً متوهجاً ، وفكراً عميقاً ، وعقلاً صائباً ،
 وأسلوباً متيناً ، وحزماً راسخاً صحيحاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه : عَمَّارٌ مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ
 مَعَ عَمَّارٍ حَيْثُ كَانَ . عَمَّارٌ جِلْدَةٌ بَيْنَ عَيْنَيْي وَأَنْفِي تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ^٢ .

١- «نهج البلاغة» الخطبة ١٨٠ ؛ وفي الطبعة المصرية بتعليق الشيخ محمد عبده:

ج ١ ، ص ٣٤٤ و ٣٤٥ .

٢- «منتهى الآمال» ج ١ ، ص ٩٢ ؛ وكتاب «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة الدينوري ،

ج ١ ، ص ٣٣ .

ويقول في «ينابيع المودة» ص ١٢٨ ، طبعة إسلامبول: وفي كتاب «المشكاة» رواية ⇨

ونُقل عن «صحيح البخاري» أنّ عمّار كان عند بناء مسجد النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يحمل ضعف ما يحمله غيره من الأحجار ، فيحمل عنه وعن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وكان رسول الله ينفض الغبار عن عمّار ويقول :

وَيَحْ عَمَّارٍ ! تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ ؛ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ .

وكذلك قال عنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ :

أَبَشِّرْ يَا أَبَا الْيَقْظَانِ ! فَإِنَّكَ أَخُو عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دِيَانَتِهِ وَمِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ وِلَايَتِهِ وَمِنَ الْمُقْتُولِينَ فِي مَحَبَّتِهِ . تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ ، وَآخِرُ

عن أبي قتادة ، أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وضع يده على رأس عمّار عند حفر الخندق ، وقال : بُؤْسُ ابْنِ سُمَيَّةَ ! تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ . وأورد هذا الحديث مسلم في الصحيح. وروى مسلم أيضاً عن أمّ سلمة أمّ المؤمنين أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال لعمّار : تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ .

ويقول في ص ١٢٩ : وفي «سنن الترمذي» رواية عن أبي هريرة ، أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال : أَبَشِّرْ عَمَّارًا ! تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ . وورد هذا الحديث في هذا الباب عن أمّ سلمة وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبي يسر وحذيفة ؛ وهذا حديث حسن صحيح.

ويقول في كتاب «الإصابة» في ترجمة عمّار : ووردت الروايات المتواترة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ عَمَّارًا تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ . وقد أجمعوا أنّ عمّار قد قُتِلَ في ركاب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في صفين ، وكان من أنصار عليّ عليه السلام ، وكان قتلته من مخالفي عليّ ، وذلك في سنة سبع وثلاثين للهجرة في شهر ربيع الأول ، وله ثلاث وتسعون سنة.

وقد نقل ابن كثير الدمشقي في «اللباية والنهاية» ، ج ٣ ، ص ٢١٧ ، ضمن بيان وشرح بناء مسجد رسول الله في المدينة مطالباً عن جهود عمّار وإخبار النبيّ بشأن (تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ) .

زَادَكَ مِنَ الدُّنْيَا ضِيَاْحٌ ١ مِنَ اللَّبَنِ ٢.

وفي الوقت الذي ينقل فيه مخالفونا وأبناء العامة في كتبهم من فضائل عمّار على لسان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالقدر الذي يُثير الدهشة والعجب ، نرى عثمان يضربه زمن خلافته حتى يغشى عليه ، ثم يأمر غلمانه فيوثقوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ثم يضربه برجليه وهما في الخقين على مذاكيره فيصيبه الفتق ويكسر ضلع من أضلاعه !

قالوا إنّ رسول الله قال فيه : عَمَّارٌ مُلِيٌّ إِيْمَانًا حَتَّى أْخْمَصَ قَدَمَيْهِ ؛ وَإِنَّ مَنْ عَادَاهُ عَادَاهُ اللهُ ؛ وَإِنَّ مَنْ أَبْغَضَهُ أَبْغَضَهُ اللهُ . وَإِنَّ الْجَنَّةَ مُشْتَاقَةٌ إِلَيْهِ ٣.

ولقد سقط عمّار في معركة صفين شهيداً ، وكان يقول فيها :
وَاللهِ لَوْ ضَرَبُونَا بِأَسْيَافِهِمْ حَتَّى يُبْلِغُونَا سَعَفَاتٍ ٤ هَجَرَ لَعَلِمْنَا أَنَّا
عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّهْمُ عَلَى الْبَاطِلِ ٥ .
ولقد جاء عمّار في معركة صفين إلى أمير المؤمنين عليه السلام ،
فقال : يَا أَخَا رَسُولِ اللهِ ! أَتَأْذَنُ لِي فِي الْقِتَالِ !؟

١- الضياح : اللبن الذي يُداف بالماء .

٢- انظر : « سفينة البحار » ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

٣- « منتهى الآمال » ج ١ ، ص ٩٢ .

٤- جاء في « مجمع البحرين » في مادة (سعف) : السَعَفَاتُ : جَمْعُ سَعْفَةٍ بالتحريك : جريدة النخل مادامت بالخوص ، فإن زال عنها قيل جريدة . وقيل إذا يبست سُمِّيَتْ سَعْفَةً ، والرطبة شَطْبَةٌ . قال بعض الشارحين : وخصَّ عمّار (هَجَرَ) لُبْعَدِ المسافة ولكثرة النخيل بها- انتهى .

أقول : هجر بكسر الهاء وسكون الجيم بمعنى مدينة ، وتُضاف الكلمة عادةً إلى اسم آخر ، وأشهرها : هجر البحرين .

٥- « سفينة البحار » ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

فقال عليه السلام: مَهَلًا رَحِمَكَ اللَّهُ!

فلما كان بعد ساعة، أعاد عليه الكلام، فأجابه بمثله، فأعاده ثلثاً، فَبَكَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَمَّارٌ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّهُ الْيَوْمَ الَّذِي وَصَفَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. فَنَزَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ بَعْلَتِهِ، وَعَانَقَ عَمَّارًا وَوَدَّعَهُ، ثُمَّ قَالَ:

يَا أَبَا الْيَقْظَانِ! جَزَاكَ اللَّهُ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ نَبِيِّكَ خَيْرًا؛ فَنِعْمَ الْأَخُ كُنْتَ وَنِعْمَ الصَّاحِبُ كُنْتَ، ثُمَّ بَكَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَكَى عَمَّارٌ؛ ثُمَّ بَرَزَ إِلَى الْقِتَالِ.

وكان لعمّار آنذاك أربع وتسعون سنة، وخلال المعركة الملتحمة بينه وبين عدوه طعنه أبو العادية برمح في جنبه فهوى عمّار على الأرض. قَالَ أَبُو الْبُخْتَرِيِّ: أَتَيْ عَمَّارٌ يَوْمَئِذٍ بِلَبَنِ فَضَحِكَ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَخْرُ شَرَابٍ تَشْرَبُهُ مِنَ الدُّنْيَا مَذَقَةً مِنْ لَبَنِ حَتَّى تَمُوتَ.^١

فلما وقع عمّار على الأرض بطعنة رمح أبي العادية أكتب عليه ابن جوي السكسكي واحتزّ رأسه، فأقبلا إلى معاوية يختصمان، كلُّ يقول مفتخرًا: أنا قتلتُه!

فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ اللَّعِينِ:

وَاللَّهِ إِنْ يَخْتَصِمَانِ إِلَّا فِي النَّارِ!

وبكى أمير المؤمنين عليه السلام لقتله: فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ طَافَ

١- يروي في «رجال الكشي» هذا المطلب عن أبي البخترى. ومذقة اللبن هي ضباح اللبن الذي جاء في الرواية السابقة. أي اللبن المداف بالماء.

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْقَتْلِ فَوَجَدَ عَمَّارًا مُلْقَى فَجَعَلَ رَأْسَهُ عَلَى
فَخِذِهِ ، ثُمَّ بَكَى وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَيَا مَوْتُ كَمْ هَذَا التَّفَرُّقُ عَنوَةً

فَلَسْتُ تُبْقِي لِي خَلِيلَ خَلِيلِي

أَلَا أَيُّهَا الْمَوْتُ الَّذِي لَيْسَ تَارِكِي

أَرْحَنِي فَقَدْ أَفْنَيْتَ كُلَّ خَلِيلِي

أَرَاكَ بَصِيرًا بِالَّذِينَ أَحَبُّهُمْ

كَأَنَّكَ تَمْضِي نَحْوَهُمْ بِدَلِيلِي

ثُمَّ قَالَ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . إِنَّ أَمْرًا لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ مُصِيبَةٌ مِنْ

قَتْلِ عَمَّارٍ فَمَا هُوَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ شَيْءٍ . ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ .^١

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَا يَعْسُوبَ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَا إِمَامَ

الْمَوْحِدِينَ ، وَيَا قَائِدَ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ ، وَيَا سَيِّدَ الْوَصِيِّينَ ، وَيَا حَامِلَ أَسْرَارِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَيَا تَأْوِيلَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

ای علم ملّت و نفس رسول

حلقه کش علم تو گوش عقول^٢

١- «سفينه البحار» ج ٢ ، ص ٢٧٧ . وقد نقل المحدث القمّي في هذا الكتاب هذه

الآيات الثلاثة عن أمير المؤمنين عليه السلام وأوردها بدون ياء المتكلم ، وباعتبار عدم وضوح معنى البيت الأول وضعف بلاغة البيتين الآخرين ؛ لذا يبدو أنّ كلاً من هذه الآيات الثلاثة كانت مضافاً إلى ياء المتكلم ، ثم سقطت الياء منها في ضبطها أو استنساخها ، والأصح أن تكون مع ياء المتكلم .

ولمزيد من الاطلاع على أحوال عمّار ، يراجع كتاب «طبقات ابن سعد» ج ٣ ،

ص ٢٤٦ ، طبعة بيروت ، سنة ١٣٧٦ .

٢- يقول : «يا علم الأمة ومن هو نفس الرسول ، يخضع - كالعبد المسترق -»

ای بتو مختوم کتاب وجود
 وی بتو مرجوع ، حساب وجود
 داغکش نافه تو مشك ناب
 جزیه ده سایه تو آفتاب
 خازن سبحانی و تنزیل وحی
 عالم ربّانی و تأویل وحی
 آدم از اقبال تو مسجود شد
 چون تو خَلَف داشت که مسجود شد
 تا که شده کُنِيتِ تو بو تراب

نه فلک از جوی زمین خورده آب^۱

عَلِيُّ الدُّرِّ وَالذَّهَبُ الْمُصَفَّى وَبَاقِي النَّاسِ كُلُّهُمْ تُرَابُ
 وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ الطَّاهِرِينَ ، الوارثين مقام الولاية حقاً ، والمكتملين
 حقيقة الشريعة ، والحاملين روح القرآن وحياته في كل زمان ومكان ، سيّما
 بقيّة الله تعالى أرواحنا فداه .

بِأَلِ مُحَمَّدٍ عُرِفَ الصَّوَابُ وَفِي آيَاتِهِمْ نَزَلَ الْكِتَابُ
 وَهُمْ حُجَجُ الْإِلَهِ عَلَى الْبَرَايَا بِهِمْ وَبِحَدِّهِمْ لَا يُسْتَرَابُ

« لعلمك علمُ العقول» .

۱- يقول : «يا من خُتِمَ بك كتاب الوجود ، ويرجع إليك حساب الوجود .
 يتحرّق خالص المسك إلى عبيرك ، وتخضع الشمس صاغرةً أمام ظلك .
 أنت الخازن السبحانيّ وتنزيل الوحي ، وأنت العالم الربّانيّ وتأويل الوحي .
 سجد الملائكة لآدم لأجل مقدمك ، سجدوا له لأنك خَلَفه ووارثه .
 حين صارت كنيّتك (أبا تراب) ، صارت الأفلاك التسعة ترتوي من سواقي الأرض
 ونميرها» .

لِبَحْثِ السَّابِعِ

ثَمَرَةُ الْقُرْآنِ تَرْبِيَةُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ

وَتَفْسِيرِيَّةٌ

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعِلَمُونَ
عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝
لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ
وَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ مِنَ الْآنَ إِلَى قِيَامِ يَوْمِ الدِّينِ
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

«فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ
لَقَرِءٌ أُنزِلَ مِنْ رَبِّكَ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْأَمْطَهُرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ
رَبِّ الْعَالَمِينَ .^١

للقرآن الكريم مرحلتان وموقعان :

المرحلة والموقع الأول : حقيقته في عالم التجرد والمعنى والملكوت
الأعلى ، فهو مجرد وبسيط ومُحكَم ؛ والمرحلة والموقع الثاني : نزوله في
عالم الكثرة والتلبس بلباس الصور ، والتشكُّل بأشكال السور والآيات
بالشكل المعين المعهود .

فذاك القرآن الذي عند الرب لا حجم له ولا زمان ، بل هو كتابٌ
سماويٌّ أنزله الأمين جبرئيل من رب العزة على القلب المبارك لمحمد بن
عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم دفعةً واحدة ، وهو النزول الحاصل في
شهر رمضان :

١- الآيات ٧٥ إلى ٨٠ ، من السورة ٥٦ : الواقعة .

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ
وَالْفُرْقَانِ ۚ^١

وقد عبّر في سورة الدخان عن نزول هذا القرآن بأنه كان في ليلة مباركة :

حَمَّ * وَالْكَتَبِ الْمُمِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا
مُنذِرِينَ ۚ^٢

وعيّنت هذه الليلة المباركة في سورة القدر بأنها هي ليلة القدر :

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ^٣

وبضمّ هذه الآيات الثلاث إلى بعضها ، يستفاد أنّ ذلك القرآن المحكم ، البسيط والمجرّد ؛ الذي نزل في آنٍ واحد دفعةً واحدة على صدر النبيّ ، وذلك في لحظة واحدة لا أكثر - والتعبير باللحظة الواحدة تبعاً للمسائل العلميّة والفلسفيّة من باب ضيق العبارة - كان أولاً في شهر رمضان لا في سائر الشهور . وكان ثانياً في ليلة القدر - وهي الليلة المباركة - لا في سائر الليالي .

وعليه ، فإنّ القرآن قد أنزل على النبيّ في ليلة القدر من شهر رمضان .

والشاهد على هذا النزول الدفعي على القلب المبارك للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أو إلى السماء الدنيا ، التعبير عنه بكلمة الإنزال التي تتحدّث في جميع الآيات القرآنيّة عن النزول الدفعي ، فهذه الصيغة

١- الآية ١٨٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢- الآيات ١ إلى ٣ ، من السورة ٤٤ : الدخان .

٣- الآية ١ ، من السورة ٩٧ : القدر .

تستعمل في اللغة العربية في موارد النزول الدفعي .

أما المرحلة والموقع الثاني للقرآن فنزوله التدريجي منجماً وتدرجياً على رسول الله خلال ثلاث وعشرين سنة ابتداءً من زمن البعثة إلى زمن رحيل الرسول الأكرم ، حسب المقتضيات والمصالح والحاجة إلى الأحكام والتشريع ، عند ظهور ونشوء الموضوعات والمتعلقات والاحتياجات التدرجية ، وهذه الحقيقة مشهودة في كيفية التعبير عنها بعبارة التنزيل في الآيات التالية :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمِ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا^١

وَنَزَّلْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا^٢

وتستعمل صيغة التنزيل في اللغة العربية للنزول التدريجي ، وعليه فإن الفرق بين المرحلة والموقع الأول للقرآن مع مرحلته وموقعه الثاني هو الفرق بين الإجمال والتفصيل :

كِتَابٌ أَحْكَمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ^٣

ويتضح من هذه الآية أنّ للقرآن جهتين : محكمٌ ومفصّلٌ ، فالمحكم هو جهة الإجمال التي لا صورة ولا شكل تفصيلي لها ، فهو واحد وبسيط لا يتجزأ ولا ينقسم بكلّ ما في الكلمة من معنى . والمفصّل هو جهة التفصيل التي كان لها صورة وشكل ، فهي قد خرجت من الإجمال إلى

١- الآيتان ٢٣ و٢٤ ، من السورة ٧٦ : الإنسان .

٢- الآية ٨٢ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٣- الآية ١ ، من السورة ١١ : هود .

التفصيل .

إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا
لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ^١.

وهذه الآية توضح نكات ودقائق كثيرة في إفادة ما ذكرناه ، فأولاً أنّ كتاب القرآن هذا - أي السور والآيات القرآنية - قد جعل قابلاً للقراءة ، وجعل عربياً فصيحاً ليفهمه الناس .

وثانياً : أنّ هذا القرآن هو في أم الكتاب ، حيث وعنده أم الكتاب^٢ ، في عالم له في البساطة والتجرد والعلو والنور عند الله حكم الأم والمنشأ لجميع العوالم .

وثالثاً : أنّه هناك ليس في صورة سور وآيات ، بل حقيقة محكمة ومتعالية ذات مقام سام ودرجة رفيعة ، ليس فيه جانب من التجزئة والتفرقة والتفصيل ، لا تناله أفكار المفكرين ، ولا ترتفع إلى ذروة ساحة قدسه الأوهام المحلقة في الشواهد ، وتزيغ وتهاوى وتضمحل دون الوصول إلى عز ذلك المقام المنيع .

المطهرون فقط ، هم الذين يصلون ذلك المقام ويدركون تلك الحقيقة المجردة ، إذ : لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . فغير المنزهين والمطهرين من الرذائل وهوى النفس ، والعابرين من درجة الإخلاص ، والفائزين بمقام الصديقين والمخلصين الذين لم يبق في وجودهم وعقولهم وسرهم أبداً شائبة من البيئونة والأزدواجية ، لا يمكنهم الوصول إلى ذلك المقام وحياسة تلك الذروة الرفيعة السامية .

١- الأيتان ٣ و ٤ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .

٢- الآية ٣٩ ، من السورة ١٣ : الرعد : يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ .

فهذا القرآن النازل مفصلاً ومبيناً موجود على نحو أعلى وأكمل في ذلك القرآن العالي والعلويّ المحكم المنزل عنه ، كأنّ ذلك القرآن كان نبعاً من الماء يفور الماء منه على الدوام ، فأعطِيَ منبع الفوران والنبع ذلك دفعةً إلى النبيّ ، ثمّ منح صلوات الله عليه وآله وسلّم تدريجياً هذا الفوران المستمرّ المتوالي من مياه الرحمة التي شملت أرجاء العالم .

أو كمثال ملكة الرسم والخطّ وملكات سائر الحرف والصنائع التي يوجد أصلها في الشخص الواحد لها ، فهي موجودة لديه بلا شكل أو أبعاد أو زمان أو ما شابه ، وبواسطة تلك الملكة البسيطة المجردة يقوم صاحبها تدريجياً بإنزال ملكاته بصورة محدودة ومعيّنة إلى عالم الفعل والخارج ويلبسه لباس التحقّق والفعليّة ، كما يفعل الرسّام برسم اللوحات المختلفة الهيئة والكيفيّة ، وكما يفعل الخطّاط بخطّ الخطوط المختلفة ، وكما يفعل سائر أصحاب الصنائع والحرف .

وهكذا ، فقد كان ذلك القرآن المحكم - الذي نزل دفعةً - حقيقة متعالية ؛ وكان هذا القرآن المفصّل في ثلاثين جزءاً ومائة وأربع عشرة سورة ، والنازل تدريجياً بأشكال مختلفة ومطالب متنوّعة من التوحيد والمعارف والقصص والأحكام وغيرها ؛ بحسب المقتضيات المحدودة المتميّزة ليس إلّا ذلك القرآن العالي . لا فرق بينهما إلّا في التفصيل والإجمال ، فإن رُفِع هذا القرآن إلى الأعلى لصار ذاك ، وإن أنزل ذاك صار هذا .

ذلك القرآن هو حقيقة نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ، وهذا القرآن هو أخلاقه وملكاته وأعماله .^١

١- يقول العالم المصريّ الواعي المتنبّع والصريح غير المتعصّب: المرحوم الشيخ ⇨

وتتضح بهذا البيان كيفية اتحاد نفس رسول الله والأئمة الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين مع القرآن المحكم العالي ، واتحاد فكر وذهن وأبدان وجوداتهم القدسية مع هذا القرآن المفصل العربي المبين .

وكما أن بعثة خاتم الأنبياء لا تختص بزمان أو مكان معينين ، إذ :
 وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ^١ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ،^٢ فَإِنَّ
 القرآن الكريم الذي يمثل وحي الله هو الآخر مرسل لجميع العوالم إلى
 يوم الجزاء ، فلا اختصاص له بزمان أو مكان معينين :

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا تُولُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.^٣

« محمود أبو رية غفر الله له في كتاب «أضواء على السنة المحمدية» ص ٤٠ ، الطبعة الثانية: ومما أورد الشاطبي: أن السنة بمنزلة التفسير والشرح لمعاني أحكام الكتاب، ودل على ذلك قوله تعالى: لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ؛ وأن السنة راجعة في معناها إلى الكتاب، فهي تفصيل مجمله، وبيان مشكله، وبسط مختصره، وذلك لأنها بيان له. وهو الذي دل عليه قوله تعالى: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، فلا تجد في السنة أمراً إلا والقرآن قد دل على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية، وأيضاً فكل ما دل على أن القرآن هو كلية الشريعة وينبوع لها، فهو دليل على ذلك، ولأن الله قال: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ، وفسرت عائشة ذلك بأن خُلُقَهُ الْقُرْآنُ -واقترعت في خلقه على ذلك- فدل على أن قوله وفعله وإقراره راجع إلى القرآن، لأن الخلق محصور في هذه الأشياء، ولأن الله جعل القرآن تبيانياً لكل شيء .

١- الآية ١٠٧، من السورة ٢١: الأنبياء .

٢- الآية ٢٨، من السورة ٣٤: سبأ .

٣- الآية ١٥٨، من السورة ٧: الأعراف .

وهذه الآية الأخيرة ، والتي تعلن نداء شمول الرسالة لجميع سكان العالم إلى يوم القيامة ، قد تلت هذه الآية :

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. ١

حيث إنها تشخص في هذه الآية المباركة كيفية دعوة رسول الله وموارد مهمته ورسالته بالنور الذي أنزل معه ، أي القرآن .

فالقرآن كنفس رسول الله ، هو أفضل وأعلى من جميع الكائنات . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما من شفيح أفضل منزلة عند الله يوم القيامة من القرآن ؛ لا نبي ولا ملك ولا غيره. ٢

وروي أيضاً عن رسول الله : إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد . فقيل : يا رسول الله وما جلاؤها؟ فقال : تلاوة القرآن وذكر الموت. ٣

فالقرآن مرهم لجراح النفس ، لذا يجلو صدأ القلوب ويصقلها فتصبح

١- الآية ١٥٧ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢- «المحجة البيضاء» ج ٢ ، ص ٢١٠ ، نقلاً عن «إحياء العلوم» ؛ وأوردناه أيضاً بعبارة أكثر اختصاراً في هذه الجزء من «نور ملكوت القرآن» ، عن «المحجة البيضاء» نقلاً عن «إحياء العلوم» .

٣- «المحجة البيضاء» ج ٢ ، ص ٢١١ ، نقلاً عن «الإحياء» ؛ وأوردناه أيضاً في هذا الجزء من «نور ملكوت القرآن» في البحث الخامس ، عن «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد .

معدّة لعكس الأنوار الإلهية والتجليات السبحانية ، وفي هذه الحالة فإنّ جميع الصفات الحسنة ومكارم الأخلاق ستنشأ في تالي القرآن .
والقرآن يهدي إلى مقام عزّ الربوبية ، وهو شرف الإنسان وفيه صفاته الحميدة في الاستقامة والعفة والعبودية والعلم والحلم والإيثار وغيرها .

يروى الكلينيّ بإسناده المتّصل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال :

إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالتَّخَشُّعِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ لِحَامِلِ الْقُرْآنِ . وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ لِحَامِلِ الْقُرْآنِ .

ثمّ نادى بأعلى صوته : يَا حَامِلِ الْقُرْآنِ ! تَوَاضَعْ بِهِ يَرْفَعَكَ اللَّهُ ! وَلَا تَعَزَّزْ بِهِ فَيَذَلُّكَ اللَّهُ ! يَا حَامِلِ الْقُرْآنِ ! تَزَيَّنْ بِهِ لِلَّهِ يُزَيِّنْكَ اللَّهُ [به] ، وَلَا تَزَيَّنْ بِهِ لِلنَّاسِ فَيُشِينَكَ اللَّهُ بِهِ .

مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ فَكَأَنَّمَا أُدْرِجَتْ النُّبُوءَةُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ وَلَكِنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ وَمَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ فَنُؤَلِّهُ لَا يَجْهَلُ مَعَ مَنْ يَجْهَلُ عَلَيْهِ ؛ وَلَا يَغْضَبُ فِيمَنْ يَغْضَبُ عَلَيْهِ . وَلَا يَحُدُّ فِيمَنْ يَحُدُّ ؛ وَلَكِنَّهُ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ وَيَحْلُمُ لَتَعْظِيمِ الْقُرْآنِ .

وَمَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ أُوتِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُوتِيَ فَقَدْ عَظَّمَ مَا حَقَّرَ اللَّهُ وَحَقَّرَ مَا عَظَّمَ اللَّهُ .^١

١- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦٠٤ ؛ ويروي المجلسي في «بحار الأنوار» ج ٩٢ ، ص ١٧٧ ، الطبعة الحروفية ، طهران ، في باب فضل القرآن وحافظه والعامل به ، عن «ثواب الأعمال» و«أمالى الصدوق» بسند متّصل عن الإمام الصادق عليه السلام قال : الْحَافِظُ لِلْقُرْآنِ الْعَامِلُ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ «ثواب الأعمال» ص ٩٢ ، «أمالى الصدوق» ص ٣٦ .
وروى أيضاً عن «معاني الأخبار» و«الخصال» و«أمالى الصدوق» بسند متّصل عن

ويلاحظ في هذا الحديث المبارك ما لأصحاب القرآن وحملته من ملكات سنّية ، من التخشع والصلاة والصيام والوقار والهدوء والسكينة عند مواجهة الجهلة ، وكسر سؤرة الغضب وكظم الغيظ والعفو والإغضاء عن الخاطئ ، والحلم والتحمل والصبر ، وأعظم من هذا كله أنّ مقام النبوة كأنّه قد أُدرج بين جنبيهم ، يُضاف إلى ذلك إدراكهم ومعرفتهم حقيقة الأحكام والمعارف .

وجعل ذلك من شمائل الذين يجلسون في مقام الخضوع والتذلل أمام عزّة القرآن وشموخه ، فتكون حال قلوبهم في انعطافها واستعدادها سبباً لقبول تلقّي الآيات . أمّا الأفراد الذين ينتابهم الشعور بالعزّة أمام القرآن ، والذين يحسبون أنّ علومهم وكمالاتهم تمثّل شيئاً مقابل القرآن ، فلن يعود عليهم من القرآن شيء ، حيث من الواضح أنّ المراد بالذلة مقابل القرآن ، ليست الذلة الظاهرية في تقبيل القرآن واحترامه ، بل التسليم والذلة الباطنية الحاصلة بتسليم النفس واعتبارها أنّ علومها وكمالاتها ليست شيئاً أمام عظمة القرآن وكماله ، وهذا يحصل بانعطاف القلب واستعداده الذي

عن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : **أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ وَأَصْحَابُ اللَّيْلِ** («معاني الأخبار» ص ١٧٧) ، («الخصال» ج ١ ، ص ٧) و«أمالى الصدوق» ص ١٤١).

ويروي أيضاً عن «معاني الأخبار» و«الخصال» بسند متصل عن أبي سعيد الخدري ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : **حَمَلَةُ الْقُرْآنِ عُرْفَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ** . («معاني الأخبار» ص ٣٢٣) و«الخصال» ج ١ ، ص ١٦).

وروى المجلسي أيضاً عن «أمالى الشيخ الطوسي» بسند متصل ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : **لَا يُعَذَّبُ اللَّهُ قَلْباً وَعَى الْقُرْآنِ** . («أمالى الطوسي» ج ١ ، ص ٥).

ينتج القبول والتلقي ، كما أن انعطاف القلب ينشأ بدوره إثر تعظيم وتوقير القرآن وإجلاله .

يروى الكليني بسنده ، عن الزهري ، عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام قال :

سَأَلْتُهُ : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : الْحَالُ الْمُرْتَحِلُ .

قلت : وما الحال المرتحل ؟

قَالَ : فَتَحَ الْقُرْآنَ وَخَتَمَهُ ؛ كُلَّمَا جَاءَ بِأَوَّلِهِ ارْتَحَلَ فِي آخِرِهِ .
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ
فَرَأَى أَنَّ رَجُلًا أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ فَقَدْ صَغَرَ عَظِيمًا وَعَظَّمَ صَغِيرًا .^١
وقد أوردنا في هذه الأبحاث القرآنية في الجزء الأول^٢ رواية في

١- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦٠٥ . ونقل في الهامش عن «مرآة العقول» عن «النهاية» لابن الأثير : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : الْحَالُ الْمُرْتَحِلُ .

قالوا : وما الحال المرتحل ؟ قال : الْخَاتِمُ الْمُفْتِحُ ؛ هُوَ الَّذِي يَخْتِمُ الْقُرْآنَ بِتِلَاوَتِهِ ثُمَّ يَفْتَحُ التَّلَاوَةَ مِنْ أَوَّلِهِ .

شبه رسول الله قارئ القرآن بالمسافر الذي يبلغ المنزل فيحل فيه ثم يفتح سيره أي يبتدؤه . وقراء أهل مكة إذا ختموا القرآن ابتدأوا وقرأوا الفاتحة وخمس آيات من البقرة إلى هُم الْمُفْلِحُونَ ، وهو ما يدعى بِالْحَالِ الْمُرْتَحِلِ .

وأورد الفيض الكاشاني هذه الرواية في «المحجّة البيضاء» ج ٢ ، ص ٢١٠ ، عن «إحياء العلوم» للغزالي ، بهذه العبارة : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ رَأَى أَنَّ أَحَدًا أَوْ تِي أَفْضَلَ مِمَّا أُوتِيَ فَقَدْ اسْتَصَغَرَ مَا عَظَّمَهُ اللَّهُ . ويقول في الهامش : أخرج هذه الرواية البخاري والدارمي وابن ماجه والترمذي .

٢- انظر : «نور ملكوت القرآن» ج ١ ، البحث الأول ، القرآن هو الدليل إلى الدين والنظام الأفضل .

تفسير الآية المباركة: **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**؛^١ وبحثنا في مفهومها ومعناها، ونكتفي هنا بذكر كلام الزمخشري بهذا الشأن الذي أورده في تفسير ذيل الآية المباركة.

يقول هذا المفسر المتضلع في «الكشاف»:

العفو ضدّ الجهد، أي: أيها النبي خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم، وتسهّل من غير كلفة ولا تداقهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشقّ عليهم حتّى لا ينفروا، كقوله صلى الله عليه [وآله] وسلّم: **يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا**.

قال الشاعر:

خُذِي الْعَفْوَ مِثِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي

وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضِبُ

والعرف: المعروف والجميل من الأفعال، ومعنى **وأعرض عن الجاهلين**: ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عنهم وأغضّ على ما يسوؤك منهم.

وقيل: لما نزلت هذه الآية سأل رسول الله جبرئيل فقال: لا أدري حتّى أسأل، ثمّ رجع فقال:

يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ!

وعن جعفر الصادق: أمر الله نبيّه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.^٢

١- الآية ١٩٩، من السورة ٧: الأعراف.

٢- «تفسير الكشاف» ج ١، ص ٣٦٤، الطبعة الأولى، مصر، ونقل هذا المطلب ⇨

وقد أوردنا في هذا الجزء من الكتاب رواية عن ابن أبي الحديد ، عن ابن قتيبة ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، يروي الكليني في «الكافي» رواية تقاربها مضموناً عن الإمام الصادق عليه السلام ، وكانت بعض عباراتها :

مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرَاجَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ ؛ وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا.^١

ويُستفاد من هذه العبارة أنّ المؤمن العالم بالقرآن له نور ورشحات طيبة ، وهو عارف بطرق السير والسلوك ، وسبل الوصول إلى المعبود ، خبير بموانع وعقبات هذا الطريق وكيفية إزالتها وتخطيها والوصول إلى المقصود ، وهي الخصوصية التي عبّر عنها عليه السلام بالريح الطيب ، خلافاً للشخص الذي أوصله عمله وتلقيه عن الإمام والولي إلى مرحلة الإيمان فطابت روحه ، لكنّ افتقاده معرفة سبيل السير والسلوك وطريق الوصول ، وجهله كيفية رفع الموانع والأخطار والخواطر الشيطانية وكيفية التمييز بين النفحة الإلهية ونزعات إبليس ، قد أبقاه قاصراً عن أن يفيد شيئاً أو يُعطي شيئاً ، فهو لا يصلح - والحال هذه - لقيادة جماعة وهدايتهم إلى الله .

وحاصل الكلام أنّ وجود هذا الشخص لازم غير متعّد ، ومع أنّه جيّد

١- عن الزمخشري المقدّس الأردبيلي في «آيات الأحكام» ص ٤٣٩ . وينبغي العلم أنّ الزمخشري قد ذكر معني آخر للعبارة بعنوان القليل ، أعرضنا عن إيراده في المتن لضعفه . وهو بمعنى : خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم . وذلك قبل نزول آية الزكاة ، فلمّا نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعاً أو كرهاً .

١- «نور ملكوت القرآن» ج ٣ ، البحث الخامس .

وحسن إلا أنه في حدود نفسه هو لا يتعدّها ولا يرشح عنها إلى غيرها .
لذا ، عليه أن يتصفح القرآن ؛ وهو كتاب النفس البشريّة ؛ فيبحث
في صفاته كاملةً ، ويشخص جيّداً ما يُنجيه وما يُهلكه ، ويطلع بشكل تامّ
على جنود النفس الأمّارة وأتباع إبليس ، وعلى طريق التغلب عليها ،
وأسلوب تقوية تعديل وتقويم الغرائز الرحمانية والمواهب الإلهية .

القرآن هو في الأساس كتابٌ للتعليم والتربية ، وهو المنجي للبشريّة
من عالم البهيمية إلى أعلى مراتب السمو بمقام القُرب والإنسانية ، لذا فإنّ
العارف بالقرآن يمتاز بنوع من البصيرة والتربية التي يكون غيره فيها
محروماً منها ، من المؤمنين الذين لم يصلوا درجة اليقين والخلوص .

وعليه ، فقد عدّ أرباب السلوك وأساتذة مقام الطريقة أنّ العِلْمَ بأحكام
الشريعة والسنة المحمّدية من الشروط الحتمية للأستاذ والدليل ، وهو نفسه
العلم بالقرآن المتجلّي في الأحكام والسنة والولاية .

ولأنّ الله العليّ الأعلى يريد لجميع أفراد البشر أن يمتلكوا خصوصيّة
العرفان والتوحيد والمقامات الروحية والمعنوية ، فقد أمرهم جميعاً بقراءة
القرآن وتلاوته ، وبالتدبّر والتفكّر في الآيات الإلهية .

وقد ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : **أَفْضَلُ عِبَادَةٍ أُمَّتِي
قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ . وَعَنْهُ أَيْضاً : خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ .^١**

وينقل في «الكافي» بإسناده عن فضيل بن يسار ، عن الإمام الصادق
عليه السلام :

**قَالَ : مَا يَمْنَعُ التَّاجِرَ مِنْكُمْ الْمَشْغُولَ فِي سُوقِهِ إِذَا رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ أَنْ
لَا يَنَامَ حَتَّى يَقْرَأَ سُورَةَ الْقُرْآنِ فَتُكْتَبَ لَهُ مَكَانَ كُلِّ آيَةٍ يَقْرُؤُهَا عَشْرُ**

١- «المحجّة البيضاء» ج ٢ ، ص ٢١٠ ، نقلاً عن الغزالي برواية العامة.

حَسَنَاتٍ ، وَيُمَحِّي عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ .^١

ويروي في «الكافي» عن عبد الله بن فضل النوفليّ ، مرفوعاً ، قال : مَا قَرَأْتُ الْحَمْدَ عَلَيَّ وَجَعَ سَبْعِينَ مَرَّةً إِلَّا سَكَنَ .^٢

وورد في «الكافي» أيضاً ، عن معاوية بن عمّار ، عن الإمام الصادق عليه السلام قال : لَوْ قَرَأْتُ الْحَمْدَ عَلَيَّ مِئَتٍ سَبْعِينَ مَرَّةً ثُمَّ رُدَّتْ فِيهِ الرُّوحُ مَا كَانَ ذَلِكَ عَجَبًا .^٣

١- أورد القاضي القضاي في الشرح الفارسي «شهاب الأخبار» حول الكلمات القصار لخاتم الأنبياء ، ص ١١ ، برقم ٢٠٠ : الْقُرْآنُ هُوَ الدَّوَاءُ .

مصطفى گفت خواجه دو جهان هست هر درد را دوا قرآن

يقول : « قال المصطفى : القرآن سيّد العالمين ، دواء لكلّ داء » .

قيل : إنّ المصطفى عليه السلام قاله [القرآن هو الدواء] لأنّ قوماً من أصحابه كانوا في سفر فوصلوا في طريقهم إلى قبيلة من العرب فنزلوا عليهم واستضافوهم واستطعموهم فأبوا أن يطعموهم ، ثمّ جاءهم بعد ساعة أحد أفراد القبيلة فقال للأصحاب : لقد لدغت رئيسنا أفعى وهو يتضوّر الآن ألماً ، أفلديكم ما يشفيه ؟ فقال رجل منهم : أعرف رُقِيَةً تشفيه ، لكننا أضفناكم فلم تضيّفونا !

ردّ الرجل : من قدر على شفائه (أعطيناه قطيعاً من الأغنام جزاء عمله) . [يقول السيّد جلال الدين الأرمويّ المحدث في الهامش : العبارة بين القوسين من الكاتب ، وكانت قد مُحيت من أصل المتن] .

فنهض ذلك الصحابيّ وذهب عند اللديغ فقرأ سورة الفاتحة على جرحه ومسح بيده عليها فشفي على الفور وسكن ، فأعطوه أجره قطيعاً من الأغنام . فأراد جماعة من الأصحاب تقسيمها فمنعهم صاحب الرقية وقال : تعالوا نذهب إلى المصطفى عليه السلام فنعمل ما يُشير الرسول علينا . فذهبوا وقصّوا عليه الأمر ، فقال الرسول عليه السلام : اقسموها وأعطوني نصيبي منها . وهذا الخبر دليل على حليّة ما يؤخذ أجراً على التعليم .

٢- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦٢٣ .

٣- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦١٦ .

وكذلك يروي في «الكافي» بإسناده عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أن جابراً قال له : إنَّ قَوْمًا إِذَا ذَكَرُوا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ ؛ أَوْ حَدَّثُوا بِهِ صَعِقَ أَحَدُهُمْ حَتَّى يُرَى أَنَّ أَحَدَهُمْ لَوْ قُطِعَتْ يَدَاهُ أَوْ رِجْلَاهُ لَمْ يَشْعُرْ بِذَلِكَ !

فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ مَا بِهِذَا نُعْتُوا ! إِنَّمَا هُوَ اللَّيْنُ وَالرَّقَّةُ وَالْدَمْعَةُ وَالْوَجَلُ .^١

أي أن الله سبحانه لم يصف في قرآنه قراء القرآن بالصعقة ، إذا ما حصلت لديهم حالة كهذه فهي لا ريب ناشئة عن عدم التحمّل ، أي أن الشيطان غلب عليهم في تلك الحالة . ولقد وصف الله تعالى قراء كتابه بالعيون المغرورة بالدموع ، وبالدموع الجارية المنسكبة ، وبخشية الله وباللين والرقّة في القلب .

وفي كتاب «الكافي» رواية عن إسحاق بن عمّار ، قال : سمعتُ الإمام الصادق عليه السلام يقول : إنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صَلَّى بالناس ، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفراً لونه قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه .

فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ :

كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلَانُ ؟!

قَالَ : أَصْبَحْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُوقِنًا .

فَعَجِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ وَقَالَ : إِنَّ

لِكُلِّ يَقِينٍ حَقِيقَةٌ ؛ فَمَا حَقِيقَةُ يَقِينِكَ ؟!

فَقَالَ : إِنَّ يَقِينِي يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي أَحْزَنَنِي وَأَسْهَرَ لَيْلِي وَأَظْمَأَ

١- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦١٧ .

هُوَ اجْرِي ؛ فَعَزَفْتُ^١ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي
وَقَدْ نَصَبَ لِلْحِسَابِ وَحُسْرِ الْخَلَائِقِ لِدَلِكِ وَأَنَا فِيهِمْ .

وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ فِي الْجَنَّةِ وَيَتَعَارَفُونَ عَلَيَّ
الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ .

وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ مُصْطَرِحُونَ . وَكَأَنِّي
الآن أَسْمَعُ زَفِيرَ النَّارِ يَدُورُ فِي مَسَامِعِي .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ
بِالْإِيمَانِ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : اِلْزَمْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ !

فَقَالَ الشَّابُّ : ادْعُ اللَّهَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أُرْزَقَ الشَّهَادَةَ مَعَكَ .
فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ فِي
بَعْضِ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَشْهِدَ بَعْدَ تِسْعَةِ نَفَرٍ ؛
وَكَانَ هُوَ الْعَاشِرَ .^٢

وأوردوا في بعض الروايات أن اسم هذا الشاب كان زيداً؛^٣ يقول

الملا الرومي في «المنثوي» :

گفت پیغمبر صباحی زید را

كَيْفَ أَصْبَحْتَ اى رفيق با صفاً

١- عَزَفْتُ نَفْسُهُ عَنِ الشَّيْءِ : زَهَدْتُ فِيهِ ؛ وَعَزَفَ نَفْسُهُ عَنْ كَذَا : مَنَعَهَا عَنْهُ .

٢- «سفينه البحار» ج ٢ ، ص ٧٣٣ .

٣- ورد اسمه في روايات الخاصّة : الحارثة بن مالك بن النعمان («معاني الأخبار»
ص ١٨٧) و«المحاسن» للبرقيّ ، ج ١ ، ص ٢٤٦ ، لكنّ الملا الروميّ أوردّه في «المنثوي»
باسم زيد .

٤- «منثوي معنوي» آخر الجزء الأول ، ص ٩٢ ، طبعة ميرخاني .

يقول : «قال النبيّ لزيد ذات صباح : كيف أصبحت يا صاحبي ذا الصفاء؟» .

گفت : عَبْدًا مُؤْمِنًا باز او ش گفتم

کو نشان از باغ و ایمان گر شگفتم؟^۱

حتی یصل إلى قوله :

جمله را چون روز رستاخیز من

فاش می بینم عیان از مرد و زن

هین بگویم یا فرو بندم نفس

لب گزیدش مصطفی یعنی که بس^۲

هؤلاء كانوا المسلمين المؤمنين الموقنين حقاً ، الذين يتكلمون مع الله سبحانه ، وتستقر آيات القرآن في أرواحهم باعتبارها كلام الله ، هؤلاء الذين يتردد في بواطنهم وضمائرهم آلاف المناجاة وعرض الحاجات والمكالمة ويسمع فيها الأزيز والهدير .

روى المحدث الكاشاني عن الإمام الصادق عليه السلام : إذا مرَّ القارئ بـ «يَأْتِيهَا النَّاسُ» ، «يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا» قال : لَيْتَكَ رَبَّنَا .
وإذا ختم سورة وَالشَّمْسِ ، قال : صَدَقَ اللَّهُ وَصَدَقَ رَسُولُهُ .
وإذا قرأ : ءَ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ، قال : اللَّهُ خَيْرٌ ، اللَّهُ أَكْبَرُ .
وإذا قرأ : ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، قال : كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِاللَّهِ .
وإذا قرأ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، كَبَّرَ ثَلَاثًا .

۱- يقول : «قال : عبدًا مؤمنًا ، فأعاد السؤال : وأين علامة الإيمان إن تفتحت روضه

لديك؟» .

۲- يقول : «أرى الجميع عياناً كيوم القيامة ، الرجال والنساء .

أفأتكلم أم أصمت ؟ فعضَّ المصطفى شفته مُشيراً أن : كفى» .

وإذا فرغ من الإخلاص ، قال : كَذَلِكَ اللَّهُ رَبِّي .
وروي عند قوله تعالى : «فَمَنْ يَأْتِكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ» : اللَّهُ رَبُّنَا .
وعند قوله : «ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ» : بَلْ أَنْتَ اللَّهُ
الْخَالِقُ .

وعند قوله : «أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى» : سبحانك ،
بلى .

وعند : «أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ» : بَلْ أَنْتَ اللَّهُ الزَّارِعُ .
وعند : «أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِبُونَ» : بَلْ أَنْتَ اللَّهُ الْمُنْشِئُ .
وعند قوله عز وجل : «فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» : لَا بِشَيْءٍ مِنْ
الْآيَاتِ رَبِّ أَكْذُوبُ .

والظاهر انسحابه إلى كل ما يناسب .^١

ونقل أيضاً المحدث الكاشاني عن «إحياء العلوم» أن حذيفة قال :
صليتُ مع رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم فابتدأ سورة البقرة
وكان لا يمرّ بآية عذاب إلا استعاذ ، ولا بآية رحمة إلا سأل ، ولا بآية تنزيه
إلا سبح ، فإذا فرغ قال ما كان يقوله صلوات الله عليه عند ختم القرآن :
اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي بِالْقُرْآنِ ، وَاجْعَلْهُ لِي إِمَامًا وَنُورًا وَهُدًى وَرَحْمَةً .
اللَّهُمَّ ذَكِّرْنِي مِنْهُ مَا نَسِيتُ ، وَعَلِّمْنِي مِنْهُ مَا جَهَلْتُ ، وَارْزُقْنِي تِلَاوَتَهُ
أَنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَاجْعَلْهُ حُجَّةً لِي يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ .^٢

وقال أيضاً : في القرآن خمس عشرة سجدة ، أربع منها واجبة تسمى
العزائم والبواقي مستحبة . وفي سورة الحجّ سجدتان . وأقله أن يسجد

١- «المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء» ج ٢ ، ص ٢٢٨ و ٢٢٩ .

٢- «المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء» ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

بوضع جبهته على الأرض ، وأكمله أن يراعي شرائط سجود الصلاة من ستر العورة ، واستقبال القبلة ، وطهارة الثوب والبدن من الخبث والحدث ، وأن يكبّر ويسجد على الأعضاء السبعة ، ويدعو في سجوده ويكبّر عند الرفع منه .

ووقته عند التلّفظ بموجبه ،^١ وهو فوري ولا يسقط بالتأخير ؛ وفي الصحيح ، عن الإمام الصادق عليه السلام :
 إِنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَقْرَأُ السَّجْدَةَ فَيَنْسَاهَا حَتَّى يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ؟ قَالَ :
 يَسْجُدُ إِذَا ذَكَرَ ، إِذَا كَانَتْ مِنَ الْعَزَائِمِ .^٢
 والسور الأربع التي قلنا إنّ فيها سجدة واجبة ، والتي تدعى بالعزائم^٣ هي :

١- أَلَمْ السَّجْدَةَ : السورة الثانية والثلاثون ، والآية هي الرابعة عشرة :
 إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .
 ٢- حَمَّ فَصَّلَتْ : السورة الحادية والأربعون ، والآية هي السابعة

١- فهناك مثلاً في سورة الإسراء آية فيها سجدة واجبة ، وهي الآية ١٠٧ : قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ؛ ولكن باعتبار أنّ الآيتين التاليتين معطوفتان على هذه الآية ، وباعتبار أنّ تمامية الكلام بإتمام الجملة المعطوفة ، لذا ينبغي قراءة هاتين الآيتين أيضاً : وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ، ثم يسجد بعد ذلك .

٢- «المحجة البيضاء» ج ٢ ، ص ٢٢٦ و ٢٢٧ .

٣- أورد في «الخصال» للصدوق ، ج ١ ، ص ٢٥٢ ، بسنده المتصل عن الإمام الصادق عليه السلام : إِنَّ الْعَزَائِمَ أَرْبَعٌ : إِقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، وَالَّذِي خَلَقَ ، وَتَنْزِيلِ السَّجْدَةِ ، وَحَمَّ السَّجْدَةَ .

والثلاثون :

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

٣- وَالنَّجْمِ : السورة الثالثة والخمسون ، والآية هي الثانية والستون :
فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا .

٤- العلق : السورة السادسة والتسعون ، والآية هي التاسعة عشرة :
كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب .١

١- وأما الآيات التي فيها سجود مستحب ، فهي إحدى عشرة سورة :

الأولى : آخر السورة ٧ : الأعراف : إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَيَسْبِغُونَ لَهُمْ مَاءً وَيَسْجُدُونَ .

الثانية : الآية ١٥ ، من السورة ١٣ : الرعد : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلِّلَهُمْ بِالغُدُوِّ وَالْآصَالِ .

الثالثة : الآية ٤٩ ، من السورة ١٦ : النحل : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .

الرابعة : الآية ١٠٧ ، من السورة ١٧ : الإسراء : قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا .

الخامسة : الآية ٥٨ ، من السورة ١٩ : مريم : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّسِيبِ
مِنْ ذُرِّيَةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا
تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا .

السادسة : الآية ١٨ ، من السورة ٢٢ : الحج : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

السابعة : الآية ٧٧ ، من السورة ٢٢ : الحج : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا
وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

الثامنة : الآية ٦٠ ، من السورة ٢٥ : الفرقان : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا

وليس هناك في هذه السجدة ذكر خاص، والأفضل أن يقال:
 لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَقًّا حَقًّا، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِيْمَانًا وَتَصَدِيقًا، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
 عِبُودِيَّةً وَرِقًّا؛ سَجَدْتُ لَكَ يَا رَبِّ تَعْبُدًا وَرِقًّا لَا مُسْتَنْكِفًا وَلَا مُسْتَكْبِرًا،
 بَلْ أَنَا عَبْدٌ ذَلِيلٌ خَائِفٌ مُسْتَجِيرٌ.

وينبغي العلم أنّ سجدة التلاوة هذه التي يأتي بها الإنسان في صلاته
 لا توجب بُطلانها، لأنّها من الزيادات التي ورد النصّ على جوازها، سواء
 كانت في الفريضة أم في النافلة، وسواء كانت من سجّدات سور العزائم أم
 من السجّدات المستحبّة.

وهي مسألة ذات لطافة عجيبة، خاصّة في صلاة الليل حين تُتلى هذه
 السور والآيات، فيهوي المصلّي فجأة إلى التراب فيسجد، ثمّ ينهض
 فيستمرّ في صلاته من حيث قطعها.

وهكذا كان يفعل خواصّ أصحاب رسول الله وحواريّو أمير
 المؤمنين وسيد الشهداء عليهم السلام، فقد كانوا أولاً يُكثرون من تلاوة
 القرآن في صلاتهم ويتلونه بحزن ولحن حسن، وثانياً كان يُشاهد منهم
 نظير هذه المكالمات والمخاطبات مع الحقّ جلّ سبحانه، ونظير هذه

﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا.﴾

التاسعة: الآية ٢٥، من السورة ٢٧: النمل: أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ.

العاشرة: الآية ٢٤، من السورة ٣٨: ص: قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ
 وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
 مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ.

الحادية عشرة: الآية ٢١: من السورة ٨٤: الانشقاق: وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ
 لَا يَسْجُدُونَ.

السجديات في أعلى الدرجات الروحية ؛ ولا يعلم إلا الله سبحانه ما كان في سرائرهم وأعماقهم من العلاقة والرابطة مع الله تعالى .

أولئك الذين رفعوا راية الإسلام بهذا الإيمان واليقين والثروات الباطنية وعزة النفس والجهاد والمجاهدة في سبيل الله تعالى . وفي الحقيقة فإنّ الإنسان لا يمكنه النفاذ إلى عمق المسألة وتصور عظمة وشموخ هذه النفوس الزكية المرضية التالية للقرآن والحاملة له كما ينبغي تصوورها .

ولقد سمعنا قصّة عمّار بن ياسر حامل القرآن وهو الشيخ ابن الرابعة والتسعين ، وكيف كان يدور في عشقه وولفه كالفراشة حول وهج شمع جمال أمير المؤمنين عليه السلام ونوره ، وكيف هوى بدنه إلى الأرض صريعاً بسيف أعداء الحق .

ولقد كان حبيب بن مظاهر الأسدي الكوفيّ الشيخ الكبير المتداعي ، قارئ القرآن وفقهه أهل البيت ، وحين سقط على الأرض في معركة كربلاء في سبيل إعلاء القرآن ، قال الإمام الحسين عليه السلام :

لِلَّهِ دَرْكٌ يَا حَبِيبُ ! لَقَدْ كُنْتَ فَاضِلاً تَخْتَمُ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ .^١
ولقد كان هؤلاء بلا شك من واجدي بعض المراتب القرآنية العالية ، ومن الذين لمسوا حقائقه .

قال سيّد الشهداء الحسين عليه السلام : كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْيَاءٍ : عَلَى الْعِبَارَةِ وَالْإِشَارَةِ وَاللِّطَائِفِ وَالْحَقَائِقِ ؛ فَالْعِبَارَةُ لِلْعَوَامِّ وَالْإِشَارَةُ لِلْخَوَاصِّ وَاللِّطَائِفِ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالْحَقَائِقُ لِلْأَنْبِيَاءِ .^٢

ويروي محمّد بن يعقوب الكليني في «الكافي» بإسناده عن الإمام

١- «منتهى الآمال» ج ١ ، ص ٢٦٣ .

٢- «جامع الأخبار» ص ٤٨ ، الباب ٢١ .

محمد الباقر عليه السلام أنه قال: مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدَّعِيَنَّ أَنْ عِنْدَهُ جَمِيعُ الْقُرْآنِ كُلِّهِ ، ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ ، غَيْرُ الْأَوْصِيَاءِ .^١

وهم [الأوصياء] أمير المؤمنين وأولاده الأحد عشر الذين تحمّلوا مقام الوصيّة ، وكانوا حُماة القرآن وحرّاسه واحداً بعد واحد ، إلى الإمام صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف .

وأورد كذلك في «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية المباركة: بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: ^٢ هم الأنمة (الطاهرين) .

ووردت رواية في «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام قال: نَحْنُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ؛ وَنَحْنُ نَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ .^٣

وفي «الكافي» أيضاً رواية عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال: إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ وَلايَتَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ قُطْبَ الْقُرْآنِ وَقُطْبَ جَمِيعِ الْكُتُبِ ، عَلَيْهَا يَسْتَدِيرُ مُحْكَمُ الْقُرْآنِ ، وَبِهَا نَوَّهَتِ الْكُتُبُ ؛ وَيَسْتَبِينُ الْإِيْمَانُ .

وَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُقْتَدَى بِالْقُرْآنِ وَآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَذَلِكَ حَيْثُ قَالَ فِي آخِرِ خُطْبَةٍ خُطِبَهَا: إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ: الثَّقَلَ الْأَكْبَرَ وَالثَّقَلَ الْأَصْغَرَ .

فَأَمَّا الْأَكْبَرُ فَكِتَابُ اللَّهِ ، وَأَمَّا الْأَصْغَرُ فَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي ، فَاحْفَظُونِي فِيهِمَا فَلَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا .^٤

١- «تفسير الصافي» المقدمة الثانية ، ج ١ ، ص ١٢ ، نقلاً عن «الكافي» .

٢- الآية ٤٩ ، من السورة ٢٩: العنكبوت .

٣- ٤- المقدمة الثانية لـ«تفسير الصافي» ج ١ ، ص ١٢ ، طبعة الأوفسيت ، نقلاً عن

كتاب «الكافي» .

وهذه الحقيقة تستند إلى علم الأئمة الأطهار سلام الله عليهم أجمعين بحقائق القرآن ، ولورود أنفسهم الشريفة في عوالم الذات والصفات والأسماء وكيفية نزول الملائكة والتقدير والتدبيرات في عوالم الكثرة على يدهم ، وللمسهم هذه المعاني عياناً .

ولهذا فهم حقيقة القرآن . كما يحدث في كتاب «الأمالي» الشيخ الطوسي عن أم سلمة أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إِنَّ عَلِيًّا مَعَ الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنَ مَعَ عَلِيٍّ . لَا يَفْتَرِقَانِ حَتَّى يَرِدَا عَلِيَّ الْحَوْضِ .^١

ويتضح مما قيل معنى الأخبار الدالة على ورود جميع القرآن فيهم وفي أعدائهم .

وفي الفرائض والسنن ، كما نقل في «الكافي» بإسناده عن الأصعب بن نباتة قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول :

نَزَلَ الْقُرْآنُ أَثَلَاثًا : ثُلُثٌ فِيْنَا وَفِي عَدُوْنَا ، وَثُلُثٌ سُنَنٌ وَأَمْثَالٌ ؛ وَثُلُثٌ فَرَائِضٌ وَأَحْكَامٌ .^٢

١- «سفينة البحار» ج ٢ ، ص ٤١٤ . ويقول في هامش كتاب «الشيعة في الإسلام» للعلامة الطباطبائي قدس الله سره بعد نقل هذا الحديث : وقد نُقلت هذه الرواية بـ(١٥) طريق من العامة و(١١) طريق من الخاصة ، ومن رواها أم سلمة وابن عباس وأبو بكر وعائشة وعلي عليه السلام وأبو سعيد الخدري وأبو يعلى وأبو أيوب الأنصاري («غاية المرام» للبحراني ، ص ٥٣٩ و ٥٤٠).

٢- «تفسير الصافي» المقدمة الثالثة ، ج ١ ، ص ١٤ ، نقلاً عن «الكافي» . ويقول في «ينابيع المودة» ص ١٢٦ ، طبعة إسلامبول : ورد في كتاب «المناقب» عن الأصعب بن نباتة ، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْبَاعٍ : رُبُعٌ فِيْنَا ، وَرُبُعٌ فِي عَدُوْنَا ، وَرُبُعٌ سُنَنٌ وَأَمْثَالٌ ، وَرُبُعٌ فَرَائِضٌ وَأَحْكَامٌ . وَلَنَا كَرَامَتُ الْقُرْآنِ . وقد ذكر هذه الرواية الأخيرة الفيض في المقدمة الثالثة من «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ١٤ ، طبعة الأوفيسيت ، عن العياشي.

والمعنيّ به تأويلات القرآن التي نزلت في تلك الذوات المقدّسة لأهل البيت وفي أعداء أهل البيت الذين هم في الحقيقة أعداء الحقّ وخصوم الإيمان والإسلام .

وهذا المعنى يُستحصل حتماً عن طريق التأويل ، ودرك حقائق القرآن ، وإرجاع ظواهر القرآن إلى بواطنها .

وهناك في هذا الشأن روايات جمّة ، حتّى أنّ جماعة من الأصحاب صنّفوا كتباً في تأويل القرآن جمعوا فيها الأحاديث التي وردت عن الأئمة عليهم السلام في تأويل آية آية ، أمّا بهم عليهم السلام أو بشيعتهم ، أو بعدوّهم ، على ترتيب سور القرآن وآياته .

يقول العلامة المحدث الفيض الكاشانيّ أعلى الله مرتبته : وقد رأيتُ منها كتاباً كان يقرب من عشرين ألف بيت ؛^١ ونبين عدّة موارد منها لتتضح حقيقة الأمر .

فقد روى الكلينيّ في كتاب «الكافي» عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام في قوله تعالى :

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ^٢ .

قال : هِيَ الْوَلَايَةُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^٣ .

وفي «تفسير العياشي» أيضاً ، عن عمر بن حنظلة ، عن الإمام الصادق عليه السلام ، يقول ابن حنظلة : سألتُه عن الآية :

١- «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ١٤ ، المقدّمة الثالثة .

٢- الآيات ١٩٣ إلى ١٩٥ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

٣- «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ١٤ .

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ .^١
 قَالَ : فَلَمَّا رَأَىٰ أَتَّبِعْ هَذَا وَأَشْبَاهَهُ مِنَ الْكِتَابِ ، قَالَ : حَسْبُكَ ، كُلُّ
 شَيْءٍ فِي الْكِتَابِ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ مِثْلُ هَذَا فَهُوَ فِي الْأُمَّةِ ، عُنُوا
 بِهِ .^٢

وفي «تفسير العياشي» رواية عن محمد بن مسلم عن الإمام محمد
 الباقر عليه السلام : قَالَ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ ذَكَرَ قَوْمًا مِنْ هَذِهِ
 الْأُمَّةِ بِخَيْرٍ فَنَحْنُ هُمْ ؛ وَإِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ ذَكَرَ قَوْمًا بِسُوءٍ مِمَّنْ مَضَىٰ فَهُمْ
 عَدُوْنَا .^٣

وروى الشيخ الطبرسي عن ابن عباس : لما نزلت الآية المباركة :
 إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .^٤
 قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أَنَا الْمُنذِرُ ، وَعَلِيٌّ الْهَادِي
 مَنْ بَعْدِي . يَا عَلِيُّ ! بِكَ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ .^٥
 وعن أبي القاسم الحسكاني في كتاب «شواهد التنزيل» بإسناده عن
 إبراهيم بن حكم بن ظهير ، عن أبيه ، عن أبي بردة [برزة] الأسلمي قال :
 دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وآله] وَسَلَّم بِالطُّهُورِ وَعِنْدَهُ عَلِيُّ بْنُ
 أَبِي طَالِبٍ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ بِيَدِ عَلِيٍّ بَعْدَمَا تَطَهَّرَ فَأَلْزَمَهَا بِصَدْرِهِ ، ثُمَّ
 قَالَ : «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ» ؛ ثُمَّ رَدَّهَا إِلَىٰ صَدْرِ عَلِيٍّ ، ثُمَّ قَالَ : «وَلِكُلِّ قَوْمٍ
 هَادٍ» .

١- الآية ٤٣ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٢- «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ١٤ و ١٥ .

٣- «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ١٤ ، المقدمة الثالثة .

٤- الآية ٧ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٥- تفسير «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٢٧٨ ، طبعة صيدا .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّكَ مَنَارَةُ الْأَنَامِ وَعَاقِبَةُ الْهُدَى وَأَمِيرُ الْقُرَى ! وَأَشْهَدُ عَلَيَّ ذَلِكَ أَنَّكَ كَذَلِكَ .^١

وفي «تفسير الصافي» رواية في تفسير الآية المباركة : آهَدْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ عن كتاب «معاني الأخبار» للشيخ الصدوق ، عن الإمام الصادق عليه السلام قال :

هِيَ الطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ ؛ وَهُمَا صِرَاطَانِ : صِرَاطٌ فِي الدُّنْيَا وَصِرَاطٌ فِي الْآخِرَةِ .

فَأَمَّا الصِّرَاطُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ الْإِمَامُ الْمُفْتَرَضُ الطَّاعَةَ ، مَنْ عَرَفَهُ فِي الدُّنْيَا وَاقْتَدَى بِهِدَاهُ ، مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ الَّذِي هُوَ جِسْرُ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ ؛ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فِي الدُّنْيَا زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنِ الصِّرَاطِ فِي الْآخِرَةِ ؛ فَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ .^٢

وبهذا يستبين بوضوح مفهوم ومراد الأحاديث التي تقول بأن الصراط في الآية السابقة هو صراط علي بن أبي طالب ، أو نفسه المقدسة ، أو إن الأئمة هم الصراط المستقيم .

وقد ورد في رواية أخرى : نَحْنُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ .^٣

وفي بعض الأحاديث : هُوَ صِرَاطُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .^٤

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام : إِنَّ الصِّرَاطَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .^٥

ولهذه الرواية معنىً دقيق وعجيب ، فهي لا تقول بأن الصراط هو صراط أمير المؤمنين عليه السلام ، بل تقول إن الصراط أمير المؤمنين ،

١- «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٢٧٨ ، طبعة صيدا .

٢ إلى ٥- «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ٥٤ ، تفسير سورة الحمد .

أي أن نفسه المقدسة وأفعاله وأقواله هي نفس الصراط .
وفي «تفسير علي بن إبراهيم» رواية عن الإمام الرضا عليه السلام في
تفسير الآية المباركة : وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ،^١ قال :
السَّمَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ، رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ؛ وَالْمِيزَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا ، نَصَبَهُ لِيَخْلُقَهُ .

قِيلَ : «أَلَا تَطْعَمُوا فِي الْمِيزَانِ»؟! قَالَ : لَا تَعْصُوا الْإِمَامَ !
قِيلَ : «وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ»؟! قَالَ : لَا تَبْخُسُوا الْإِمَامَ حَقَّهُ
وَلَا تَظْلِمُوهُ!^٢

وفي «الكافي» و«معاني الأخبار» رواية في تفسير الآية المباركة :
وَنَضَعَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا؛^٣ عن الإمام
الصادق عليه السلام ، أنه سئل عنها ، فقال : هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْصِيَاءُ.^٤
وفي رواية أخرى : نَحْنُ الْمَوَازِينُ الْقِسْطُ.^٥

وعن الإمام الصادق عليه السلام رواية في معنى الصِّراط ، قال : إِنَّ
الصُّورَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ هِيَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ وَالْحِسْرُ الْمَمْدُودُ بَيْنَ
الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.^٦

ويتضح من هذين المعنيين اللذين أوردناهما في تفسير الصِّراط
والميزان ، حقيقة معنى التأويل في جميع الآيات التي أولت فيهم وفي
أعدائهم . وعليه ، فيلزم أولاً التأويل الحتمي في الآيات ، لأن التأويل هو

١- الآية ٧ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٢- «تفسير الصافي» ج ٢ ، ص ٦٣٩ .

٣- الآية ٤٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٤ و ٥ - «تفسير الصافي» ج ٢ ، ص ٩٤ .

٦- «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ٥٥ .

مرجع ومفاد المعنى الظاهريّ ، وبدونه لا يُدرك المعنى والمراد بالآية .
 وثانياً : تحفظ الآيات به عموميتها وكليتها وشموليتها ، لتشمل كل
 ما فيه من شائبة في المعنى المؤوّل ، وبهذا اللحاظ فلم يُصرّح باسم معين
 في آيات القرآن الكريم .
 وصار جليّاً بهذا البيان كيف أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو حقيقة
 القرآن .

ولكم أجاد الشيخ كاظم الأُزريّ في إنشاده قصيدته الألفيّة ،
 رضوان الله الملك المتعال عليه :

يَابْنَ عَمِّ الْمُصْطَفَى أَنْتَ يَدُ اللَّهِ الَّتِي عَمَّ كُلَّ شَيْءٍ نَدَاهَا
 أَنْتَ قُرْآنُهُ الْقَدِيمُ وَأَوْصَا فُكَّ آيَاتُهُ الَّتِي أَوْحَاهَا
 حَسْبُكَ اللَّهُ فِي مَا ثَرَّ شَتَّى هِيَ مِثْلُ الْأَعْدَادِ لَا تَتَنَاهَى
 إلى أن يقول :

أَنْتَ بَعْدَ النَّبِيِّ خَيْرُ الْبَرَايَا
 وَالسَّمَا خَيْرُ مَا بِهَا قَمَرَاهَا
 لَكَ ذَاتُ كَذَاتِهِ حَيْثُ لَوْلَا
 أَنْهَا مِثْلُهَا لَمَا آخَاهَا
 قَدْ تَرَاضَعْتُمَا بِثَدْيٍ وَصَالٍ
 كَانَ مِنْ جَوْهَرِ التَّجَلِّيِ غِذَاهَا
 يَا عَلِيَّ الْمِقْدَارُ حَسْبُكَ لَا
 هُوَيْتِيَّةٌ لَا يُحَاطُ فِي عَلَيْهَا
 أَيُّ قُدْسٍ إِلَيْهِ طَبَعَكَ يَنْمَى
 وَالْمَرَاقِي الْمُقَدَّسَاتُ ارْتَقَاهَا

لَكَ نَفْسٌ مِنْ جَوْهَرِ اللَّطْفِ صِيغَتْ
 جَعَلَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ فِدَاهَا
 هِيَ قُطْبُ الْمَكُونَاتِ وَلَوْلَا
 هَا لَمَا دَارَتْ الرَّحَى لَوْلَاهَا
 لَكَ كَفٌّ مِنْ أَبْحُرِ اللَّهِ تَجْرِي
 أَنْهَرُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ جَدْوَاهَا
 حُزَّتْ مُلْكًا مِنَ الْمَعَالِي مُحِيطًا
 بِأَقَالِيمَ يَسْتَحِيلُ انْتِهَاهَا

إلى قوله :

يَا أَخَا الْمُصْطَفَى لَدَيَّ ذُنُوبٌ
 هِيَ عَيْنُ الْقَذَى وَأَنْتَ جَلَاهَا
 كَيْفَ تَخْشَى الْعَصَاةَ بَلْوَى الْمَعَاصِي
 وَبِكَ اللَّهُ مُنْقِذٌ مُبْتَلَاهَا
 لَكَ فِي مُرْتَقَى الْعُلَى وَالْمَعَالِي
 دَرَجَاتٌ لَا يُرْتَقَى أَدْنَاهَا^١

١- «ديوان الأزرّي» المطبوع مع تخميسه ، ص ١٥١ .

وقد أوردنا قدراً من هذه الأبيات في سلسلة «معرفة المعاد» ج ٧ ، المجلس ٥٠ ، وذكرنا في هامشه أنّ الشيخ كاظم الأزرّي التميمي البغدادي المتوفى في غرة جمادى الأولى سنة ١٢١١ هـ.ق هو من شعراء أهل البيت عليهم السلام ومادحيهم ، ويكفي في جلالته شعره وبلاغته قصيدته الهائية

* لمن الشمس في قباب قباها *

لتضعه في مصاف شعراء أهل البيت من الطراز الأوّل ، حُكي أنّ العلامة بحر العلوم كان يجعله ويعظّمه كثيراً لمناظراته الجيدة مع الخصوم.

إنّ المراد بتأويل القرآن ليس المعنى البعيد المنفصل الذي يحتاج الإتيان به وتحصيله للتكلف والتعسف ، بل هو المعنى الحقيقيّ الواضح الذي يشير إلى المتن والحقيقة . فالمراد مثلاً من أولو الأمر في الآية المباركة : **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ** ،^١ هم أئمة أهل البيت ؛ وهذا المعنى والمراد يختصّ بهم عليهم السلام ، وهو ما يُستنتج من لحن الآيات ومن ضمّ بعض الآيات إلى بعضها .

أمّا أولئك الذين غصبوا الخلافة فلم يشاءوا القبول بهذا المعنى ، لتضادّه وتعارضه الكامل مع خطّ سيرهم ومشيههم ، وقد صرّحوا لهذا بأنّ القرآن يجب ألاّ يُؤوّل للناس ، وأنّه ينبغي ألاّ يُفسّر أو تُبيّن حقائقه وأهدافه ، من أجل أن يبقى الناس يتخبّطون في دياجير عماهم وضلاتهم ، فيستطيع هؤلاء الوصول إلى أهدافهم ومقاصدهم في التسلّط عليهم . وعليه فقد منعوا الناس بقوة وحزم من تفسير القرآن وبيان سبب نزوله وإيضاح مصاديق آياته .

ولقد نظرت الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في شأن

﴿ وروي عن المرحوم آية الله السيّد حسن الصدر أنّه قال : إنّ القصيدة الهائيّة الأُزريّة كانت تزيد على ألف بيت ، وكان قد كتبها في طومار فأنت الأرضة على بعضها ووقع باقي الطومار بيد المرحوم آية الله السيّد صدر الدين العاملي ؛ فاستخرج منه هذه الأبيات التي خمّسها الشيخ جابر الكاظمي .

وقال صاحب «مستدرك الوسائل» في كتاب «شاخه طوبى» : كان العلامة المحقّق الشيخ محمّد حسن صاحب «الجواهر» يتمنّى لو أنّ القصيدة الهائيّة الأُزريّة دُوّنت في صحيفة أعماله وأنّ كتاب «الجواهر» دُوّن في صحيفة أعمال الشيخ الأُزريّ (ملخصاً عن «الكنى والألقاب» ج ٢ ، ص ١٩ ، طبعة صيدا).

١- الآية ٥٩ ، من السورة ٤ : النساء : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ** .

تحريف القرآن إلى هذا المعنى ، ففي الرسالة التي كتبها الإمام محمد الباقر عليه السلام إلى سعد الخير والتي ذكرها الشيخ الكليني ، يقول في جملتها :
 وَكَانَ مِنْ نَبَذِهِمُ الْكِتَابَ أَنْ أَقَامُوا حُرُوفَهُ وَحَرَفُوا حُدُودَهُ . فَهُمْ
 يَزُؤُونَهُ وَلَا يَرْعُونَهُ . وَالْجُهَالُ يُعْجِبُهُمْ حِفْظُهُمْ لِلرَّوَايَةِ وَالْعُلَمَاءُ يُخْزِنُهُمْ
 تَرْكُهُمْ لِلرَّعَايَةِ - الحديث .^١

وتبين هذه الرواية بوضوح أنّ المقصود بالتحريف هو التحريف بالحدود لا التحريف بالحروف ، والتحريف في الرعاية لا في الرواية .
 لقد كان بنو أمية - الذين تسلطوا على الحكم - هم أولئك المشركين أنفسهم ، وكان معاوية هو نفسه الذي وقف بوجه رسول الله في حرب بدر وأحد والأحزاب ، لكنّه تستر الآن بلباس الإسلام وظاهره ، وعقد العزم في الباطن على هدم الإسلام ، فكان يقاتل حقيقة النبوة والقرآن المتجلى في الولاية ، وكان يقول : لا تفسروا القرآن .

إنّ التفسير بيان معنى القرآن ، فإن لم يتضح معنى القرآن فما الذي سيفهمه الناس ثرى؟! ، كما أنّ الإمام هو التحقق الخارجي للقرآن ، والإمام هو معلّم القرآن ، فما الفائدة من قرآن بلا إمام ومعلّم؟! .

القرآن بلا إمام ومعلّم مدركٍ ومحيط بأسراره ودقائقه ، ليس إلاّ صفرًا ، ذلك لأنّ الدين قائم على أساس من البصيرة والعمل ، فكيف يمكن للإنسان بلا إمام أن يعمل بالقرآن ؟ تمامًا كوصفة دواء تأخذها من طبيب ، فيفسرها كلّ على ذوقه بدواء خاصّ وكيفية معينة ، فهو عين الهلاك والفناء .

لقد قال النبي : إني تاركٌ فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ، ولنن

١- «روضة الكافي» ص ٨٢ .

يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ ١.

فالإمام لا ينفك عن القرآن أساساً ، كما أن القرآن لا ينفك عن الإمام ، ومن قال : كَفَانَا كِتَابُ اللَّهِ ، لم يرم إلا إلى نفي كتاب الله ونقضه ،

١- أورد في «غاية المرام» ص ٢١١ ، عن طريق العامة تسعة وثلاثين حديثاً ، وعن طرق الخاصة اثنين وثمانين حديثاً . ويعدّ هذا الحديث من الروايات المتواترة عند الشيعة والعامة ، حيث يقرّ العامة أيضاً بتواتره . وهو من أهمّ وأوثق وثائق الشيعة في احتجاجهم على العامة ، وله دلالة على غاصبيّة الخلفاء الأوائل .

ينقل أحمد بن حنبل عن زيد بن ثابت بطريقتين صحيحين ، الأول في بداية ص ١٨٢ ، والثاني في نهاية ص ١٨٩ ، من الجزء الخامس من مسنده :

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّلَثَيْنِ : كِتَابَ اللَّهِ وَأَهْلَ بَيْتِي ، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ جَمِيعاً .

وكذلك نقله أحمد في مسنده والطبراني في «المعجم الكبير» ، وفي «كنز العمال» ج ١ ، ص ٤٧ و ٤٨ ، بهذه الكيفية : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ خَلِيفَتَيْنِ : كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، حَبْلٌ مَمْدُودٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَعِثْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي ؛ وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ .

ويقول السيوطي في «الدرّ المثور» ج ٦ ، ص ٧ : أخرج الترمذي هذا الحديث وحسنه .

وذكره أيضاً ابن الأنباري في «المصاحف» عن زيد بن أرقم ، بهذه العبارة : قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي ، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ : كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَعِثْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي ، وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ : فَانظُرُوا كَيْفَ تُخْلِفُونِي فِيهِمَا .

وقد أفرد العلامة الجليل المير حامد حسين الهندي مجلداً من كتابه القيم لذكر أسناد هذا الحديث المبارك ، وخصّص المجلد الآخر في دلالاته .

وكتب العلامة الخبير الميرزا نجم الدين الشريف العسكري (ابن خال المؤلّف لأبيه ، وهو الولد الأكبر لآية الله الميرزا محمد الطهراني رضوان الله عليهما) كتاباً باسم «محمد وعليّ وحديث الثقلين وحديث السفينة» ذكر فيه طرق الحديث العديدة مفصلاً .

لا إلى الأخذ به ، لأنّ كتاب الله بدون الإمام ليس كتاب الله ، بل كتاب الآراء والأهواء والتأويلات المنحرفة .

أولم يكن الحجاج بن يوسف الثقفيّ ، الذي سوّدت جناياته صفحات التاريخ يقرأ كتاب الله؟! أولم يكن يأوله على نفسه ولمصلحته؟ أولم يعتبر نفسه أولي الأمر؟ لقد كان حافظاً للقرآن ، وكان يعدّ نفسه أولي الأمر ، وكان يستشهد ويستدلّ بكتاب الله على من يقتله .

فالقرآن بدون الإمام في حكم الأصفار الكثيرة المتراكمة جنب بعضها ، هي جميعاً صفر ولا شيء ، ولا تشكّل عدداً ما ولا تُظهر ميزةً أو خاصيّة ما ، لكنّها حين توضع جنب عدد (١) تكتسب الحياة والفعاليّة ، وتمتلك الميزة والخاصيّة ، وتمثّل عدداً كبيراً ووزناً ثقيلاً .

لو وضعتم أصفاراً تتراكم على بعضها من سطح الأرض إلى سطح القمر لبقيت بلا أثر ، أمّا لو وضع جنبها عدد (واحد) لصار لها كثرة ، وأيّة كثرة ! وأيّة قوّة ، وأيّة شوكة ! وأيّة تأثيرات خارجيّة !

فهذا هو معنى وخاصيّة وأثر الإمام في تحقيق مفاد القرآن ومراده ، ولذلك نقول بأنّ الإمام هو روح القرآن وحياته وحقيقته . القرآن بلا إمام كالجسد بلا روح ، وكالقربة اليابسة بلا ماء ؛ أمّا حين يمسك الإمام بالقرآن فيمنحه دوره في المجتمع ، فإنّ الروح ستُنفخ في هذا الجسد الهامد ، وسينساب ماء الحياة في هذه القربة الخالية ، وستروي ظمأ العطاشى من معينها .

يقول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ شَجَرٍ شَتَّى^١.

١- «ينابيع المودّة» ص ٢٣٥ ، طبعة إسلامبول ، ونقله في ص ٢٥٦ بكيفيّتين عن

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام :

وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالصُّنُوفِ مِنَ الصُّنُوفِ وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعُضُدِ^١.

نعم ، لقد كان الذين حملوا لواء الخلاف عليه هم مشركي الجاهلية وعبدة الأصنام أولئك ، تظاهروا بهذا الشكل والمظهر ، والذين رأوا حكومتهم ورياستهم المادية والشهوية ضمن التلبس بظاهر الإسلام وردائه ، لكنهم كانوا كالذئب التي ارتدت جلد الحمل ، يملؤهم العزم والإرادة على إفناء وتمزيق وهدم كيان الإسلام وابتلاعه .

أولم نقرأ أنّ رسول الله قال : يَا عَلِيُّ ! أَنَا قَاتِلُهُمْ عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَنْتَ تُقَاتِلُهُمْ عَلَى التَّأْوِيلِ !^٢

« كتاب «مودّة القربى» . ويقول في ص ١٧٩ : أَنَا وَعَلِيُّ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ وَالنَّاسُ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى . أوردته عن الديلمي والطبراني في الكتاب «الأوسط» . ويروي في ص ٢٥٦ ، عن كتاب «مودّة القربى» عن ابن عباس مرفوعاً : خُلِقْتُ أَنَا وَعَلِيُّ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ وَالنَّاسُ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى . وجاء في رواية أخرى عنه : خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى وَخَلَقَنِي وَعَلِيًّا مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَأَنَا أَصْلُهَا وَعَلِيُّ فَرْعُهَا وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ أَثْمَارُهَا ، وَأَشْيَاعُنَا وَرَقُّهَا . فَمَنْ تَعَلَّقَ بِهَا نَجَى ، وَمَنْ زَاغَ عَنْهَا هَوَى .

١- «نهج البلاغة» الرسالة ٤٥ ، ضمن رسالة أرسلها عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري عامله في البصرة ، وجاءت في طبعة مصر ، هامش الشيخ محمد عبده : ج ٢ ، ص ٧٣ .

٢- نقل في «بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٤٥٥ و ٤٥٦ ، طبعة الكمباني ، روايات مستفيضة بهذا الشأن ، وأوردته في «غاية المرام» عن طريق العامة عن موفق بن أحمد الخوارزمي ص ٣٣ تحت العنوان العاشر ، ضمن حديث طويل . ويقول العلامة الأميني في «الغدير» ج ٧ ، هامش ص ١٣١ :

وبهذا عرف النبي صلى الله عليه وآله مولانا أمير المؤمنين بقوله : إِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ ، كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى تَنْزِيلِهِ ! قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : لَا ! قَالَ عُمَرُ : أَنَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا ! وَلَكِنْ خَاصِفَ النَّعْلِ ، وَكَانَ قَدْ أُعْطِيَ عَلِيًّا نَعْلَهُ ☞

ولقد كان النداء الملكوتي لسيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام ، الذي كان يبعث الحيوية والنشاط في الأرواح ، هو الذي أتى بالشيخ المتداعي الكوفي الأسدي : حبيب بن مظاهر - وكان من القراء والفقهاء المشهورين - إلى أرض كربلاء : أرض عشق الله والشهادة في سبيله ، فكان أمام أنوار إمامه القدسية التي تجلّت فيه من الذات الأحديّة ، أشبه بأوراق الورود حين تتناثر ، وصفحات المصحف حين تتفرّق عن بعضها ، وفي هذه الحال تهاوى على أرض المعركة .

لقد امتلك حبيب بن مظاهر روحاً ملكوتية لتشيعه الأصيل ، ولممارسته قراءة القرآن وانشغاله به ، ولقد ظهرت فيه أسرار الحق ، وكان له اطلاع على الغيب ، وأشبه قلبه مركز إشعاع اللمعات الإلهية .

يقول المحدث القمي : وَيُظْهِرُ مِنَ الرَّوَايَاتِ أَنَّهُ كَانَ مِنْ خَاصَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَمَلَةَ عِلْمِهِ^١ .

وروى الشيخ الكشي عن الفضيل بن الزبير قال : مرّ ميثم التمار - وهو من خواص أصحاب أمير المؤمنين - على فرس له ، فاستقبله حبيب

﴿ يَخْصِفُهَا . أَخْرَجَهُ جَمْعٌ مِنَ الْحَفَازِ ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَالذَّهَبِيُّ وَالْهَيْثَمِيُّ كَمَا يَأْتِي تَفْصِيلُهُ .

وأورد ابن عساكر الدمشقي في تاريخ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ و ٤٨٦ ، الحديث ١٠٠٤ ، بسنده المتصل عن أمير المؤمنين عليه السلام : قَالَ : كُنْتُ إِذَا سَأَلْتُهُ أَجَابَنِي ، وَإِنْ سَكَتُ عَنْهُ ابْتَدَأَنِي وَمَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ آيَةٌ إِلَّا قَرَأْتُهَا وَعَلِمْتُ تَفْسِيرَهَا وَتَأْوِيلَهَا ، وَدَعَا لِلَّهِ لِي أَنْ لَا أَنْسَى شَيْئًا عَلَّمَنِي إِيَّاهُ ، فَمَا نَسِيتُ مِنْ حَرَامٍ وَلَا حَلَالٍ ، وَأَمْرٍ وَنَهْيٍ ، وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ .

وَلَقَدْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي وَقَالَ : اللَّهُمَّ ائْمَلْ قَلْبَهُ عِلْمًا وَفَهْمًا وَحُكْمًا وَنُورًا . ثم قال لي : أَخْبِرْنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَدْ اسْتَجَابَ لِي فِيكَ .

١- «سفينه البحار» ج ١ ، ص ٢٠٣ .

ابن مظاهر الأسديّ عند مجلس بني أسد ، فتحدّثا حتى اختلفت أعناق فرسيهما ، ثم قال حبيب :

فَكَأَنِّي بِشَيْخٍ أَصْلَعٍ ضَخَمَ الْبَطْنِ يَبِيعُ الْبَطِيخَ عِنْدَ دَارِ الرِّزْقِ قَدْ
صَلَبَ فِي حُبِّ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، وَبَيَّرَ بَطْنَهُ عَلَى الْخَشْبَةِ .^١
فقال ميثم :

وَأَنْنِي لِأَعْرَفُ رَجُلًا أَحْمَرَ لَهُ ضَفِيرَتَانِ ، يَخْرُجُ لِنُصْرَةِ ابْنِ بَنْتِ نَبِيِّهِ
فَيَقْتُلُ وَيَجَالُ بِرَأْسِهِ فِي الْكُوفَةِ .

ثم افترقا ؛ فقال أهل المجلس : ما رأينا أكذب من هذين .
قال : فلم يفترق أهل المجلس حتى أقبل رُشيدُ الهَجْرِيِّ فطلبهما
فسأل أهل المجلس عنهما ، فقالوا : افترقا وسمعناهما يقولان كذا وكذا .
فقال رُشيد :

رَحِمَ اللَّهُ مَيْثَمًا ، أَنْسَى : وَيَزَادُ فِي عَطَاءِ الَّذِي يَجِيءُ بِالرَّأْسِ مَائَةً
دِرْهَمٍ ! ثُمَّ أَدْبَرَ .

فقال القوم : هَذَا وَاللَّهِ أَكْذَبُهُمْ .
فقال القوم : وَاللَّهِ مَا ذَهَبَتِ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي حَتَّى رَأَيْنَا مَيْثَمًا مَصْلُوبًا
عَلَى بَابِ عَمْرٍو بْنِ حَرِيثٍ ؛ وَجِيءَ بِرَأْسِ حَبِيبِ بْنِ مَظَاهِرٍ وَقَدْ قُتِلَ مَعَ

١- إنَّ المعهود في زماننا أنَّ من يُراد إعدامه شقاً يُلقى في عنقه حبل فيُعلق منه ،
ومثل هذا الشخص يخنق ويموت على الفور ، أمّا من كان يُصلب سابقاً فكانوا يثبّتون بدنه
بالجبال أو المسامير على خشبة بشكل صليب ، فتكون قامته ممتدة على استقامة الخشبة
العموديّة وتكون ذراعه ممدودتين على الخشبة الأفقيّة ، ثم يوقفون هذه الخشبة في مكان
عالٍ ، كشجرة أو عمود أو بناء فيتركونه ليموت شيئاً فشيئاً جوعاً وعطشاً ، أو من نزع
الدماء الجارية من مواضع التسمير ، وربّما انجرّ عذابه إلى يومين أو ثلاثة ، ويحصل أحياناً
أن يُطعن بحربة -كما فعلوا بميثم- ليزداد عذابه ويعجلوا بموته .

الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَأَيْنَا كُلَّ مَا قَالُوا.^١

وكان حبيب بن مظاهر من بين السبعين نفرًا الذين استشهدوا في ركاب سيّد الشهداء عليه السلام .

يقول أبو عمرو الكشي: وَكَانَ حَبِيبٌ رَحْمَةً اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ السَّبْعِينَ الرَّجَالِ الَّذِينَ نَصَرُوا الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَقُوا جِبَالَ الْحَدِيدِ وَأَسْتَقْبَلُوا الرِّمَاحَ بِصُدُورِهِمْ وَالسُّيُوفَ بِوُجُوهِهِمْ وَهُمْ يُعْرَضُ عَلَيْهِمُ الْأَمَانُ وَالْأَمْوَالُ فَيَأْبُونَ وَيَقُولُونَ: لَا عُدْرَ لَنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِنْ قُتِلَ الْحُسَيْنُ وَمِنَّا عَيْنٌ تَطْرَفُ! حَتَّى قُتِلُوا حَوْلَهُ - انتهى.^٢

حبيب بن مظاهر ، قام يوم عاشوراء وهو يضحك ، فقال له يزيد بن حصين الهمداني - وكان يُقال له سيّد القراء - : يَا أَخِي لَيْسَ هَذِهِ سَاعَةٌ ضِحْكٍ !

قَالَ حَبِيبٌ : فَأَيُّ مَوْضِعٍ أَحَقُّ مِنْ هَذَا بِالسُّرُورِ ؟ وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَمِيلَ عَلَيْنَا هَذِهِ الطُّغَاةُ بِسُيُوفِهِمْ فَنَعَانِقُ الْحُورَ الْعَيْنِ.^٣
وروى أبو مخنف: لَمَّا قُتِلَ حَبِيبُ بْنُ مَظَاهِرٍ ، هَدَّ ذَلِكَ حُسَيْنًا وَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ : أَحْتَسِبُ ٤ نَفْسِي وَحَمَاةَ أَصْحَابِي ٥ !
وجاء في بعض كتب المقاتل أنّ الحسين عليه السلام قال : لِلَّهِ دَرْكٌ

١- «سفينه البحار» ج ١ ، ص ٢٠٣ .

٢- نقله في «سفينه البحار» ج ٢ ، ص ١١ . وذكره كذلك في «السفينه» ج ١ ، ص ٢٠٣ .

٣- «سفينه البحار» ج ١ ، ص ٢٠٤ .

٤- احْتَسَبَ وَوَلَدًا لَهُ : فَقَدَهُ . وباعتبار الواو في وَحَمَاةَ أَصْحَابِي للمعيّة ، فالإمام عليه السلام يريد القول بأنّه يفقد نفسه بموت أصحابه ، أي : ليتني يا إلهي عدت الحياة بعد موت أصحابي وحماتي هؤلاء .

٥- «سفينه البحار» ج ١ ، ص ٢٠٣ و ٢٠٤ .

يَا حَبِيبُ! لقد كنتَ فاضلاً تختتم القرآن في ليلةٍ واحدة^١.
 وحمل حبيب كالأسد الغضوب ، وبعد أن اخترق سيفه وجه فرس
 الحصين بن تميم الذي سقط على إثرها إلى الأرض فأسرع إليه أصحابه
 لنجدته - وعلى رواية - أنّ حبيباً نال شرف الشهادة الرفيع بعد أن قتل منهم
 اثنين وستين رجلاً .

ولقد ثقلت شهادة هذا الشيخ الناسك ، العابد الزاهد ، الفقيه قارئ
 القرآن - الذي كان من أصحاب البلايا والمنايا ومن خواص أصحاب
 أمير المؤمنين عليه السلام - على سيد الشهداء عليه السلام ، فبان الانكسار
 في وجهه ، فقال زُهَيْرُ بْنُ الْقَيْنِ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ! أولسنا على الحق ؟ قال :
 بلى !

هؤلاء هم الصحابة الذين خطبهم الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء ،
 فقال عنهم :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْمَدُكَ عَلَى أَنْ أَكْرَمْتَنَا بِالنُّبُوَّةِ وَعَلَّمْتَنَا الْقُرْآنَ وَفَقَّهْتَنَا
 فِي الدِّينِ وَجَعَلْتَ لَنَا أَسْمَاعًا وَأَفئِدَةً ، فَاجْعَلْنَا مِنَ الشَّاكِرِينَ .
 أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَصْحَابًا أَوْفَى وَلَا خَيْرًا مِنْ أَصْحَابِي ،
 وَلَا أَهْلَ بَيْتِ أَبَرٍّ وَلَا أَوْصَلَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ؛ فَجَزَاكُمُ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا .

ومن هذا المنطلق هاجروا جميعاً كالعشاق يوم عاشوراء ، فنصبوا
 مخيمهم وسرادقهم خارج هذا العالم ، وبقي الحسين عليه السلام وحيداً ،
 لا ناصر له ولا معين ، بقي متكئاً على رمحه ، فنادى في آخر لحظات
 الانقطاع والوجد : يَا مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ ! وَيَا هَانِيَّ بْنَ عُرْوَةَ ! وَيَا حَبِيبَ بْنَ

١- «منتهى الآمال» ج ١ ، ص ٢٦٣ (بالفارسيّة) ، وأوردنا العبارة من مقتل أبي

مخنف (م).

مَظَاهِرِ !

حتى يصل إلى هذه الجملة الخطابيَّة : يَا أَبْطَالَ الصِّفَا ! وَيَا فُرْسَانَ
الهِجَاءِ ! ما لي أناديكم فلا تجيبون ؟ وأدعوكم فلا تسمعون ؟ أنتم نيام !؟
أرْجوكُمُ تنتبهون ، أم حالت مودتكم عن إمامكم فلا تنصروه ؟
ولقد أثار قراء القرآن الشيوخ هؤلاء الاضطراب في ساحة كربلاء
على قتلهم ، ممَّا جعل الأرض تضيق برحبها على تلك الجماعة الكثيرة من
الجيش المحارب للقرآن ، مع أنَّ هؤلاء كانوا اثنين وسبعين نفرًا وأولئك
ثلاثين ألفًا .

وقد نقل عن ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» قال :

قِيلَ لِرَجُلٍ شَهِدَ يَوْمَ الطَّفِّ مَعَ عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ : وَيَحْكُ ! أَقْتَلْتُمْ ذُرِّيَّةَ
رَسُولِ اللَّهِ !؟

أجاب : عَضَضْتَ بِالْجَنْدَلِ ! لَوْ شَهِدْتَ مَا شَهِدْنَا لَفَعَلْتَ مَا فَعَلْنَا ؛
ثَارَتْ عَلَيْنَا عَصَابَةٌ أَيْدِيهَا فِي مَقَابِضِ سُيُوفِهَا كَالْأَسُودِ الضَّارِيَةِ ، تَحْطِمُ
الْفُرْسَانَ يَمِينًا وَشِمَالًا وَتُلْقِي أَنْفُسَهَا عَلَى الْمَوْتِ ؛ لَا تَقْبَلُ الْأَمَانَ
وَلَا تَرْغَبُ فِي الْمَالِ ، وَلَا يَحُولُ حَائِلٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُرُودِ عَلَى حِيَاضِ
الْمَنِيِّ أَوْ الْاسْتِيْلَاءِ عَلَى الْمُلْكِ .

فَلَوْ كَفَفْنَا عَنْهَا رُوَيْدًا لَأَتَتْ عَلَى نُفُوسِ الْعَسْكَرِ بِحَذَافِيرِهَا ؛ فَمَا كُنَّا
فَاعِلِينَ لَا أُمَّ لَكَ ؟^١

لِلَّهِ مِنْ فَتِيَةٍ فِي كَرْبَلَاءَ ثَوُوا
وَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ مَا يَجْرِي عَلَى الْقَدْرِ

١- «سفينه البحار» ج ٢ ، ص ١١ .

صَالُوا وَلَوْلَا قَضَاءُ اللَّهِ يُمَسِّكُهُمْ
لَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَنِي سُفْيَانَ مِنْ أَثَرِ
سَلِّ كَرْبَلَا كَمْ حَوَتْ مِنْهُمْ هِلَالَ دُجَى
كَأَنَّهَا فَلَكِ لِالْأَنْجُمِ الزُّهْرِ^١

ای حمد تو از صبح ازل هم نفس ما
کوتاه ز دامن تو دست هوس ما
ما قافله کعبه عشقیم که رفته است
سر تا سر آفاق صدای جرس ما
در پای تو آلوده لب از می چه بیفتیم
رانند ملائک به پر خود مگس ما^٢
لِلَّهِ دَرُّهُمْ مِنْ فَتْيَةٍ صَبَرُوا مَا إِنْ رَأَيْتَ لَهُمْ فِي النَّاسِ أَمْثَالًا

١- نقل الحقیقیر هذه الأبیات فی کشکولی الخطی «جنگ خطی» (= الدفتر الخطی)، رقم ٨، ص ٧٤، ضمن الفقرات الاثنی عشر المعروفة للسید بحر العلوم، لکن المرحوم المحدث القمی نسبها فی «نفس المهموم» ص ٣٢٦، طبعة اسلامیة، ١٣٣٨ هجرية قمرية، إلى الشیخ کاظم الأزري.

٢- یقول: «تردد مدیحک منذ الأزل مع أنفاسنا، وقصر خیالنا عن مس فاضل ردائک. نحن قافلة کعبه العشق الذاهبة، طبق جرس مسیرنا الآفاق أجمع. لو تهالکنا علی قدمیک بشفاه مدنسة مخمورة، لطردتنا عنک -کطرد الذباب- بأجنحتها الملائكة».

